مصر والشام بين دولتين

الشيال

New York University
Bobst Library
70 Washington Square South
New York, NY 10012-1091

DUE DATE	DUE DATE

مصر والشام

بين دولتين

قصة تاريخية تصف الأحداث في القطرين الشقيقين بين سنتي ٥٥٨ ، ٥٦٩

إبان انحلال الدولة الفاطمية وقيام دولة بني أيوب

تأليف

جمال الدين الشيال

المدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

الناشر

دار الفكر العربي

Elmer Holmes Bobst Library
54

مصر والشام

بين دولتين

قصة تاريخية تصف الأحداث في القطرين الشقيقين بين سنتي ٥٥٨، ٥٦٩

إبان انحلال الدولة الفاطمية وقيام دولة بني أيوب

تأليف

جمال الدين الشيال

المدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

الناشر

دار الفكر العربي

DT
95
.5
.S43
1947

مطبعة أحمد مخيمر شارع فاروق تليفون ٤٧١٩٣

الإهداء

إلى أخى وصديق الكريم

الاستاذ محمد خلف الله

أستاذ الأدب العربى بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

أخى خلف الله .

كان لى أخوان شقيقان هما المرحومان الأستاذان حامد ومحمد عبد الرحيم ؛ وكانا يكبرانى سناً .

وعلم الله لقد كانا فى الشباب مثالين عاليين : أخلاق نبيلة كريمة ، ووطنية مخلصة صادقة ، وإيمان بالله عميق وثيق ، ونفس طاهرة صافية

ولقد نعمت بأخوتهما زماناً كنت فيه طفلا وصبيا ويافعاً ، فكانا لى القدوة الطيبة ، والأستاذين الجليلين ، فقبست من شمائلهما ما زلت أعتد به حتى اليوم . ثم تخيرهما الله لجواره خيرَ ما يكونان أملا باسما مبشراً ، وأشد ما أكون حاجة إلى أخوتهما وعونهما ، وبقيت وحدى أنشد الأخ فى الحياة فلا أجده ، وأكتم الألم على فقدهما فى أعماق نفسى ، وأبكيهما بقلبى ووجدانى ، وذخيرتى الوحيدة التى أستضىء بها هى ذكرى هذه الأخوة الحبيبة — وكأنها حلم جميل — أتلمسها كلما ادلهمت بى الخطوب واحتجت إلى الأخ المعين .

ثم نقلت إلى الأسكندرية ، وتعرفت إليك أيها الأخ النبيل فعرفت فيك صورة من أخوى الراحلين ، ووجدت من عواطفك الرقيقة وخلقك الانسانى وعطفك علىّ عوضاً طيباً عما فقدت بفقد أخوى .

وأنت تعلم أيها الأخ الكريم أن خير ما اعتد به هو جهدى الفكرى وإنتاجى القلمى ؛ وقد كنت عزمت — عندما انتهيت من كتابة هذه القصة منذ سنوات — على إهدائها إلى روحى أخوى الشقيقين الراحلين ، ولكننى رأيت — بعد أن قدمتها للمطبعة — أن أتقدم بإهدائها إليك أيها الأخ الكريم ، لا نسيانا لذكراهما العزيزة ، ولكن توكيداً لهذه الذكرى ، ووفاء لبعض ما أسديت إلى من جميل ، وقد كان الوفاء من خير ما علمانى من مثل — رحمهما الله وحفظك من كل سوء ، وأدام لى أخوتك ؟

جمال الدين الشيال

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الموفق لكل عمل صالح ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء ؛ أما بعد فهذه قصة تاريخية حاولت أن أعرض فى فصولها ماجرى فى مصر والشام من أحداث فى الفترة بين سنتى ٥٥٨ و ٥٦٩ هـ ، وقد انتهت هذه الاحداث بالقضاء على دولة مجيدة — ظلت تحكم القطرين الشقيقين مستقلة مدة قرنين من الزمان ، وهى الدولة الفاطمية — وقيام دولة جديدة مجيدة أيضا هى دولة بنى أيوب .

وأنا بهذه المحاولة أحقق رغبة خاصة كانت ولا تزال تتردد فى نفسى كلما جلست إلى مراجع تاريخنا القديمة بأسانيدها وأساليبها وخطوطها المتعثرة الباهتة — إن كانت مخطوطة . وورقها الأصفر وطبعاتها الكليلة — إن كانت مطبوعة : كنت إذا خلوت إلى هذه الكتب القيمة دمغتنى صور الماضى الجميلة إليها فعشت فى تلك العصور الغابرة المليئة بصفحات المجد وتجارب الانسان ، وصور البطولة وعبر الزمان . فإذا جلست إلى تلاميذى أحدثهم عن هذا التاريخ ، وأروى لهم أحداثه ، وأغريهم بقراءة مراجعه ، وجدت منهم صدوداً عنها ، وصدوفا عن السعى إليها ، والاستمتاع بقراءتها ، واستخلاص الحقيقة من بين ثناياها .

لهذا كنت أعلل النفس بالآمال : إن هذا التاريخ لو استخلص من هذه المخطوطات ، ونفضنا عنه ما يتعلق به من أسانيد واستطرادات وعرضناه على شبابنا عرضا قصصيا جذابا ، إذن لوجد طريقه إلى نفوسهم سهلة ميسورة ، وإذن لأثر فيهم أثراً طيباً فأحيا هممهم ، وشحذ عزائمهم ، وزوّدهم بتجارب غالية ثمينـــه ، تفيدهم الفائدة كلها وهم يضطربون فى هذا العصر القلق يبنون لأنفسهم وللعرب أسس النهضة الجديدة والمجد الجديد .

وهذه القصة هى المحاولة الأولى لتحقيق هذه الرغبة التى كانت تضطرم فى نفسى — ولعلها تضطرم فى نفوس الكثيرين غيرى — أرجو أن أكون قد وفقت فيها بعض التوفيق ، وإلا فالخير أردت ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب .

جمال الدين الشيال

الاسكندرية { ٧ جمادى الآخرة ١٣٦٦
{ ٢٨ ابريل سنة ١٩٤٧

فرار شاور

استيقظت القاهرة نشيطة صباح يوم الجمعة الأول من شهر رمضان سنة ٥٥٨ ، ولبس أهلوها أجمل ما لديهم من حلل ، ووفد عليهم سكان الفسطاط ليشتركوا وإياهم فى الاحتفال بموكب الخليفة، وفتحت الدكاكين وجلس التجار يرحبون بأصدقائهم الذين أتوا ليجدوا لهم مكاناً على الأرائك الممتدة أمام هذه الدكاكين حتى يستطيعوا رؤية الموكب فى يسر وسهولة ، وانتشر العامة على جانبى الطرق ينتظرون ، وانبث الباعة يحملون اللعب والحاوى والفواكه على رؤوسهم وعلى عربات مزينة بالأعلام يجرونها ، يفتنون فى عرض بضاعتهم والدعوة لها ، وهم ينادون عليها بأصوات عذبة وألحان جميلة، ويستعينون على ذلك بالطبل والدف والمزمار .

فلما كان الضحى خرج الخليفة العاضد من القصر الكبير ممتطياً صهوة جواده ، وعلى رأسه التاج الشريف تبرق جواهره ولآلئه ، والدرة اليتيمة على جبهته ، وقد تقلد بسيف عربى مرصع بالأحجار الكريمة، وقضيب الملك فى يده ؛ وكان الجواد لا يقل زينة عن راكبه : عليه سرج موشى بالذهب والفضة مرصع بالجواهر ، وفى عنقه طوق من الذهب وقلائد من عنبر ، وفى أرجله خلاخل الذهب والفضة وهو يتهادى فى مشيته معتزاً بمن يركبه ، فخوراً بما يغطيه من زينة وزخرف .

وسار الخليفة وعلى يساره صاحب المظلة وهو يحرص ألا يزول ظلها من أمير المؤمنين ، وعن يمينه ويساره ألف رجل من الركابية مقلدو السيوف مشدودو الأوساط بالمناديل والسلاح ، وكان يتقدم الموكب أجناد الأمراء وأولادهم وأخلاط العسكر يتبعهم أرباب القُضُب الفضة من الأمراء ، ثم أرباب الأطواق منهم ، ثم الحاملان للواءى الحمد ، ثم حامل الدواة وبعده حامل السيف ، ويلى هؤلاء جميعاً الخليفة بين الركابية يسير على تؤدة ورفق ، وفى مقدمة العسكر والى القاهرة يذهب ويعود ليفسح الطريق ، وفى الوسط القائد العام للجيش يحث الأجناد على الحركة ويزجر المتزاحمين والمعترضين ، وبالقرب من الخليفة ضرغام صاحب الباب ذاهباً وعائداً يحرس الطرقات ؛ وخلف الخليفة جماعة من الركابية لحفظ أعقابه ، يليهم عشرة يحملون عشرة سيوف فى خرائط من الديباج الأحمر والأصفر ، ووراءهم الوزير شاور فى أبهة الملك وجلاله ، وفى ركابه خمسمائة رجل من خيرة أصحابه وقوم من أقوياء الأجناد ، وخلفه الطبول والصنوج والصفافير ترسل الألحان شجية متصلة قوية تدوى من أصواتها الدنيا ، ويتبعهم رجال الأساطيل مشاة يحملون القسىّ العربية ، وبقية فرق الجيش ورجال تباينت أرديتهم واختلفت أسلحتهم فيهم المغاربة والأتراك والأكراد والديلم والمصريون .

وسار الموكب فى الميدان بين القصرين ، وخرج من باب النصر ثم انعطف يساراً طالباً باب الفتوح فدخل منه ، فلما وصل الخليفة

الجامع الأقمر وقف هناك فى جماعته ، وانفرج الموكب للوزير فتحرك مسرعا حتى وقف أمام الخليفه فأشار بالسلام عليه إشارة خفيفة ، ثم أسرع الوزير حتى سبق الخليفة إلى باب القصر فترجل ووقف ومعه الأمراء ينتظرون الخليفة ، فلما وصل دخل القصر راكبا ؛ وعاد الوزير فركب جواده والأمراء بين يديه يخدمونه حتى وصل إلى دار الوزارة .

وصعد شاور إلى غرفته وهو يختال فى حلته الموشاة بالذهب المحلاة بالجوهر ، وجلس هناك على أريكة يستريح مما عاناه من تعب وجهد فى إعداد الموكب والسير فيه ؛ وكانت علائم السرور والغبطة واضحة على محياه فقد كان يعتقد بعد أن وصل إلى منصب الوزارة أن الحظ قد بسم له ، وأن الأيام قد صفت من كل مايكدر ، فحذا حذو سلفه من الوزراء السابقين وجمع السلطة كلها فى يديه ، ولم يدع لخليفته العاضد — وهو طفل فى العاشرة من عمره — من الأمر شيئاً ، ولم يلق بالا إلى الشعب أو صالحه .

وترك الأريكة بعد لحظات ووقف ينظر من نافذة الغرفة فرأى سكان الفسطاط والقاهرة فى حللهم البسيطة الجديده الجميلة الفاقعة الألوان يعودون بعد رؤية الموكب جماعات جماعات يتعلق بأذيالهم أطفالهم يحملون الحلوى واللعب .

ونظر أيضا فرأى قصور القاهرة متناثرة تحوط بها الحدائق الغناء ومن خارج السور النيل يجرى فى لون اللجين والعسجد تحت أشعة

الشمس المشرقة ، وعلى ضفتى النيل حقول ممتدة يغطيها بساط من سندس يعجب الناظرين .

ونظر إلى نفسه فرأى أنه هو الحاكم بأمره فى هذا البلد وأهله فانتفخت أوداجه وأحس قوة السلطان تسرى فى عروقه ، وكأنه كان يقول كما قال فرعون من قبل .

« أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى » .

وبينا هو يسبح مع خياله ناعما إذ بالباب يطرق ثم يفتح ، ودخل ابنه طى غاضباً ، فحيى وجلس ثم ابتدر أباه فقال :

— ياأبت ، أنت غافل ، وهذا صاحب الباب ضرغام يفسد أمرك وقد شرع يمهد الأمور لإعادة رزيك ، واستحلف له جماعة من الأمراء .

فلم يصدق شاور مقالة ابنه ، ولكنه أراد أن يجاريه فى ظنه ورأيه فقال :

— وماذا ترى ؟

— ماذا أرى ؟! ليس هناك إلا حل واحد .

— وما هو ؟

— أن تقتل رزيك .

— أهذا رأيك ؟! لا يابنى ، ليس هـــذا من الوفاء فى شىء ، ألا تعلم أن أبا رزيك — الصالح طلائع — هو صاحب الفضل على أبيك ؟! أليس هو الذى قربنى إليه ثم ولانى قوص فكنت صاحب الأمر فى الصعيد الأعلى كله ؟ ثم أليس هو الذى أوصى ابنه

هذا قبيل موته أن يبقى علىّ ولايتى وقال له :

— « لاتزلزل شاور من ولايته » .

ثم تولى ابنه رزيك الوزارة بعد موته فدنتُ له بالولاء ، ومددتُ له حبل الود ، ولكنه لم يعمل بوصية أبيه ، فثارت بيننا أسباب النزاع ، وكان لا بد أن يتغلب واحد منا على الآخر ، وقد وفقنى الله وغدوت وزيراً ، وكنت استطيع أن أقتله يومذاك ، ولكننى أبقيت على حياته اعترافا بجميل أبيه ، واكتفيت بسجنه ، فما الذى جد حتى أغير رأيى فأغدر بهذا الشاب ؟ ، قد يكون حقا ما تقول أن ضرغاما يسعى هذا السعى ، ولكن ماذنب رزيك وهو حبيس جدران السجن وليس له من الأمر شىء ؟ !

— أنا أعلم هذا كله ياأبت ، ولكن ضرغاما أيضا من صنائع الصالح طلائع ، وهو يجمع الأمراء حوله باسم الوفاء لمولاه وابن مولاه .

— لاتخش شيئا يابنى واترك هذا الامر لى .

فهز طى رأسه غير مقتنع بهذا الحل ثم قال :

— الأمر أمرك يا أبت ، ولكننى أديت واجبى .

ثم استأذن وخرج مغضبا محنقا ، وأخذ يدير الأمر فى رأسه ويفكر ويعيد التفكير ، فقد كانت تدفعه حماسة الشباب وطعم السلطان الذى ذاقه فاستساغه ، وراح يستعيد حديث ذلك الأمير الذى نقل إليه خبر المكيدة ، وحديث أبيه فلم يقتنع بهذه الإجابات المعلقة ، وأخذ يؤنب نفسه ويلومها : « لم لم تذهب ياطى فتقتل هذا الشاب

السجين قبل أن تخبر أباك ؟ ! » فترد نفسه الجامحة وتقول : « وماذا حدث ؟ إن الوقت لم يفت ، فلتنفذ هذه الرغبة الآن ، وسيجد أبوك نفسه أمام الأمر الواقع فيرضاه ولا يطيق أن يفعل شيئا . . » وهنا ضرب الارض بقدمه فى ضجر وقال : « لا يقهر إلا المتردد » ثم ألقى بنظره على السيوف المعلقة على حائط غرفته فى نظام أنيق جميل . واختار من بينها سيفا قاطعا شدَّه إلى وسطه وخرج يقصد إلى السجن .

وكانت علائم الجد والصرامة تبدو على محيـــاه كما كانت عيناه تنطقان بالشر ، ففتح له السجان الباب عند تلقى أول إشارة منه ، ووقف بعيداً اتباعا لأمره ، ولـكنه كان يسمع جدالا عنيفاً داخل السجن ثم نضالا قويا تلته صرخة عالية وصوت رزيك وهو يقول .

— « قتلتنى قتلك الله » .

° ° °

وعلم شاور بمصرع رزيك فحزن وتألم ، وثار على ولده ثورة عنيفة وأنبه على فعلته تأنيباً شديداً ، ولـكن الأمر كان قد خرج من يده فراح يفكر فى حمق ابنه وطيشه ، وكيف قاده إلى هذه الفعلة النكراء وقدَّر أن صنائع رزيك وأبيه فى الجيش لا بد وأن يثوروا . وقد تحقق ظنه فعلا فإن ضرغاما لم يكد يصله الخبر حتى أسرع إلى رفاقه الذين عاهدوه على نصرة رزيك ، وأخذ يثير شعورهم ضد شاور وأولاده ، ويستنهض هممهم للقيام والثأر لرزيك : فلبوا نداءه ، وتواعدوا على

اللقاء فى الميدان بين القصرين ، وأرقلوا إرقالا حتى لايحس شاور بحركتهم فيستعد لها .

وفى اليوم التالى — عند الظهيرة — بينا شاور فى دار الوزارة قد أبعد عنه رجاله وكتابه ، وجلس مستلقيا على أريكته جلسة المستجم من عناء العمل والتفكير . يستعيد فى مخيلته صور النضال الأخير ، ومصرع رزيك ؛ ويدبر فى نفسه ماعساه يتخذه ضد ضرغام والأمراء إذا ثاروا ، وبينا هو فى هذا التفكير والتدبير إذا به يسمع جلبة وضوضاء وقعقعة سلاح بدت ضعيفة بعيدة أول الأمر ، ثم أخذت فى الوضوح شيئاً فشيئاً ، فأحس كأن يداً قوية قد قبضت على قلبه فاهتصرته ، وارتاع — وهو الرجل الجلد — وأسرع إلى نافذة غرفته فرأى فرق الجند والأمراء وقد سدت الطريق من أوله ، وهى تسرع نحو دار الوزارة تزمجر وتهدد وتتوعد ، وكانت الأصوات تلعن شاور ، وأبناء شاور ، ورجال شاور .

أخذ الرجل على غرة فحار كيف يفعل ، ثم أسرع فارتدى قباءه الذى خلعه ، ووضع خوذته على رأسه وامتشق حسامه ؛ وفى قفزات قليلة كان يتوسط فناء الدار ويصدر أوامره الشديدة بصوت كالرعد إلى حرس الدار وجنودها أن يوصـــدوا الأبواب ويقفوا خلفها يمنعون الجند المهاجمين ؛ وقاد هو فرقة من الفرسان وخرج إلى الميدان حيث ناضل نضال الأبطال ، وكافح كفاح المستميت ، ولـكنه سرعان ما أدرك أن المقاومة غير مجدية ، فتقهقر قليلا قليلا إلى أحد أبواب

الدار الخلفية ، وانسل إلى غرفته ، واتجه إلى صورة جميلة تغطى جانبا من الحائط رسمت عليها بركة مائية فى وسطها مقصورة مزينة بالتماثيل وجلس داخلها فتى جميل يستمع إلى مغنية بيدها العود وحولها الراقصات والأشجار الفارعة والنخيل الباسق على شواطىء البركة ، والطيور ذات الريش الجميل تتنقل على الأفنان والأغصان .

نظر شاور إلى الصورة ملياً ، ثم نزع المسامير الأربعة المذهبة التى تثبت إطار الصورة الخشبى فى الحائط ، ورفع اللوح الخشبى المصور إلى أعلى فظهرت خلفه رفوف ممتدة داخل الحائط فمد يديه فى سرعة إلى صرار المال يخرجها ودسها بين ثنايا ثوبه وطياته ، وأعاد الصورة إلى مكانها ، وأسرع ثانية إلى الباب الخلفى فنادى ثلاثة من خلص جنوده الأوفياء ، وامتطى الجميع صهوات جيادهم ووقفوا على استعداد ، ثم أمر بقية الجند بفتح الأبواب كى يدخل أعوان ضرغام فلما اطمأن إلى وجودهم جميعاً فى القصر يجوسون خلال غرفه بحثاً عنه أطلق هو وصحبه الأعنة لخيلهم ، وأسرعوا يلوذون بأذيال الفرار .

حديث على ضفة النيل

انتهت صلاة المغرب فى مسجد عمرو وجلس الفقيه زين الدنيا ابن نجا مطأطئاً رأسه مسبلا عينيه يستغفر ربه ،ويقرأ بعض الأدعيات الخاصة التى اعتاد أن يتلوها عقب كل صلاة ، وما أن انتهى من تلاوته حتى رفع يديه ووجهه إلى السماء يكمل الدعاء فى صوت خفيض ولكنه صادر عن قلب قوى عامر بالإيمان ، وانتهى من الدعاء ، ومسح وجهه بيديه ، ومال إلى يمينه فأخذ خفيه فى يده وقام يريد الخروج، فقد كان الجو حاراً فى ذلك اليوم والهواء ساكنا لا يكاد يتحرك ؛ وسار الفقيه يقصد باب المسجد فإذا به يلمح صديقه الشيخ أبا الحسن جالساً قرب الباب ساهما تبدو عليه علائم التفكير العميق فابتدره بتحية المشوق قائلا :

— مرحباً ياأبا الحسن .

فهم أبو الحسن واقفاً فى حركة سريعة وقدذعر لهذه التحية المفاجئة التى قطعت عليه حبل تفكيره وقال :

— مرحباً بك أنت أيها الفقيه الجليل وأهلا وسهلا .

ثم سأل الفقيه :

— أين كنت ياأبا الحسن فانى تلفت أبحث عنك بين المستمعين لدرسى عصر هذا اليوم فلم أجدك فشغلت عليك ، وساءلت نفسى ، ترى أى سبب أخرك هذه المرة عن واجبك الذى لم تنسه منذ مدة

طويلة ، وخاصة أن حر اليوم كان قائظاً لافحاً ، وقد افتقدك مستمعو الدرس وكنت أسمعهم يتهامسون :

— « أين أبو الحسن — أين ابو الحسن يروى عطشنا فى هذا الحر بمائه العذب وقد عطره وجمّل طعمه بماء الزهر اللطيف : ثم سكت هنيهة واستأنف حديثه وضحك ملاطفا الشيخ بقوله :

— والحق أننى أنا أيضا اشتقت لكوب من مائك بعد أن غبت عنك وعنه أسبوعين كاملين .

— إنى لآسف جد الأسف يامولاى إذ لم أعلم بخبر عودتك وإلا لسارعت بالحضور لاستمع إلى درسك القيم فإنى أعلم أنه قد فاتنى خير كثير بغيابى اليوم ، ولكننى كنت مشغولا بضيف مريض ، بل جريح .

— لازلت سباقا للمكرمات يا أبا الحسن ، ولكن مالنا نقف هاهنا والجو خانق ؟

ثم أخرج منديلا من جيبه ومسح به عرقه الناضح على وجهه وقال لرفيقه:

— هيا بنا نخرج فنسير على شاطىء النيل حتى يحين وقت العشاء لعلنا نظفر بنسمات متبردة نوعا تخفف عنا بعض ما نحس من هذا الضيق ، ثم إنى أريد أن استمع إلى ما تعرف عن أخبار مصر والقاهرة مدة غيابى .

ووضع كل من الرجلين خفيه فى قدميه ، وسارا صامتين بعيدا

عن المسجد يمان وجههما شطر النيل ؛ وكانا كلما اقتربا منه أحسا نسمات خفيفة تهب على وجههما حتى وصلا الشاطىء وسارا بمحاذاته قليلا فزاد هبوب النسيم ، ولطف الجو كثيرا ، وأحسا بعض الهدوء فى رأسيهما ونفسيهما ، واستمرا فى السير صامتين حتى وصلا شجرة جميز عاتية كثيرة الغصون وقد مهدت الأرض تحت فروعها وسُوِّرت بسور قصير من الطين ، وفرشت حصيراً باليا ، وفى أحد جوانبها قلل كثيرة أعدت ليشرب منها المارة إذا عطشوا ، فقال الفقيه :

— أظن أن هذا المكان هو خير ما نطلب فى هذه الساعة يا أبا الحسن فلنسترح هنا قليلا حيث نستقبل نسمات الليل الباردة ونمتع أنظارنا بهذا النيل الجميل ؛ وهنا أيضا نستطيع أن نتحدث كيف نشاء ونحن منفردان فإن أرباب الفلك مشغولون الآن مع أهل الفسطاط الفارين من حر المدينة إلى فلكهم يتنزهون فيها ، وأحسبهم لا يعودون إلا بعد ساعات .

— إنهم مشغولون حقا . ولكنهم سوف لا يتأخرون عن موعد العشاء لأن الناس لا يجرأون كثيرا على الخروج فى هذه الأيام المضطربة العصيبة ، فهم يفضلون الحر فى منازلهم على النزهة والتعرض لحوادث الجند وقتالهم .

— أجل ذكرتنى يا أبا الحسن وكنت نسيت ، حدثنى الآن كيف انقضت هذه الأيام بحوادثها الغريبة فقد كنت شاهدا لها ، وقبل أن أنسى مرة ثانية من يكون هذا الضيف الجريح الذى شغلك اليوم عنا ؟

— إنه شاب تعرفه ياسيدنا ، فقد كان يحضر دروسك دائما إنه عبد الرحمن القوصى .

— عبد الرحمن ؟ ! هذا الشاب النابه الذكى ، لقد آلمتنى بهذا الخبر ياأبا الحسن ، ومن الذى جرحه وأنا أعلم أنه قليل الاختلاط بالناس مشغول طول يومه بالكتاب والدرس .

— أجل إنه لكما تعرف ، ولكنه القضاء والقدر ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : « المؤمن مصاب » ؛ كنت فى المسجد كالعادة أصيل اليوم التالى لسفر سيدنا الفقيه إلى الاسكندرية فإذا بعبد الرحمن يأتى ويطلب إلى أن أصحبه إلى القاهرة لأدله على قصر الأمير شمس الخلافه فقد أرسل إليه بعد أن علم بجمال خطه لينسخ له بعض الكتب ؛ وعبد الرحمن قد لزم الفسطاط منذ وفد اليها من بلدته قوص فهو يقسم وقته بين المسجد والبيت ، ولم يكن قد ذهب إلى القاهرة من قبل فقبلت دعوته وذهبنا سويا ، وقابل الأمير ، وصحب الكتب وبينا نحن فى طريقنا ولم نكد نبعد عن القصر إلا مسافة قصيرة إذ سمعنا ضجة عالية وأصوات الخيل والأبواق والجند تملأ الأسماع والجو حولنا ، وفى لحظات ألفينا الطريق الذى نسير فيه قد سدت مسالكه من الناحيتين بالجند مشاة وعلى خيولهم ، ولم يكن لنا سبيل إلى الفرار فأسندنا ظهرينا إلى الحائط خلفنا وبقينا فى ذعر نشاهد القتال بين جند شاور وأنصار ضرغام . ولبثنا على هذه الحال مدة والرعب يملأ أفئدتنا ، وكادت الخيل

فى فورتها وقفزاتها أن تصيبنا أكثر من مرة حتى انتهت المعركة بانتصار ضرغام ، وفرار جند شاور ؛ فمر ضرغام على جثث القتلى لا يعبأ بشىء وقد رفع رأسه وشمخ بأنفه ، واتجه إلى القصر ودخله ، وهنا لم أشأ أن ألبث كثيراً فأمسكت بيد عبد الرحمن وجرينا نريد النجاة بأنفسنا ونحن نحاذر بخطواتنا ننقلها بين جثث القتلى ، ولكننا لم نكد نتوسط الطريق حتى رأينا فارساً يعدو بأقصى ما يستطيع من القوة والسرعة ، وخلفه ثلاثة آخرون فارتبكنا وحرنا فى أمرنا : أنسرع فنجتاز المسافة الباقية من الطريق أم نعود إلى مكاننا حتى يمر هؤلاء الفرسان ؟

وبينما نحن فى حيرتنا التى لم تطل إذ بالفرسان على قيد خطوة أو اثنتين منا فقفزت أنا إلى الامام ، وتخطانى الفارس الأول ، ولكن المسكين عبد الرحمن عثر فى قفزته بجثة حصان فسقط وداسه الفرسان الثلاثة وهم فى سرعتهم لايلوون على ولا يهتمون بانسان ، وقد أصابت حوافر الخيل رأس الشاب المسكين وكتفه بجراح خطرة ، وغاب عن صوابه ؛ فحملته وسرت قليلا إلى مكان آمن حتى مر بنا رجل ومعه حمار فأركبت عبد الرحمن فوق الحمار وأمسكت به أنا والرجل إلى أن وصلت دارى وهو عندى أعنى به وبجروحه إلى أن تحسن قليلا والحمد لله .

— له الله ذلك الشاب ، إن من واجبنا أن نعوده ، وسأمر عليك غداً إن شاء الله لزيارته ، ولكن من يكون ذلك الفارس ؟

— لقد لمحته وعرفته رغم سرعته الشديدة ، ورغم وجود الخوذة التى تغطى معظم وجهه ، إنه شاور بأنفه الطويل وعينيه السوداوين .

لم يندهش الفقيه عند سماعه هذا الخبر ، ولكنه أطرق صامتا لحظة ثم قال :

— لقد أفسد هؤلاء الرجال الدولة ياأبا الحسن فهم يتنازعون السلطة والجاه ، ولا يعنون البتة بمستقبل مصر ومستقبل الإسلام ، أنا لايكاد يقتلنى إلا أن هذا الخصام يحدث والفرنج على الحدود يزدادون كل يوم قوة وملكا ، وأنا لا أحسبهم يطمئنون أو يقر لهم قرار حتى يمتلكوا هذه الديار فكان أولى برجال الدولة أن يتكاتفوا ويتعاونوا لصد هذا العدو إذا تحرك .

فضحك أبو الحسن وقال :

— يتكاتفون ؟! إنهم كالكلاب ياسيدى والوزارة كالجيفة ، كلهم ينبح ويقاتل فى سبيل هذه الجيفة ، والخليفة من ورائهم مغلول اليدين كالكرة يتقاذفونها بينهم .

فتنهد الفقيه فقال :

— إن هذا الطفل ياأبا الحسن لا يدرى ، ورجال القصر ونساؤه يدسون الدسائس لكل من يعارضهم ، ورجال الجيش كما ترى تخطف الوزارة أبصارهم فإذا وصل أحدهم إلى دستها تحكمت أسرته فى رقاب الشعب وأمواله ، أتعلم ياأبا الحسن من الذى هزم شاور ؟ ليس هو ضرغام ولا جنده ، إنهم أبناؤه — ابناؤه الذين بسطوا

سلطانهم على الناس فى كل مكان ، وتعاظموا وتجبروا وتسيطروا حتى مجهم الناس وكرهوهم وكرهوا أباهم ، وأنت تعلم أن ضرغاماً انتهز هذه الفرصة فانقض على شاور وخاصة بعد أن دخل طى السجن فقتل رُزّيك بن الصالح طلائع وهو رب نعمة شارو، وهو الذى ولاه الصعيد أثناء وزارته فاستمال ضرغام إليه الكثيرين من أمراء الجيش وانقض على غريمه فسلبه الجيفة كما تقول .

ثم سكت الفقيه لحظة واستأنف حديثه فقال :

— ويخيل إلى ياأبا الحسن أن هذه الدولة قد قاربت الفناء لأن هذا النزاع الدائم بين رجالها نذير بزوالها ، ولكننى رغم مالها من أخطاء لا أحب لها هذا الموت الذى بدأ يدب فى جسمها لأنها مهما أخطأت دولة إسلامية وأخشى أن يكون فناؤها ممهداً لقدوم الفرنج .

— فقال أبو الحسن : ولكن رجال هذه الدولة هم الذين يمهدون لموتها ويقربون نهايتها، لقد رحب العاضد — لكرهه الشديد لشاور — بضرغام فقلده الوزارة ولقبه بالملك المنصور ، ولكن هذا جعل همه الأكبر منذ استقر وزيراً تتبع أنصار شاور ورجاله ، وقد سمع أن نفراً من الأمراء عزموا على مكاتبة شاور بالشام وتحريضه على العودة فاحتال عليهم حتى أحضرهم إلى دار الوزارة ليلا وقتلهم . . ، أجل قتل سبعين أميراً من كبار أمراء الجيش والدولة ، إن هؤلاء الوزراء كالقطط التى تأكل صغارها ، إنهم يقتل بعضهم بعضا وستبقى الدولة بعد ذلك دون رجال يدافعون عنها إذا دهمتها الخطوب ، نسأل

الله أن يلطف بهذا البلد وأهله الذين عهدوا بأمورهم إلى هؤلاء الحكام فانصرفوا عن الاهتمام بشئونهم إلى المنازعات الشخصيه ؛ ثم إنهم . . . ولكن استمع يامولاى . . . أليس هذا صوت المؤذن ؟؟

فقال الفقيه — نعم إنه هو . . لقد سرقنا الوقت ، وقد لانستطيع إدراك الجماعة فى المسجد ، فهل ترى مانعا يا أبا الحسن من الصلاة هنا فى هذا المصلى الصغير اللطيف ؟؟

— أبداً . . إنه مكان جميل ، ولكن لننتظر قليلا فسيعود أصحاب القوارب بعد لحظات ليؤدوا فريضة العشاء هاهنا كعادتهم ، وسيفرحون الفرح كله إذ اعلموا بوجود الفقيه زين الدين بينهم ، وأنه جاء ليصلى فى مصلاهم المتواضعة .

وصمت الرفيقان قليلا ، وأخذا ينعمان بالمناظر الجميلة التى تحيط بهما ، فقد كانت أمامهما حقول الروضة وقصورها ذات الحدائق الفيحاء ، والنخيل يقوم بين القصور كالحرس اليقظ ، وكان القمر فى تلك الليلة بدراً يرسل ضوءه الفضى فيملأ المكان نوراً وجمالا ، وتنعكس أشعته على صفحة النيل فتبدو مياهه لامعة براقة كالزئبق الرجراج ، وأطلق كل منهما لفكره العنان يكمل بينه وبين نفسه ما انقطع من حديث ؛ ولكل آراء وأمنيات يتمنى لو أتيحت لها الفرص فتحققت ، فقد كانت الحوادث تتتابع فى مصر والشام فى ذلك الحين تتابعاً غريباً كله مفاجآت ومتناقضات . كان الفرنج يملكون بلاد الساحل فى الشام ، وكانت أوروبا تستيقظ من سباتها وتعد العدة

لإرسال النجدات لمسيحى الشرق ، وكان نور الدين ينفخ فى بوق الجهاد كل يوم وجيوشه تنقض على هؤلاء الفرنج فتذيقهم المر والعذاب وكانت مصر أخيراً مسرحاً لسلسلة من المشاحنات والاختلافات الداخلية بين الطامعين فى الوزارة ، والخلافة الفاطمية وراء هؤلاء الوزراء قد سلبها الفرنج أملاكها فى الشام فانكمشت كالقوقعة داخل صدفتها — مصر — تحتضر وتتلمس فى ضعفها أية قوة خارجية تستعين بها فى محنتها .

أما الفقيه زين الدين فكان من أهل دمشق نشأ وتثقف ثقافته الأولى بها ثم رحل إلى بغداد فوجد الخلافة العباسية ضعيفة تعانى من سيطرة رجال الجيش الأتراك فقال لنفسه : « تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » وترك بغداد إلى مصر فأعجب بها أيما إعجاب وملكت عليه لبه وعقله ونفسه فأحبها من كل قلبه حتى عرف بين الناس بالفقيه زين الدين المصرى ، ونسى ونسى الناس معه أنه دمشقى .

ولكن الفقيه درس كتب الفقه والتاريخ فأفعمت روحه بالإيمان الإيمان بمجد الإسلام وعزه ، واتخذ الوعظ صناعة له ، وكانت دروسه كلها تموج بهذه الأفكار : مجد الإسلام ومجد رجاله .

وإذ كان للدولة المصرية مذهب خاص فقد تحاشى أن يصطدم بهذا المذهب أو رجاله فكان لا يذكر أبا بكر أو عمر ، ولكنه كان يتحدث عن الرسول عليه السلام وعن على بن أبى طالب فيسهب فى الحديث ؛ وفى حياتهما مادة غزيرة لمن يريد الحديث عن البطولة وإحياء

النفوس الهامدة ؛ ولإرضاء رجال الدولة — حتى يتقى شرهم — كان يشيد بذكر الأوائل من رجال الدولة الفاطمية ولا بأس عليه فى هذا فقد كانوا رجال دولة أجلاء شيدوا دولة واسعة مترامية الأطراف ، وأقاموها على أسس حربية وإدارية متينة ، وعنوا بصالح أهل مصر ورفاهيتهم، فشاركوهم فى أعيادهم وأضفوا عليها من بذخهم وثرائهم الشىء الكثير ، ومدوا للفقراء الموائد فى كل مناسبة ، وأضافوا العلماء الوافدين ، وشجعوا المقيمين فنعم الشعب فى عهدهم وترك لهم شئون مذهبهم يجترونها دون أن تنفذ إلى أعماق قلبه ، ورضى أن يعيش فى ظل هذه الدولة القويه التى تنشر السلطان باسمه شمالا وجنوبا .

ولكن الفقيه زين الدين كان يقلب وجهه هذه الأيام فى ربوع مصر لعله يصيب فيها القوة التى تحمى الإسلام من هذا الخطر الفرنجى الداهم الذى رآه رأى العين وهو فى موطنه — الشام — فارتد إليه البصر خاسئاً وهو حسير ؛ لقد وجد الدولة مريضة فى دور الاحتضار فكان وهو فى جلسته هذه يقلب هذه الأمور كلها على أوجهها المختلفة : إنه يدين بالمذهب السنى وهذه الدولة التى تحكم مصر شيعية، ورجالها ووزراؤها يغالون فى هذا المذهب فكتم ما يدين به ؛ وصدر الدولة فى مصر والشام معرّض لنبال الفرنج ورماحهم ، وليس من رجال الإسلام من يغار عليه غير هذا الرجل المجاهد نور الدين فى الشام ، ولكن الشام لا تكاد تفى بما يحتاجه جيش الجهاد من مؤونة وراتب وذخيرة ، ومصر ضيعة الإسلام الغنية ، وحصنه الحصين ، غير أن رجالها شغلتهم أطماعهم

الشخصية عن الاهتمام بالدفاع عنها وعن الإسلام ، وهنا وصل — فى عقله — إلى نتيجة منطقية : الرجل فى الشام ، العتاد فى مصر فهل يجتمعان ؟!؟

بمثل هذا أيضاً كان يفكر الشيخ أبو الحسن فهو مؤمن بهذه الأفكار كلها ، ولكنه إيمان القلب فقط لا إيمان القلب والعقل معاً كإيمان صديقه الفقيه ، ولكنه إلى هذا كانت تدفعه عوامل أخرى تبعث فى نفسه الرغبة القوية أن يعجل الله بزوال هذه الدولة فإنه كان ذا ثأر ، ولهذا سر فى نفسه لم يكشف لأحد عنه بعد .

ولم يوقظ الرجلين من أحلامهما إلا أصوات المجاديف تتابع ضربها الهين للماء تدفع القوارب متجهة نحو الجسر المقام بين الفسطاط والروضة ، فقال الفقيه لرفيقه :

— إنهم فى نهاية رحلتهم ياأبا الحسن ، فقد اعتادوا أن يصعدوا بقواربهم ومن فيها متجهين إلى الجنوب ، فإذا انتهوا من نزهتهم عادّوا فأنزلوا الركاب عند مرسى الجسر ، ثم أتوا إلى هنا ليؤدوا فريضة العشاء ، أذن يا أبا الحسن أذان العشاء .

— أعفنى ياصديق من هذه المهمة فإن هذا الآذان المشوه كريه إلى نفسى ، ولننتظر حتى يعود أحد منهم فيقوم هو بالآذان .

— إنه كريه إلىّ أيضاً ياأبا الحسن ، ولكن للضرورة أحكام ، فلنبادر نحن لأن القوم إذا أتوا ورأونى أصروا على أن أدعو أنا للصلاة .

ـ أجل للضرورة أحكام :

الله أكبر ـ الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله ـ أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمداً رسول الله ـ أشهد أن محمداً رسول الله

ثم توقف قليلا متردداً وقال يخاطب نفسه :

ـ الأمر لله ، اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ، ثم استأنف الآذان بصوت خفيض :

حى على خير العمـــل حى على خير العمـــل

الله أكبر الله أكبر

لا إله إلا الله

شـــاور فى طريقه إلى الشام

استمر شاور وجنده الثلاثة يعدون مسرعين كمن يفر من عدو داهم أو وحش ضار حتى وصلوا إلى صحراء عين شمس فترفقوا فى سيرهم قليلا ، وتنفس شاور الصعداء ، وقال لصحبه :

— أظننا بعدنا قليلا عن الخطر فلنتمهل فى سيرنا لنرح هذه الجياد فقد أنهكت ؛ والآن لنتدبر الأمر فيما بيننا ، لقد كان عقلى أسرع من هذا الجواد فاستعدت كل ماحدث طول الطريق واستعرضت كل الحلول الممكنة للخروج من هذا المأزق ، وقد رأيت أنه من الأفضل أن أفر إلى الشام ؛ أما أنتم فإنى فى حاجة إلى بقائكم هاهنا فى مصر ، وسأكتب إليكم ، ولتكونوا عيونا يواقظ ترى كل شىء وإن حقر ، وإياكم أن تبدر منكم بادرة يشتم القوم منها إخلاصكم لى وصلتكم بى ؛ هذه هى وصيتى فى إيجاز فإنى لازلت قريبا من الخطر ، وقدم يده إليهم واحداً واحداً يحييهم وهو يقول :

— أستودعكم الله .

فتندت عيونهم بالدموع وقال واحد منهم .

— رافقتكم السلامة فى حلكم وترحالكم يامولانا الوزير ، سنكون عند حسن ظنكم بنا .

وألوى شاور عنان جواده ، وربت على عنقه يلاطفه ويستحثه وقال يخاطبه :

— الآن لم يبق لى من رفيق غيرك يا (منصور) فأعنى بكل ما تملك من خفة وسرعة وجلد .

وكان (منصور) جوادا عربيا أصيلا اشتراه شـــاور صغيرا مذ كان هو واليا على قوص ، ورباه واعتنى به فحفظ له الجواد حق الرعايه والجميل ونجاه فى أكثر من مأزق ؛ وقد أحس منذ اللحظة الأولى أن صاحبه فى ضيق فضاعف من سرعته ، وكان فى عدوه يطوى الأرض تحته طياً وكأنه طائر مراع تتعقبه النسور الكواسر .

وكان الجو قائظا والحر لافحاً ، والعرق يتساقط من الجواد وراكبه ولكن شاور لم ين لحظة عن التفكير فيما قد يعترضه من عقبات : فكر أولا فى لباسه الذى يرتديه فقد ينم عنه إذا رآه من يعرفه ، وفكر فى الطريق وصعابه ، وفكر أخيراً فى الشام وإلى من يلجأ فيها ؛ وقد هدته سرعة الخاطر إلى حلول ارتضاها وعمل على تنفيذها ، وترك النجاح فى ذلك إلى توفيق الله سبحانه وتعالى وإلى الظروف .

رأى أولا أن يتخلص من ملابسه ، ورأى ثانيا أن يتجه فى سيره إلى بلبيس ثم منها إلى الفرما ، وهذا طريق يعرفه جيدا فقد اجتازه مرارا ، ثم هو يعرف إنه إذا اتجه من الفرما شرقا وصل إلى العريش ومنها يمكنه أن يتجه إلى الشام .

واستمر فى عدوه بجواده وهو يتحاشى أن يقرب من القرى المأهولة بالسكان ؛ والصحراء خالية حواليه يلقى بطرفه أمامه فلا يحس

كانتا حياً فى أية ناحية من نواحيها ؛ ومالت الشمس تنحدر نحو مقرها الليلى رويداً رويدا ، وحل الأصيل فلطف الجو قليلا ، وهبت نسمات منعشة بعثت النشاط فى نفس شاور ، اطمأن لها الجواد فضاعف سرعته .

ثم قاربت الشمس المغيب وضعفت حرارتها ولم تعد غير قرص أصفر باهت ، ولمح شاور عن بعد فتاة أعرابية تهش على أغنامها متجهة شمالا فحد من سرعته إلى أن حاذاها فحياها ثم سألها :

— إلى أين رواحك يا أخت العرب ؟

— إلى خيامنا المضروبة قبلى بلبيس .

— وهل تبعد بلبيس عنا كثيرا ؟

— لا ، لقد غدت قريبة — أنظر إلى هذه النخلات البعيدة ، إن خيامنا هناك ، وإذا اتجهت ...

ولكن شاور لم يلق بالا إلى بقية حديثها فقد رأى اعرابيا يعدو مسرعا متجها نحوه فأوجس خيفة ، وانتظر حتى قرب منه وحياه فرد التحية ؛ ونظر فوجده من أعراب الصحراء الشرقية الذين يربون الأغنام على حواشى الحقول وفى الصحراء ، ويتجرون بها مع سكان الوادى ، وكان الرجل يرتدى عباءة صوفية سوداء ، وعلى رأسه عقال فخطرت لشاور فكرة طارئة سريعة وقال للأعرابى :

— أظنك فى طريق أوبتك للفسطاط أو القاهرة ياشيخ العرب ؟

— لا — إننى أقصد قرية عين شمس فى أطرافها ترعى أغنامى ويسكن أولادى ..

— ولكنك تأخرت ياشيخ العرب فقد قاربت الشمس أن تغيب:

— لم أتأخر كثيرا فسأصلها وقت العشاء أو بعدها بقليل فجوادى هذا يسابق الريح لو أراد :

فألقى شاور على الجواد نظرة سريعة فعرف — وهو الخبير بجياد الخيل — صدق مقالة الرجل ؛ ولكن ماذا يهمه هو وصل الرجل أم لم يصل ، إن هذه تعلة كان يريد بها أن يستأنس الرجل ويجره إلى الحديث ، فعرج على مايريد وقال :

— إننى من جند الخليفة ياشيخ العرب ، وقد خرجت فى رسالة هامة متجها إلى الشام ، ونسيت لسرعتى أن أصطحب عباءتى ، فهل تبيعنى عباءتك هذه فأنت تعلم أن برد الصحراء فى الليل شديد ، وقد أنام فى الطريق فاتخذها غطاء ، ولك منى إذا عدت إن شاء الله كل إكرام ورعاية .

فلم يتردد الأعرابى بل خلع عباءته وأعطاها لمحدثه فقدم إليه شاور يده بالثمن فتناوله الأعرابى وهمز جواده يستحثه على استئناف السير .

بادر شاور بعد ذلك بلبس العباءة فأخفى بها ملابس الجنود ، وخلع منديله فاتخذه عقالا فأصبح من يراه وقتذاك لايشك فى أنه أحد الأعراب المرتحلين عبر الصحراء فى كل لحظة ، وساعده على تقوية هذا المظهر سحنته العربية إذ كان أسمر الوجه طويله ذا أنف

عربى مستطيل وعينين سوداوين ، ولا غرو فهو من سلالة عربية خالصة .

وأحس شاور بالجوع يأكل أحشاءه فقد كان صائما، ورأى أن يعرج على بلبيس ليشترى منها طعاماً له ولجواده ثم يستأنف رحلته ؛ وقد ذهب فاشترى ماأراد واتجه إلى الصحراء ثانية حيث استراح قليلا وأكل أكلة خفيفة وأطعم جواده ، ثم امتطاه فوجده قد استعاد نشاطه ، وزاده الأكل قوة فاستحثه على العدو السريع ، وكان الجواد مخلصاً فى إجابة الدعوة فعدا أسرع مايستطيع العدو حتى وصل نصف المرحلة إلى الفرما وهناك وجد شاور أن الليل قد أسدل أستاره ، وأنه يستطيع أن يبيت ليلته حيث وصل على أن يستأنف الرحلة فى الغد المبكر ، ولكنه وجد — بعد تفكير قليل — أن السفر فى الصحراء نهاراً شاق ومنهك له ولجواده . حقيقة إنه الآن مجهد وجواده متعب ، وكلاهما فى حاجة إلى الراحة ليصبحا أوفر نشاطا وأقدر على تحمل مشاق السفر ، ولكنه بعد تفكير قليل وجد أن الأفضل أن يتابع رحلته فى الليل والهواء منعش جميل حتى يصل إلى الفرما وهو مكان هادىء آمن فيستريح هناك وقتا من نهاره أو نهاره كله ثم يستأنف السفر إلى الشام .

استأنف شاور بعد هذا القرار سيره نحو الشمال ولكنه رفق بالجواد فكان كلما وجده قد أحس التعب يتركه يسير سيرا رفيقا فيه بعض الراحة والاستجمام من تعب اليوم السابق .

وفى ظهر اليوم التالى وصل إلى الفرما فاستراح قليلا وأراح جواده، ثم استأنف رحلته فى الأصيل متجها إلى الشرق يقصد العريش فقضى الليل كله مرتحلا ، ولم تكد تباشير الفجر تظهر وعلائم نور الصباح تلوح فى الأفق حتى انتبه شاور — وكانت قد أخذته سنة من النوم وهو على جواده — على نسمات قوية باردة تلفح وجهه وتعبث بمنديله وأطراف عباءته ، ففتح عينيه ونظر فوجد البحر أمامه وسمع الأمواج تهدر عن بعد ، ووجد عن يمينه وشماله الأرض يغطيها بعض الزرع ، (والشواديف) وأكواخ الزراع منتثرة هنا وهناك، وخلف هذا كله أشجار النخيل تنمو فى غير ما نظام فتضفى على هذه البقاع جمالا سحرياً رائعا فراح شاور يملأ صدره بهواء الصباح النقى اللطيف ، وراح يملأ نفسه من هذا الجمال الالهى الهادىء الخالى من كل مايشوبه من تغيير أو تزييف، ولكنه لم يلبث أن صحا من هذه الغفوة الروحية على أصوات الكلاب النابحة تنحدر إليه من كل كوخ ومن بين النخيل فاستمر فى سيره البطىء لأنه رأى أنه لو تريث أو وقف أو أسرع قعدا بجواده لها جمته الكلاب من كل حدب وصوب ، وقد تصيب الجواد وهو عدته القوية فى هذه السفرة .

غير أنه مالبث أن وجد هذه الكلاب قد تكالبت وتكاثرت وكلها تجرى نحوه وهى تعوى عواء المتحفز للهجوم ، وكأن الجواد قد أحس بخطرها الداهم فتقاعس للوراء قليلا ثم شب بمقدمه إلى أعلى وصهل صهيلا قويا ، فأخذ شاور يلاطفه ويهدىء من خوفه وإذا به يسمع

صوتا فيه قوة يصيح بهذه الكلاب مهدداً ، ونظر فوجد رجلا شيخا ذا لحية كثة بيضاء ووجه أبيض تشوبه حمرة يتقدم نحوه وبيده عكاز يهش به على هذه الكلاب ويزجرها فخفتت أصـــواتها وكأنها رجل مغضب يحاول أن يكبت غضبه ويكتم ثورة نفسه ؛ وقال شاور .

— السلام عليكم ياأخا العرب .

— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .. تفضل ..

— هل هذه العريش ياوالدى ؟

— نعم — إنها هى — تفضل ...

— إن كلابكم هذه لا تشجع على إكرام الضيف .

— لا عليك منها ، فهذا شأنها مع كل طارق غريب .

— ولكنها كثيرة ، وكانت تختبىء وكأنها جند فى كمين يستعد لملاقاة العدو ، فقد هاجمتنى من كل مكان .

— إن هذا موسم البلح فهى تحرس النخل وأصحابه . .

تفضل .. تفضل . .

— والله إنى لفى سفر سريع ، ولكن الجواد متعب وأحب أنه أستريح قليلا فهل يمكن أن تضيفنى بعض الوقت ؟

— على الرحب والسعة يابنى .. تفضل.

فنزل شادر وقادالجواد خلفه ، وتقدم إلى الرجل فصافحه ، وسارا جنباً إلى جنب يقصدان الكوخ فربط شاور الجواد إلى نخلة هناك ، وأمر الرجل بعض أولاده فأحضروا حصيراً فرشه بعيداً عن الكوخ ودعا صاحبه إلى الجلوس ، ثم سأله :

— من وين وإلى وين ياشيخ العرب ..؟

— أنا آت من القاهرة فى طريق إلى الشام .

— القاهرة! يقولون إنها بعيدة ياولدى .

— أجل — إنها لبعيدة — ألم ترها من قبل ؟

— كلا .. إننى لم أغادر أرضى هذه منذ ولدت .

— ياسلام !! لم تسافر أبداً ..

— أبداً

وهنا خرج من الكوخ رجل فيه شبه كبير من هذا الشيخ وهو يحمل على كتفه بعض شباك الصيد ، وخلفه طفلان صغيران قد تعلقا بأذياله واختفيا وراءه برقبان الرجل الغريب فى دهشة واستطلاع ، وقال الرجل :

— أنا ذاهب ياأبى وسأنتظرك .

— سألحق بك بعد قليل ياحمدان ، ولكن أين صفية ؟ هل خرجت ؟

— انها تنتظر حتى ترضع السخلة الصغيرة ثم تخرج . ولم يكد يتم حديثه حتى سمع مأمأة الأغنام والشياه تخرج متتابعة من الكوخ ، وخلفها صبية مشرقة الوجه تهش عليها بعصا فى يدها ، وتحمل الى صدرها باليد الأخرى سخلة صغيرة تحنو عليها وكأنها طفلها الرضيع ثم قالت الصبية :

— أنا ذاهبة ياأبى .

— رافقتك السلامة يابنيتى ، ولكن احترسى ولا تتأخرى عن الغروب .

ثم التفت الرجل إلى شاور وقال :

رمضان كريم ياصاحبى ، إن هذا موعد الفطور ولكن اعذرنا وحبذا لو بقيت معنا حتى الغروب فنأكل سويا .

— الله أكرم ياوالدى ، أشكرك على هذا الكرم .

— والآن . هاهى الدار تحت أمرك إن شئت أن تستريح فإنى لاحق بابنى فهو ينتظرنى لأساعده فى إنزال قارب الصيد إلى البحر ، ثم أجلس هناك بعض الوقت عند الشاطىء قرب نخلات لى أحرسها حتى يعود برزقه .

— لا . إنى أحب هواء البحر ، وأفضل أن أصحبك إلى هناك حيث أستريح وأتحدث إليك قليلا .

— تفضل إذن .

وسار الرجل بقامة منتصبة يدب على ثلاث : قدميه وعصاً فى يده يتوكأ عليها ، وإلى جانبه شاور يتبعه جواده حتى وصلا الشاطىء فنظر شاور فوجد صفوفاً طويلة من النخيل على طول للشاطىء وكأنها حرس يقظ يحمى المدينة من طغيان البحر ، وألفى بعض الصيادين يتعاونون على إنزال قوارب الصيد إلى الماء ؛ وكان الجو صحواً والهواء سجسجاً ، والشمس لا تزال تحبو خطواتها الأولى نحو النهار وكأنها فى الأفق البعيد خارجة من لجج الرمال بعد أن نفضت عنها أدران

اليوم السابق، فوقف معجباً بهذا المنظر لحظة ثم سحب جواده فربطه إلى نخلة هناك ووضع عنه عدته وقدم له بعض الماء والأكل ، وتلفت حوله فوجد الشيخ واقفاً على الشاطىء يرمق ابنه وحفيديه فى رحلتهم اليومية سعياً وراء رزقهم، فجلس تحت النخيل ينتظره حتى عاد ، وأخذا فى الحديث فراح الرجل يفضى إلى جليسه بدخيلة نفسه ، ويحدثه عن أولاده وبناته ، فابنه هذا يحترف مهنة الصيد ، وولدان آخران يزرعان الأرض حول كوخه ، وله بنت تزوجت . وصفية التى رآها تخرج لترعى أغنامها ، وطفلة أخرى صغيرة تساعد أمها فى أعمال المنزل .

ثم وجد العريشى أن صاحبه لا يصغى إلى حديثه ولا يشاركه فيه، وبدرت منه التفاتة نحوه فوجده يهوم ورأسه تعلو وتنخفض فهزه من كتفه ليوقظه وقال :

ـ اصح ياشيخ العرب ، إنك تنام وأظنك متعب من رحلتك قم هنا على هذا المكان الممهد تحت هذه النخلات .

ـ أجل ، والله إنى لمتعب ، اسمح لى ياصاحبى ، وسأترك هذا الجواد فى رعايتك .

وراح شاور فى سبات عميق ، ونام نوما لذيذا هانئا هادئا حتى انقضى معظم النهار ، والشيخ قريب منه يجدل الخوص ليصنع منه بعض السلال فسمع النائم يصيح ويقول :

ـ اتركنى ـ اتركنى ـ وأنت أغنى أغانك الله . فجرى نحوه ولكنه وجده لا يزال نائما فعاد إلى عمله ، وبعد قليل سمعه يناديه :

— ياشيخ .. ياشيخ .. ما اسمك ؟

— لقد استيقظت أخيراً .. اسمى حسان .. وأنت ؟

— أنا .. اسمى .. اسمى منصور ياشيخ حسان .

— لعلك نعمت بالنوم فى هذا المكان الهادىء ياشيخ منصور ؟ ولكنك كنت تصيح وتستغيث منذ لحظات ؟!

— نعم ياصاحبى ، لقد رأيت حلما مزعجا ؛ رأيت كأننى أسير فى مزرعة كبيرة مترامية الأطراف فيها من كل فاكهة زوجان ، وفيها الزهر والورد والريحان ، وفيها الماء ينساب فى الجداول يروى الأراضين وفيها الطيور تغرد على الأشجار ؛ وكأن هذه المزرعة وما تحوى ملك يمينى . ورأيت زائراً يزورنى وهو رجل له وجه مثل وجه الأسد ، ويقيم عندى أياما ؛ وتكررت زيارته لى ثلاث مرات ، ولكنه فى المرة الثالثة انقلب أسداً حقا ، وهاجمنى يريد قتلى فاستغثت بمن حولى آه . . إنه حلم مريع مفزع .

— لا عليك ياشيخ منصور .. فهذا أثر الجوع والتعب ، وهذا صوت جوادك أيضا يطلب الطعام ، وقد أطعمته مرة وأنت نائم ولكنه جاع ثانية .

وأفطر شاور هذا اليوم على مائدة الشيخ حسان وكان قوامها السمك المشوى — من صيد ولده حمدان — وخبز الشعير ، ثم أعطى شاور لأولاد الشيخ وأحفاده بعض المال ، وكان كريماً حتى بهرهم بكرمه ؛ وودعهم ليستأنف رحلته .

وانطلق به الجواد قويا نشيطاً سريعاً وقد أنسته الراحة تعب الأمس ، وكان شاور يفكر طول الطريق فى هذه الحياة الراضية المرضية التى يحياها هذا الشيخ حسان ، وتذكر قوله له إنه لم يغادر هذه الأرض منذ ولد ، ورده عليه عندما سأله :

ـ أتطيق المعيشة طول حياتك فى مثل هذا المكان الموحش ؟

إذ قال :

ـ وماذا أبغى غير ما أنافيه ؟ هذه الأرض يزرعها أولادى وأعاونهم فى حرثها ، وهذا ابنى الكبير يرتزق مما يبيع من صيده ، وهذه ابنتى صفية ترعى الأغنام طول يومها ؛ ولقد بلغت الثمانين من عمرى وأنا فى صحة جيدة والحمد لله ، هذه نعمة من ربى له الحمد والشكر

وقارن شاور حياته بحياة هذا الرجل ، واستعرض فى مخيلته كفاحه الطويل المضنى فى سبيل الملك ومجده الزائل ، وها هو الآن مشرد فى الصحراء لا يدرى أين تقوده الأقدار : إلى حتفه أم إلى مجده ثانية ؟ وأسرته وأولاده فى مصر .. ترى كيف حالهم ؟ وماذا فعل بهم ضرغام ؟

أين هذا كله من هذه الحياة الهادئة الآمنة التى يحياها الشيخ حسان وحوله أولاده وأحفاده يكدحون كدحا يسيراً فى سبيل الرزق ، ويقنعون بما يشبع جوعهم ويكسو عريهم ، وحسبهم بعد هذا هدوء البال واطمئنان النفس ، والصحة ، أجل والصحة .. إن هذا الشيخ ذا الثمانين سنة كان يبدو فى مشيته وكأنه أصغر منه سنا .

ولكن نفس شاور الطموح عادت تناقش هذه الأفكار ، وتذكره

بأبهة الوزارة ومجد السلطان وعز الملك ، ونشطت غريزة الانتقام تثيره ضد ضرغام ، هذا الخارج على طاعته، المغتصب لجاهه ووزارته.. ولا بد أنه قتل أهله وولده أو سجنهم فكيف يسكت عن الثأر ..؟ إنه لا يكون شاور إذا لم ينتقم من غريمه .

والآن ليذهب إلى بصرى وهى قرية على بعد أميال من دمشق ، وفيها تاجر يعرفه أغاثه مرة إذ لجأ إليه وهو والٍ على قوص بعد أن هاجمه اللصوص فى الطريق بين عيذاب وقوص فسلبوه ماله وتجارته ، فأصدر أوامره الشديدة يومئذ إلى رجاله أن يقتفوا آثار اللصوص ، وقد قبض عليهم وأعيدت التجارة وأعيد المال لهذا التاجر ، فشكر لشاور هذا الصنيع ، ودعاه لزيارته فى بصرى ليرد له الجميل ، وما كان يدرى وقتذاك أن الأقدار ستدفعه إلى تحقيق هذا الطلب — بالذى لم يحمله محمل الجد — وزيارة هذا الرجل فى مثل هذه المحنة .

وفى بصرى يستطيع أن يمهد السبيل للاتصال بأحد الطرفين : نور الدين فى دمشق أو الفرنج فى مدن الساحل .

واتخذ شاور طريقه إلى الشام .وكان كلما سار مرحلة سأل من يقابل عن الطريق حتى وصل إلى بصرى بعد تركه العريش بيومين.

فى ضيافة نور الدين

جلس السلطان الملك العادل نور الدين محمود فى قلعة دمشق بعد عودته من الشمال وانتصاره على الفرنج وأخذه حمص ، وكان معه فى مجلسه وزيره الموفق بن القيسرانى ، وقاضيه كمال الدين الشهرزورى ومن كبار قواده ورجال دولته نجم الدين أيوب وولده صلاح الدين وشهاب الدين الحارمى ، وعين الدولة الياروقى ، وجماعة من القضاة والفقهاء والشعراء ، وكانوا جميعاً يقدمون التهانى لنور الدين لانتصاره على الفرنج فى حمص ، فتكلم القواد والكبراء والقضاة ، ثم تقدم واحد من الشعراء وأخذ ينشد قصيدته مهنئاً .

وبينا هو فى إنشاده يقول البيت ويعيده ،والجمع يبدون استحسانهم وإعجابهم بما يقول إذ بالحاجب يدخل ويقول :

— مولاى ، إن بالباب تاجرا من قرية بصرى ، اسمه الحاج عبد الصمد يلح فى طلب المقابلة لأمر سرى هام ، وقد حاولت رده الآن ، وأبديت له الأعذار الكثيرة بأن مولاى مشغول مع قواده ورجال دولته فأبى أن يذعن بل زاد إلحاحا وإلحافا فى طلبه .

فالتفت نور الدين إلى جلسائه وقال :

— ومن يكون الحاج عبد الصمد ؟ إنى لا أعرفه . .

فقال القاضى كمال الدين الشهرزورى:

— إنه تاجر طيب القلب من بصرى ، وهو رجل متدين كثير البر بالفقراء والمعوزين .

فقال نور الدين :

— ترى ماذا يكون هذا الأمر الخفى الهام الذى دفع هذا الرجل الطيب إلى الالحاح فى طلب مقابلتى .. إنه كما تقول رجل يشتغل بالتجارة وأظنه لا يعنى بشئون الدولة أو الحرب .

— لا أحسبه يعنى بها يامولاى ، بل إنه لا يعنى إلا بتجارته وأولاده .

— ومع هذا لا بد أن نراه .. أدخله أيها الحاجب

فقال الحاجب :

— ولكنه يريد مقابلة مولاى على انفراد، فالأمر خطير كما يقول

— غريب أمر هذا الرجل ، لقد اشتقت إلى رؤيته

ثم التفت إلى الجالسين وقال :

— هل تأذنون ياصحبى فتنتظرون لحظات فى الإيوان المجاور ؟

فقالوا جميعاً :

— سمعاً وطاعة ... لعله رسول خير .

وخرجوا واحداً إثر الآخر وهم يتهامسون متسائلين عن هذا الرجل وعما يقصد إليه بهذه الزيارة ، ولكن نور الدين نادى وقال :

— يانجم الدين — ابق أنت لحظة .

ثم انتظر حتى خرج جلساؤه فقال :

— أتظننى أخفى عنك سراً يانجم الدين ، ابق فقد أكون فى حاجة إلى رأيك ..

— أشكر مولاى على هذه الثقة ، وأرجو أن أكون أهلا لها .

وتقدم الحاجب يستأذن للزائر ، ودخل رجل ربعة أقرب إلى القصر ذو وجه أبيض مستدير تزينه لحية بيضاء ، يلبس ملابس التجار وبيده سبحه ، فقال :

— سلام الله على ملكنا العادل نور الدين ، حفظه الله وأيده بروح من عنده .

— السلام عليك ياحاج .. تفضل .. تقدم فاجلس هنا بجانبى ..

— شكراً لمولاى السلطان .

ثم نظر التاجر إلى نجم الدين أولا ولنور الدين ثانياً كمن يريد أن يقول :

— هل أستطيع أن أرى مولاى السلطان على انفراد ؟ ففطن نور الدين لقصده وقال :

— لا تخش شيئاً ياحاج عبد الصمد . إن نجم الدين هذا بطل من أبطال جيشى ، وله رأى حصيف ، وهو منى بمثابة الأخ لا أخفى عنه شيئاً فأطمئن على سرك . وهات ما عندك ، ولعله خير .

— خير إن شاءالله يامولاى .. لقد نزل عندى منذ مدة ضيف عزيز ، وقد بعثنى إلى مولاى فى رسالة .

— إن ضيفك ضيفنا ياحاج .. وإنا لنكرمه لأجل خاطرك .

— أكرمك الله يامولاى وزادك مجداً وأعزك ، وكتب لك النصر على أعدائه .. إن ضيفى أيها السلطان هو وزير مصر شاور .

فأخذ نور الدين وبدت على وجهه علائم الدهشة . واعتدل فى جلسته ثم نظر إلى الرجل وإلى نجم الدين وقال :

— شاور ؟! ترى ما الذى أتى به ؟! إنه إذن فى ضيافتى حقاً .

— مولاى يعلم ما كان بينه وبين ضرغام ، ولقد عرفت أنا شاور وهو وال على قوص إذ أنقذ لى تجارتى من أيدى اللصوص وقد لجأ إلى متنكراً بعد أن فر من مصر .

— إننا نغيث كل لاجىء ياحاج عبد الصمد ، فهل لشاور من حاجة فنقضيها ؟

— لم يخبرنى بشىء . ولو سمح مولاى له بالمثول بين يديه لعرف رأيه ، إنه الآن فى مملكتى فلا بد أن يكون ضيفى .

ثم استدعى الحاجب وقال له :

— ناد ابن الصوفى والقاضى كمال الدين والوزير ابن القيسرانى ، فلما حضروا قال نور الدين :

— إن شاور وزير مصر لجأ إلينا بعد فراره منها ، وهو الآن فى ضيافة الرجل الكريم الحاج عبد الصمد ، فأرجوا أن تذهبوا إليه فى الغد الباكر وتدعوه ليقيم فى جوسق الميدان الأخضر وتأمروا رجال القصر وخدمه بإحسان ضيافته وإكرامه ، وسلوا عليه وعرفوه أعذارنا فى التقصير فى حقه ، وسلوه فيما قدم ، وما حاجته فإن كان

ورد علينا مختاراً للاقامة أفردنا له من جهاتنا ما يكفيه . ويقوم بأربه وأوده ، ونكون عونا له على زمانه ؛ وإن كان ورد لغير ذلك فليفصح عن حاجته .

فقال الجمع :

— سمعاً وطاعة يامولانا .

* * *

وقبل شاور دعوة نور الدين ونزل بجوسق الميدان الأخضر ضيفاً عليه ، ونقل إليه الوفد رسالة السلطان فشكر إحسان نور الدين وكرمه ؛ ولكنه أبى أن يبين عن غرضه ، فلما ألحوا عليه أجاب :

— إذا لم يبيت الرأى جاء فطيراً.

فقال ابن الصوفى :

— إن مولانا السلطان يريد جوابا على رسالته .

فقال شاور .

— إن رأى نور الدين أطال الله بقاءه الاجتماع بى فله علو الرأى

فاستأذنوا وعادوا إلى نور الدين يبلغونه رغبة شاور فقال :

— لا مانع عندى من مقابلته .

ثم نظر إلى نجم الدين وقال :

— فليكن اجتماعنا به بعد أيام فى الميدان الأخضر عند ذهابنا للعب الصولجان .

وبعد أيام كان الميدان الأخضر يبدو فى أروع زينته تخفق فى أنحائه الرايات ، والجند والقواد فى أماكنهم ومعهم أبواقهم وطبولهم وأعدت المقاعد المذهبة لجلوس نور الدين وضيفه .

وخرج نور الدين من القلعة فى أحسن زى وأكمل شارة ، وحوله وجوه دولته وخواص مملكته فلما وصل إلى الميدان دقت الطبول والكوسات ، ونفخ فى الأبواق فخرج شاور من الجوسق راكباً ، وسار الرجلان حتى التقيا فى وسط الميدان فتبادلا التحية دون أن يترجل أحد منهما لصاحبه ، ثم سارا من موضع اجتماعهما وهو نصف الميدان إلى آخره وهما يتبادلان الحديث ، وعادا بعد قليل إلى المكان المعد لجلوسهما فجلسا ، وبدأ اللعب ونور الدين يشرح لضيفه كل صغيرة وكبيرة .

وكان الشوط الأول بين نجم الدين أيوب وشهاب الدين الحارمى ، ونظر شاور فوجد كلا من الرجلين قد امتطى صهوة جواده ، ووقف فى ناحية من الميدان وخلفه خشبتان مثبتتان فى الأرض تعينان الهدف ، وبيده عصاً طويلة معقوفة النهاية ، وأذن نور الدين ببدأ اللعب ، وألقيت الكرة وسط الميدان ، وتقدم كل منهما ، وظلا يتبادلان الكرة فاقذ بهذه العصى ، وكلما بعدت جريا خلفهما وهما يميلان على جواديهما أماما وخلفا ، ويمينا ويساراً فى مهارة وخفة عجيبتين ، والحضور جميعاً يتابعون الكرة واللاعبين بأنظارهم ، ويبدون إعجابهم بكل رمية موفقة .

وبعد لحظات بعدت الكرة عن هدف نجم الدين ، وقربت من

هدف غريمه ، ونجم الدين وراءها يتابعها ، ورفع شهاب الدين يده بالصولجان ليضرب الكرة فيبعدها عن هدفه ، ولكن نجم الدين قفز بجواده قفزة سريعة فكان فى نحة بين شهاب الدين والكرة ، وجواده لصق جواد منافسه ، ونقل الصولجان فى حركة سريعة إلى يده اليسرى ، وهوى به على الكرة فضربها ضربة قوية اندفعت إثرها من تحت الجوادين تجرى حتى استقرت داخل الهدف فصاح الجميع صيحة الإعجاب ، وصفق الجند والقواد ، وابتسم نورالدين وقال لضيفه:

— إن هذين من كبار قوادى ، ومن أمهر من يلعب هذه اللعبة.

فقال شاور :

— ولكن يبدو إلىّ أن نجم الدين أمهر من صاحبه ، بل يخيل إلىّ أيضا أنه قد يكون أمهر قوادك لعبا .

— إنه ماهر حقا ، ولكن ابنه صلاح الدين أمهر منه . . إنه يكون على جواده أخف من الريشة وأسرع من الريح ، وسآمر أن يكون الشوط الثانى بينه وبين أبيه لتحكم بنفسك .

وبدأ الشوط الثانى بين الأب وابنه ، وظلا يبديان من فنون المهارة فى اللعب ما يثير حماس الشهود ، وقربت الكرة من هدف نجم الدين فصدها فى ضربة قوية رفعتها عن الأرض فطارت فى الجو ، فاستعد صلاح الدين لتلقيها ، ورفع الصولجان فردها فى قفزة سريعة قوية كادت تصيب رأس نجم الدين فانحنى لها ، ومرت كالسهم إلى أن استقرت داخل الهدف ، فهلل الشهود جميعا وصفقوا ، ولم يتمالك

نور الدين نفسه فصفق معهم إعجابا واستحسانا وصاح وضيفه :

— مرحى ، مرحى صلاح الدين .

وقال نور الدين :

— إن هذا الشاب ذا الخمسة والعشرين عاما أمهر اللاعبين بين جنودى وقوادى ، وإنى أحب هذه اللعبة حبا جما وأتقنها ، ولكن لا يغلبنى فيها إلا صلاح الدين ، ولذلك كثيراً ما أدعوه ليشاركنى اللعب .

* * *

وبعث نور الدين إلى مقدم عسكره أسد الدين شيركوه فاستدعاه من إقطاعه « الرحبة » وجمعه وأخاه نجم الدين وابنه صلاح الدين فعرض عليهم ما دار بينه وبين شاور من حديث وسألهم رأيهم ، فقال نجم الدين :

— الأمر لمولانا السلطان ، ولكننى أرى أننا يجب أن ندخر جنودنا وقوانا كلها لمناوأة أعدائنا الفرنج فهم يزدادان كل يوم خطراً بمن يأتيهم من وراء البحار .

فقال نور الدين :

— وما رأيك أنت ياأسد الدين ؟

قال :

- إن ما يقول أخى حق ، ولكننى أرى أن نجيب دعوة شاور فقد لجأ إلى مولانا السلطان مستعينا به . .

ثم سكت لحظة وقال :

- وأظن أننا نستطيع أن نطلع على أحوال مصر ، فالأمور فيها

كما يبدو لى على غير ما نحب ، وإنى لأخشى أن يطمع هذا الخلل فى أحوالها الفرنج فيها فينقضون عليها ، ولكن لا بد لمولانا السلطان أن يتأكد من وعود شاور وشروطه .

فقال نور الدين :

— إن شاور يعرض أن يكون لى ثلث خراج مصر ، وأن يكون نائبى بها ، وقد ترددت كثيراً فى قبول رجائه خوفا على جندى من خطر الطريق ، فالفرنج يملكون مدن الساحل كما يملكون قلعتى الكرك والشوبك ، كما أننى أضعف من قوتى هنا فى الشام إذا أرسلت لمصر جزءا من جيشى ، وربما أطمع هذا الفرنج فيغيرون على بلادى ، ولكننى مع هذا أوافق أسد الدين على رأيه ، لأن الأخبار تصل إلىّ من مصر أن أحوالها بهب مقسم بين الجند والأمراء ، وضرغام قد استبد بالأمر وأخذ يقتل أمراء جيشه حتى كاد يفنيهم ، واستبد بالأمر دون الخليفة العاضد حتى أصبح لا يملك من الحكم شيئاً ، فهذه حال تطمع الفرنج فى مصر كما تقول ياأسد الدين ؛ وإلى هذا كله لو أن جنودى انتصروا وعاد شاور إلى الوزارة لكان لنا ثلث خراج مصر وهو مبلغ لايستهان نستعين به على حرب أعدائنا من الفرنج .

وقال أسد الدين :

— وسيدين شاور لمولانا السلطان بالولاء ، وهذه خطوة فى سبيل الاستيلاء على مصر .

ونظر إلى نجم الدين وقال :

— ألا ترى رأينا ياأخى فإنى أراك صامتاً .

— فى الحق أنه كلام جميل ، وكسب عظيم لو تحقق .

فقال نور الدين :

— وما الذى يمنع من تحقيقه ؟

— يمنع من تحقيقه من سيتولى تحقيقه .. شاور .

فقال أسد الدين :

— شاور .. وكيف ؟

فتقدم صلاح الدين لأول مرة يبدى رأيه، وقال :

— أجل ياعمى — شاور — إنى أوافق أبى على رأيه ؛ إن لهذا الرجل نظرات ماكرة تبدو نفسه الخبيثة من خلالها واضحة جلية . . إننى لم أرتح لهذا الرجل منذ رأيته ، ولقد شممت من حديثه أنه يكاد يقتل نفسه لضياع السلطة من يديه ، وتبين لى أيضاً أن الغاية لديه تبرر الوسيلة فهو يريد العودة إلى الوزارة مهما كلفه ذلك من ثمن ، وهو يسب ضرغاما ورجال ضرغام والخليفة العاضد ، وهو يلعن أهل مصر الذين يقدمون اليه المال ويعينونه على معيشة الترف والبذخ التى يتحرق شوقا للعودة اليها الآن. أتظنه يفى لمولانا السلطان إذا عاد للحكم؟!

فقال نور الدين :

— ولكننى وعدت الرجل ياصلاح الدين :

— لم أكن أعلم أنك وعدته يامولانا ، وما دمت وعدت فلا بد من الوفاء .

وقال نجم الدين :

— ما دمت وعدت فالخيرة فى ما اختاره الله ، فلتأمر جيوشك يامولاى بالاستعداد .

فنظر نور الدين إلى أسد الدين وقال :

— وقد اخترتك ياأسد الدين لتكون مقدم الجيش السائر إلى مصر لما أعلمه من شجاعتك ويمن طالعك ، فإنى أتفاءل بك خيراً ، ولم يحدث أن عهدت إليك بغزو إلا كان النصر على يديك، فاخترجندك وقوادك من الغد واستعد للسفر .

— أنا سيف من سيوف مولانا فليوجهه أنى شاء ،ولكننى أرجو أن يصحبنى أخى نجم الدين أو ابنه صلاح الدين .

— لك ما تريد .

ثم نظر الى نجم الدين وابنه وقال :

— أيكما يريد السفر مع أسد الدين ؟

فقال نجم الدين :

— ليأمر مولانا صلاح الدين بالسفر مع عمه .

فقال نور الدين :

— عظيم — سيرا على بركة الله وليكن التوفيق والنصر حليفكما إن شاء الله ، وسأسير أنا بجندى عند رحيل جيشكما إلى بلاد الفرنج لأشغلهم عن التعرض لكم حتى تصلوا مصر سالمين بعون الله.

عودة شاور

لم يكن ضرغام فى سيرته مع الناس . بعد توليه الوزارة . أفضل من شاور . فقد عانى المصريون من ظلمه كثيرا ، وكثرت مصادراته لأموال التجار والزراع وأرباب المعايش، وعاث جنده فى البلد فساداً حتى أشاعوا الرعب فى نفوس الجميع ، وأصبح الناس خائفين على أنفسهم وأموالهم ، فجمعوا الأقوات والماء ، ولزموا مساكنهم ، لايغادرونها إلا إلى المساجد حيث يؤدون الصلاة ويبتهلون إلى الله سبحانه وتعالى أن يكشف عنهم تلك الغمة .

وعلم ضرغام بأن شاور قد لجأ إلى البطل نور الدين يستنجد به فكتب إليه رسائل كثيرة يجرح فيها شاور ، ويمنيه بالطاعة والولاء ، ولكن نور الدين كان قد وعد شاور بالمساعدة فلم يلق بالا لرسائل ضرغام .

ووصل جيش أسد الدين - بعد قليل - ومعه شاور إلى بلبيس ، فأرسل ضرغام أخاه ملهما على رأس الجيش المصرى لمقاتلة أسد الدين .

كان جيش أسد الدين أقل من جيش مصر عدداً وعدة ولكنه أقوى روحا وأشد إقداماً ، كما كان يمتاز بشجاعة قواده ، أما جيش مصر فقد كانت تعوزه القيادة الجريئة منذ أفنى ضرغام خيرة رجال الجيش وقواده ذبحا وقتلا ، ولهذا لم يجد أسد الدين من جيش ملهم مقاومة جدية وسرعان ما انتصر عليه .

وقد كان الفضل الأكبر فى هذا النصر لمكر شاور ودهائه فقد بدأت المعركة عند بلبيس ، ووقف الجيشان مصطفين مدة من النهار دون قتال ، وأشار شاور على أسد الدين أن يأمر جنده بالوقوف ، هكذا دون حرب ، فوقفوا إلى أن حمى النهار ، والتهب الحديد على أجساد الرجال ، فضرب أكثر أهل مصر الخيم الصغار ، وخلعوا السلاح ، ونزلوا عن الخيول ، وجلسوا فى الظل ، فأمر شاور عند ذلك الناس بالحملة ، فكان النصر لجيش أسد الدين ، والهزيمة لجيش ملهم ، وكان أسعد أهل مصر من ركب فرسه ، وأطلق عنانه ، وولى منهزما ، وتركوا خيمهم وأموالهم ، فاستولى عليها جند أسد الدين .

وتقدم جيش أسد الدين حتى وقف على أبواب القاهرة ، فاستعد ضرغام لملاقاته ، وأعوزه المال للدفاع ، فأخذ أموال الأيتام المودعة فى صندوقهم ، فكرهه الناس ، واستعجزوه ، ومالوا مع شاور ، فتنكر لهم ضرغام ، وأخذ ينالهم بعقابه الشديد ، فزاد بغضهم له .

وأخيراً خرج بفلول جيشه ، وقاتل قتال المستميت ، غير أنه لم يلبث أن وجد أن لا فائدة من القتال ، فكر راجعاً إلى القاهرة ، وأمر بضرب الأبواق لتجتمع الناس ، فضربت الأبواق والطبول ما شاء الله أن تضرب من فوق الأسوار ، فلم يخرج اليه أحد ، وانفض عنه الناس ، فسار إلى الميدان قبالة باب الذهب - من أبواب القصر - ومعه خمس مائة فارس ونادى الخليفة ضارعا مستغيثاً وهو يقول :

— أريد أمير المؤمنين يكلمنى لأسأله عما أفعل .

وظل يردد النداء ولا مجيب ، لأن العاضد كان يكرهه كرهاً شديداً ، فقد كان مدة وزارته كالمحجور عليه ، وكانت قد وصلته كتب شاور يعتذر فيها عن الماضى ، ويطلب منه الإذن بالدخول إلى القاهرة .

لم يجد ضرغام لنفسه مخرجا من هذا المأزق الحرج ، وسُدت أمامه السبل ، فلبث واقفاً ينادى الخليفة إلى العصر ، ويتضرع اليه ، ويستحلفه بحق آبائه وأجداده ، والناس تنحل عنه حتى بقى فى نحو ثلاثين رجلا ، كل ذلك والخليفة لا يجيب ، حتى سمع ضرغام الأبواق والطبول وجند أسد الدين وقد دخلوا من باب القنطرة ومعهم شاور ، فذهب على وجهه منهزما ، وخرج من باب زويلة ، والعامة تلعنه وتقول: « ياضرغام . . هات مال الأيتام . . ضرغام عدو الإسلام . . »

وتتبعه رجل من جند الشام حتى ظفر به فقتله ، وحمل رأسه الى أسد الدين .

وهكذا أنتهت حياة وزير ، وعاد إلى الوزارة شاور وكان أول مافعل بعد عودته أن أمر بإطلاق سراح المساجين الذين أسرهم ضرغام أثناء غيبته وهم نفر من رجال الدولة كانت لهم بشاور أو بأفراد أسرته صلات .

وكان أول من أطلق سراحه القاضى الفاضل عبدالرحيم البيسانى أحد كتاب ديوان الإنشاء ، فقد ظل سجيناً مدة غياب شاور عن مصر ، لا لذنب إلا أنه كان متصلا بالكامل بن شاور وكانت تربط الرجلين أواصر الود والصداقة .

وذهب عبد الرحيم إلى منزله بالفسطاط فرحب به أهله فرحين ، وسرعان ما انتشر خبر العفو عنه فتوافد الناس على داره مهنئين ، وكان فى مقدمتهم الفقيه الشاعر عمارة اليمنى ، والفقيه الجندى عيسى الهكارى إمام أسدالدين شيركوه .

وبينا هو فى داره يرحب بمهنئيه ، ويتجاذب وإياهم أطراف الحديث إذ أقبل عليه صديقاه الحميمان : الفقيه زين الدين والشيخ أبو الحسن ، فأسرع إليهما الفاضل محيياً ومرحباً ، وتقدم فأحتضن زين الدين وهو يقول :

ـ أهلا بالصديق العزيز . . . أهلا وسهلا

ـ أهلا بك أنت يا عبد الرحيم ـ حمداً لله على سلامتك وألف حمد . وشكراً له أن دالت دولة الظلم .

ثم التفت عبد الرحيم إلى أبى الحسن وقال :

ـ مرحباً . . مرحباً يا أبا الحسن . . إنك صديق الجميع الوفى . كيف أطفال مكتبك .. ألا زالوا مجدين فى حفظ القرآن . إن لك عند الله أجراً عظيما ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول « من كان لله كان الله له . . . . . تفضلا . . . تفضلا .

وجلس الرجلان يعيدان التهنئة لصديقهما عبد الرحيم ويشاركهما فى ذلك الحاضرون إلى أن قال القاضى الفاضل وأشار إلى رجل يرتدى ملابس الجند وعمامة الفقهاء .

— هذا صديق الفقيه عيسى الهكارى يازين الدين وكان يحدثنا قبل مجيئك عن البطل نور الدين وشدة إيمانه بالله . . .

ثم التفت إلى الفقيه عيسى وقال :

— والآن زدنى من حديثك الشهى يا عيسى . . . إنه يحى موات نفوسنا ونحن فى بلد لا يفكر أحد من رجال الدولة فيها فى الله سبحانه وتعالى ... واستأنف عيسى حديثه فقا :

— والله إن هذا الرجل أهل لكل خير فهو لا يعيش إلا للإسلام والجهاد فى سبيله وسلاحه القوى فى جهاده إيمانه بالله سبحانه وتعالى . وإنى لأذكر أن نور الدين خرج إلى الجهاد فى سنة ست وخمسين وخمسمائة - أى منذ ثلاث سنوات - فقضى الله بانهزام عسكر المسلمين ، وبقى الملك العادل مع شرذمة قليلة وطائفة يسيرة واقفاً على تل يقال له تل حبيش ، وقد قرب عسكر الكفار بحيث اختلط رجالته المسلمين مع رجالة الكفار فوقف الملك العادل بحذائهم مولياً وجه إلى قبلة الدعاء حاضراً بجميع قلبه مناجياً ربه يقول « يارب العباد وأنا العبد الضعيف ملكتنى هذه الولاية وأعطيتنى هذه النيابة عمرت بلادك ونصحت عبادك وأمرتهم بما أمرتنى به ونهيتهم عما نهيتنى عنه فرفعت المنكرات من بينهم وأظهرت شعار دينك فى بلادهم وقد انهزم المسلمون وأنا لا أقدر على دفع هؤلاء الكفار أعداء دينك ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم ولا أملك إلا نفسى هذه وقد سلمتها اليهم ذاباً عن دينك وناصراً لنبيك » .

ثم سكت الفقيه عيسى لحظة وقال :

— فاستجاب الله تعالى دعاءه وأوقع فى قلوب أعدائه الرعب وأرسل عليهم الخذلان فوقفوا فى مواضعهم وما جسروا عل الاقدام عليه وظنوا أن الملك العادل عمل عليهم الحيلة وأن عسكر المسلمين فى الكمين فإن أقدموا عليه يخرج العسكر من الكمين فوقفوا وما أقدموا

فقال القاضى الفاضل :

— مرحى ، مرحى إن هذا رجل الإسلام وبطله والله لكأن هذا إلهام من الله سبحانه وتعالى ولولا ذلك لهزم المسلمون وأسروا

وقال أبو الحسن :

صدق رسول الله .. « من كان لله كان الله له » إن هذا هو الذى يستحق أن يكون الله له يا صديق عبد الرحيم لا أبو الحسن الرجل الفقير الذى يعلم الصبيان القرآن .

ومال زين الدين على صديقه أبا الحسن وهمس فى أذنه .

— والله إنى لأتمنى فى نفسى لو أن رجال هذه الدولة كانوا حاضرين هذا الحديث .

وبدا الفرح على الفقيه عيسى وانفرجت أسارير وجهه وملكت نشوة السرور عليه نفسه وكأنه تلميذ بار يستمع لتقريظ الناس لأستاذه وراح يزيدهم من أخبار نور الدين فقال :

— إن هذا صديقنا الفاضل عبد الرحيم سجنه ضرغام تسعة أشهر وهو برىء ، لا لشىء إلا لأن الكامل بن شاور كان يختص به ؛

ولكن استمعوا كيف يعامل نور الدين الفقهاء والعلماء والفقراء فى مملكته ... قال لنور الدين مرة نفر من أصحابه : « إن لك فى بلادك إدرارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء فلو استعنت بها الآن لكان أمثل » فغضب نور الدين وقال : « والله إنى لأرجو بأولئك النصر فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم ، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عنى وأنا نائم فى فراشى بسهام لا تخطىء وأصرفها إلى من يقاتل عنى إذا رآنى بسهام قد تخطىء وتصيب ، ثم إن لهؤلاء القوم نصيب فى بيت المال أصرفه اليهم كيف أعطيه غيرهم . . ؟ »

فصاح الحاضرون فقد كانوا جميعاً فقهاء .

— الله أكبر . . . الله أكبر . . .

وقال الفقيه عمارة :

— إن هذا الرجل العظيم يعيد سيرة الصحابة والخلفاء الأولين زاده الله عزاً ومجداً .

فى معسكر أسد الدين

كان أسد الدين شيركوه يروح فى خيمته ويغدو ثائراً محنقا كالأسد حبس فى قفص ، وحوله كبار رجال جيشه صامتين رهبة واحتراما ؛ وجلس أسد الدين على كرسى هناك وأمسك بسيف أمامه وضرب به المنضدة فى عنف وقوة وقال :

ــ أرأيتم كيف غدر بنا هذا الكلب شاور ؟

فقال شهاب الدين الحارمى :

ــ وهل جاءت رسله بالرد ؟

ــ أجل جاءت الرسل :. جاءت .. جاءت .

فقال قائد آخر :

ــ فهل يسمح مولانا الأمير فيطلعنا على رأى هذا الرجل لنتدبر الأمر .

فاعتدل أسد الدين فى جلسته وقال :

ــ لقد لجأ هذا الرجل الماكر إلى الملك العادل نور الدين واستنجد به ضد عدوه ضرغام فأغاث نورالدين لهفته ، وأمرنا أن نسير بجيشنا لنساعده حتى يعود إلى الوزارة ، وقد بذلنا كل جهدنا، وضحينا بالمال والرجال حتى حققنا له رغبته ، وقد مضى الآن شهر ونحن نعسكر خارج القاهرة ننتظر أن يفى هذا الغادر بوعده لنور الدين فما وفى،

وأرسلت اليه رسولا يذكره بوعوده ويقول له أن مقامنا فى الخيم قد طال ، وقد ضجر العسكر من الحر والغبار . .

ثم سكت لحظة وقال فى صوت المتذمر الساخط :

— أتعرفون ماذا كان جوابه ..؟! لقد أرسل إلى ثلاثين الف دينار وقال « إنك تستطيع أن ترحل فى أمن الله ودعته » ، أجل . . أستطيع أن أرحل فى أمن الله ودعته .. هيه .. يحسبنا هذا الرجل مطايا توصله لبغيته ثم تعود إلى مرابضها ..!!

فقال صلاح الدين :

— لقد صدق ظن أبى وظنى ياعمى . . أن شاور رجل ماكر لا يسعى إلا للملك ، وهو بعد ليس بالرجل — بل ليس بالكلب إن الكلب يفى وهذا لا وفاء عنده .

— صدقت ياصلاح الدين ، ولكننى لم أسكت فأرسلت اليه رسولا آخر يذكره بنص وعده لنور الدين فإنك تذكر أنه وعده بثلث خراج مصر وأن يدين له بالولاء .

— فماذا كان جوابه ياعمى ؟

— لجأ إلى الكذب ، كذب وهو الوزير ، وقال للرسول « أنا ما وعدت بشىء مما تقول ، وأنا طلبت نجدة من نور الدين لتحقيق رغبة خاصة ، وقد حققت فلا بد من عودة الجند إلى الشام ، وقد بعثت لأسد الدين نفقة الجند فليأخذها ولينصرف ، وأنا أستطيع التفاهم مع نور الدين ».

فزمجر القواد وقالوا فى صوت حانق :

— ياله من ثعلب ماكر .. أيصل به الكذب إلى هذا الحد .. !؟

وقال صلاح الدين :

— مرنا بقتله ياعمى نقتله .

وصدق القواد على قوله والغضب يفور فى صدورهم :

— أجل مرنا أيها الأمير ، مرنا نأتيك برأسه

فقال أسد الدين :

— صبراً .. صبراً .. واستمعوا إلى بقية الحديث ففيه العجب ؛ أرسلت اليه ثالثة أقول إننى أحمل أمراً من نور الدين، ولا يمكننى مخالفته ، ولا أستطيع الانصراف إلا إذا نفذ هـذا الأمر . فكان جوابه أن أمر بإغلاق أبواب القاهرة وأخذ فى الاستعداد للحصار .

فوقف الحارمى ساخطاً وهو يقول :

— ولم ننتظر أيها الأمير ؟ إن هـــذا الثعلب الكاذب لا بد أن ينال جزاءه .

فقال أسد الدين :

— انتظر ياشهـاب الدين ، إن الحديث لم يتم بل بقى منه الجزء المر ، الجزء الذى يثيرنى ويؤلمنى ويحز فى نفسى ، لقـــد أرسل شاور بعد ذلك إلى عدونا مرّى ملك الفرنج ببيت المقـدس يستعين به ضدنا ويقول : « خرج معى أسد الدين شيركوه ليعينني على ضرغام ، فلما وصل إلى مصر بجنده طمع فيها ، ولو أن نور الدين ملك

مصر مضافه إلى الشام لكان هذا إيذانا بزوال ملكك فاحضر ولك عن كل مرحلة نرحلها إلى ديار مصر ألف دينار » ، وقد أتتنى الجواسيس اليوم تخبر بتحرك مرى بجيشه من عسقلان فى طريقه إلى مصر ، ولهذا رأيت أن أجمعكم لتروا رأيكم .

فقال الياروقى :

— الرأى رأيك أيها الأمير ، هذا الرجل يستحق العقاب فلنركب من الغد لمقاتلته .

فقال أسد الدين وكانت قد هدأت ثائرته بعد أن فرج عن نفسه بهذا الحديث :

— لنتدبر الأمر فى روية . . إننا سنقابل بجيشنا هذا الصغير قوتين : قوة شاور داخل أسوار القاهرة وقوة الفرنج التى ستفد عن طريق الحوف الشرقى . . ولهذا رأيت أن يسير صلاح الدين فى قطعة من الجيش إلى بلبيس لجمع الغلال والأتبان والأحطاب وماتدعو إليه الحاجة ليكون لنا كل ذلك ذخيرة هناك ، ونبقى نحن هنا نحارب شاور فإذا حضر الفرنج خرجنا لملاقاتهم عند بلبيس .

فقال صلاح الدين :

— نعم الرأى رأيك ياعمى ، وسأخرج إلى بلبيس من الغد إن شاء الله . .

* * *

وصل مرى بعد قليل بجيشه إلى فاقوس ، والمسافة بين عسقلان وبينها سبع وعشرون مرحلة فأرسل إليه شاور سبعة وعشرين ألف

دينار ، وأسرع أسد الدين فسار بجيشه إلى بلبيس ، وخرج شاور فلحق بجيش الفرنج ، وبدأت الحرب بين الجيشين وأسد الدين يدافع بجنده عن المدينة دفاع الأبطال وجيشه يتناقص كل يوم ، والذخيرة تقل والضيق يشتد به وبقواده فقد انقطعت سبل الاتصال بينه وبين نور الدين .

وفى ذات يوم بعد انقضاء نحو ثمانية أشهر من بدء الحرب بينما هو فى خيمته يعرض الأمر على كبار قواده كالمعتاد ويسألهم الرأى والمخرج من هذا المأزق إذا بالحاجب يدخل فيقول :

— سيدى القائد ، رسول من قبل الملك العادل نور الدين .

فدهش الجميع وبدا الفرح على وجوههم ، وقالوا جميعاً فى صوت واحد :

— رسول من نور الدين ؟ ! .

وقال أسد الدين :

— أدخله . . أدخله فى الحال .

ودخل الرسول تبدو عليه آثار التعب واضحة ، والعفر يعلو ملابسه ووجه ، يحمل عيبة ثقيلة وضعها أمام أسد الدين ، وقبل الارض محيا ، فقال أسد الدين :

— ما وراءك أيها الرسول ؟ وكيف تركت مولانا الملك العادل ؟ لعله فى خير وصحة .

— إن مولاى الملك العادل متمتع بنعم الله عليه من صحة ونصر ولله الحمد ، غير أنه فى قلق مستمر على قائده العظيم أسد الدين وجنده البواسل فى مصر فقد وصلته رسالتك منذ أشهر ، وعلم منها خبر النزاع بينكم وبين شاور ، وعزم الفرنج على المسير إلى مصر ثم إنقطعت أخباركم عنه فقلق أشد القلق وخاصة بعد أن علم بوصول الفرنج إلى بلبيس وإشتباككم معهم فى الحرب .

فقال أسد الدين :

— إذن لم تصل رسائلنا الأخيرة إلى الملك العادل ؟ !

— لم تصل ياسيدى ، ولكن مولانا الملك العادل كان طول هذه المدة يناوش الفرنج ويناضلهم فى كل مكان ، وكان النصر حليفه فافتتح بانياس ، وأغار على طبرية وقد جمع أعلام الفرنج وأمرنى أن أحملها إلى سيدى القائد لنشرها على أسوار بلبيس كى يفت ذلك فى أعضاء العدو ، ويدخل الوهن على قلوبهم

فقال أسد الدين :

حفظ الله مولانا السلطان الملك العادل وكتب له النصر دائما . . وشكرا له على ما فعل فى سبيل الإسلام وسبيل جنده .

وألقى للنجاب سرة فيها مائة دينار وقال :

— خذ هذه مكافأة لك ، واذهب فأزل عنك غبار السفر .

— الشكر لسيدى القائد .

* * *

وفى صباح الغد الباكر نشرت أعلام الفرنج على أسوار بلبيس وأمر أسد الدين جنده وقواده بالاستعداد للقتال ، وكان يمر بينهم متفقداً أحوالهم وهو فى قلق شديد ينتظر ما سيكون لهذه الأعلام من أثر فى نفوس أعدائه ، ولما طال به الانتظار أمر حراس الأسوار أن يرقبوا معسكر العدو فى عناية ، وإتجه إلى خيمته الخاصة ، ونادى إبن أخيه صلاح الدين فلما حضر قال :

ترى ماذا سيكون موقف مرى وجيشه ياصلاح الدين ؟

فأجاب صلاح الدين قائلا :

— سيصيبهم الهلع والفزع دون شك ، وسيقررون الانسحاب.

— وهذا الرجل شاور ؟

— لست أدرى أى قرار سيتخذ ، ولكم أتمنى لو إستطعت القبض عليه وقتله ، فإن وزيرا هذه أخلاقه لا يمكن أن تصلح البلاد تحت حكمه .

— لقد بت أرى يا ابن أخى أنه لا بد لنا من الاستيلاء على هذا البلد لصالح الإسلام وصالح أهله ، لقد كنت أحسب عند ما كلفنى نور الدين بهذه الغزاة أن فى مصر قوة فأقدمت وأنا أخشى أشياء كثيرة: كنت أخشى قوة الجيش المصرى فوجدته ضعيفا لا يقوى على النضال بعد أن أفنى ضرغام خيرة رجاله ، وكنت أخشى الخليفة ورجال القصر حوله فقد كان فى ظنى أنهم قوة لها خطرها فاذا بى أجد الخليفة صبيا

لا حول له ولا قوة يتحكم الوزراء فى شئونه الخاصة والعامة ، وليس له من الملك إلا الاسم فقط .

ثم سكت أسد الدين لحظات كمن يتردد فى الافضاء بسر فى نفسه يخشى أن يذيع ، ونظر إلى صلاح الدين نظرة طويلة قوية وقال :

— وكنت أخشى بعد ذلك أهل مصر فقد كنت أحسبهم يدينون كخلفائهم بمذهب الشيعة فلا بد أن يثوروا اذا أصاب خليفتهم أو وزيرهم مكروه ، ولكننى وجدت هذا الشعب الطيب يئن ويتألم تحت نير هؤلاء الخلفاء والوزراء الذين أهملوه فى سبيل ملاذهم ولهوهم ودسائسهم ونضالهم . أتعرف من الذى نقل إلى خبر استعداد شاور لمحاربتنا ، وخبر إستنجاده بمرى ملك بيت المقدس ؟

— إنهم الجواسيس دون شك ياعمى .

— نعم إن من ينقل الينا مثل هذه الاخبار يسمى جاسوسا .

ولكن الذى فعل هذا رجل من أهل مصر .

— رجل من أهل مصر ؟ ! وكيف ؟

وهنا دخل الحاجب يستأذن لقائد حرس الأسوار فأذن له ، ودخل فحيا القائد وقال .

— مولاى لقد ظلت عيون الحراس يقظة لكل حركة تبدو من جيش العدو فوجدنا الجنود تقف فى صفوفها مستعدة للنضال ، وقذف النبال ، وأعدت المجانيق لضرب الأسوار . ولكنهم مالبثوا أن رأوا

أعلامهم تطل من فوق أسوارنا فمال كل إلى رفيقه واضطربت أمورهم واختل نظامهم وأسرع بعضهم إلى خيمة مليكهم فرأيناه يسرع على جواده بعد لحظات ليرى الأعلام بنفسه فلما رآها علت السكآبة وجهه ووجم قواده فانسحبوا جميعاً إلى خيمته .

هذا ما لاحظناه ننقله إلى سيدى القائد اتباعا لأمره .

— أحسنت وأحسن جنودك أيها القائد ، اذهب فبلغهم رضائى ومرهم أن يكونوا عيوناً يواقظ ترقب كل شاردة وواردة فى معسكر العدو طول يومنا هذا .

— سمعا وطاعة يامولاى .

وعاد أسد الدين يستأنف حديثه مع ابن أخيه ، ومسح جبهته بيده كمن يتذكر أين وقف به الحديث وقال :

— أين انتهى بنا الحديث ياصلاح الدين ؟

— كنت تقول ياعمى إن رجلا من أهل مصر نقل إليك أخبار شاور

— صحيح . . اتذكر ذلك الشيخ المصرى المسن الذى قبض عليه جنودى ذات يوم وأحضروه إلى خيمتى لأنه كان يحوم حول المعسكر ونحن نقيم خارج القاهرة .

— أجل أذكره جيداً . . . الشيخ أبو الحسن ، لقد حدثنى عنه الفقيه عيسى الهكارى وقال إنه قابله مرة فى منزل صديقه القاضى الفاضل وأثنى علياً ثناء جما .

— أيعرفه إذن الفقيه عيسى ؟

— أجل يعرفه .

— لقد طلب ذلك الشيخ يومذاك أن يخلو بى فلما أصبحنا على انفراد أفرغ ما فى جعبته من أخبار ، ونقل إلىّ حديث شاور وما اعتزمه من نضالنا وأنبأنى بمضمون الرسائل التى أرسلها يطلب النجدة من مرى ، ولكن الأهم من هذا كله أنه حدثنى كثيرا عن آلام الناس فى مصر وما يحسون من ضيق يكاد يكتم أنفاسهم تحت حكم هذا الخليفة ووزرائه المتلاحقين المتناضلين .

علمت منه أن الناس فى مصر عراة جياع مظلومون ، وهؤلاء الحكام يعيشون عيشة البذخ والترف والأبهة ؛ علمت منه أن طائفة كبيرة من أهـــل مصر سنيون ، ولكنهم لا يستطيعون المجاهرة بما يدينون به لطول ما يلقى الفرد منهم إذا أصرح برأى يخالف المذهب الشيعى .

— إذن لماذا لا يثور عامة المصريين ضد حكامهم هؤلاء ياعمى ؟!

— اتنتظر من الجائع أن يثور يا صلاح الدين ؟ أتنتظر من الرجل الأعزل أن يثور ؟ أطعمهم وجندهم وأعطهم سلاحا وانظر ماذا يفعلون ، إن أهل مصر رجال أشداء فإنى كنت ألمح الفرد منهم تلوح عليه مظاهر القوة والعزة ولكنهم مغلوبون على أمرهم ، إنهم يبذلون فى فلح الأرض وزرعها مجهودا يبذ مجهود الجنود فى ميادين القتال ، لأن مجهودهم متصل مستمر ، ومجهود الجندى ينتهى بانتهاء المعركة .

— إن هذا حديث عجيب ياعمى، لقد أصبحت أرى أنه من الواجب علينا إنقاذ أهل مصر من هؤلاء الحكام فهم مسلمون يلقون ضيرا ، وماذا نفعل نحن الشام ؟ وماذا يفعل سلطاننا نور الدين ؟ إننا نناضل الفرنج من أجل المسلمين وبلاد المسلمين .

— أجل وبلاد المسلمين ، وهل فى بلاد المسلمين خير من مصر ، لوكنت أعلم هذا كله قبل مجيئى لطلبت من نورالدين جيشا قويا ، ولكان لى شأن غير هذا . . هيه . . من يدرى ياصلاح الدين ماذا تكنه لنا الأقدار غداً ، بل بعد لحظات ؟ ! والآن اذهب لتشرف على جند الأسوار، وسأذهب أنا للاشراف على بقية الجند فإنى أرى أن يكونوا على استعداد طول اليوم حتى نرى قرار العدو بعد هذه المفاجأة ، ولتوافنى هنا بعد صلاة العصر فقد يجد جديد .

الصلح

خرج أسد الدين فمر بين صفوف الجند يتفقد شئونهم ، ويبعث الطمأنينة فى قلوبهم ، ويصدر أوامره باعداد المجانيق ، وأن يكون الجميع على استعداد تام ،وبينا هو فى ذلك إذ بجندى يعدو على جواده ويقف أمامه ويقول :

— مولاى : لقد أمسكنا بشحاذ مسكين مهلهل الملابس يحوم حول السور ويشير بعصاه للحرس، وهو يصر على مقابلة سيدى القائد .

— شحاذ يريد مقابلتى؟ غريب هـذا . . . ولـكن مصر بلد العجائب ! !

وقال أحد القواد :

احترس يامولاى فقد تكون له نية سيئة ، وقد يكون يخفى سلاحاً ويريد غدراً .

فقال الجندى :

— لقد فتشناه يا مولاى فلم نجد معه إلا عصاه التى يتوكأ عليها وهو رجل مسن ضعيف .

فقال أسد الدين :

— أحضره إلى خيمتى ، وسأذهب إلى هناك .

ثم نادى صلاح الدين ليتبعه إلى الخيمة ، وجلس أسد الدين فى

خيمته ، ومعه صلاح الدين ، وبعد قليل دخل أحد الجنود يقود شيخاً مسناً ذا لحية بيضاء ، وعلى عينيه عصابة تخفيهما وبيده عصا يتوكأ عليها ، وملابسه رثة ولكنها نظيفة ، وفى قدميه خفان عتيقان ، فقال أسد الدين :

— تقدم ياشيخ . هل لك من حاجة فنقضيها ؟

— لا زلت ملاذ كل فقير ، ونصير كل ضعيف يا مولاى ، حفظك الله ونصرك وأكرمك .

فأحس أسد الدين كأنه سمع هذا الصوت من قبل وراح يمعن النظر إلى ملامح هذا الرجل ، ويبحث فى ذاكرته . . . أين رأى هذا الوجه ، وأين سمع هذا الصوت ؟؟

وقال :

يخيّل إلىّ أننى سمعت هذا الصوت من قبل يا شيخ ، فمن تكون ؟

فرفع الرجل العصابة عن عينيه ، واعتدل قليلا فى وقفته بعد أن كان منحنياً وقال :

— أجل ، لقد سبق أن تشرفت أنا بمقابلة القائد البطل أسد الدين

فصاح أسد الدين دهشاً ، وقام فمد يده للرجل محيياً ، وقال :

— أبو الحسن ! ! أهلا . . . أهلا . . . تفضل فاجلس إننا ندين لك بالكثير ياصديق . . . أين كنت طول هذا الوقت ؟ ولم لم تتفضل بزيارتنا ؟ ؟

— شكراً يا سيدى شكراً . . . لست أهلا لكل هذا الإكرام ؟

— وما هذه الملابس يا أبا الحسن ؟ صانك الله من كل ضيم .

— أنا فى خير والحمد لله يا مولاى . ولكن لولا هذه الملابس لما وصلت إلى هنا ، ثم تلفت حوله وسأل أسد الدين :

— هل هناك من يسمعنا ؟

— لا يا أبا الحسن ، اطمئن فالجنود جميعاً فى المصف استعداداً للقتال ، فما ورائك ؟

— لقد جئتك بالبشرى أيها القائد العظيم فقد ذعر الفرنج اليوم لما رأوا أعلامهم على أسوار بلبيس ، وخافوا على أملاكهم فى الشام لأنهم اعتقدوا أن نور الدين قد سلبهم إياها فتحدثوا إلى شاور فى ضرورة الانسحاب والعودة إلى الشام ، ولا تسل عن مبلغ هلعه وخوفه عند ذاك فانه سألهم أن يمهلوه ثلاثة أيام ليتدبر فى أمره .

— حمداً لله يا أبا الحسن . لقد كنت أتوقع هذا . وماذا ترى شاور فاعلا الآن ؟

— لقد سمعت ياسيدى أنه سيعرض عليكم الصلح .

فنظر أسد الدين إلى ابن أخيه وقال :

— أرأيت ياصلاح الدين لقد نجحت خطة سلطاننا نور الدين . فما رأيك الآن !

فنظر صلاح الدين إلى عمه ثم إلى أبى الحسن ، وتردد قليلا . فقال أسد الدين :

تكلم ياصلاح الدين ولا تخف فلقد غدا أبو الحسن فرداً منا فهو يسعى لنصرنا .

— رأيي ياعمى أن نناضل هذا الرجل بعد سفر الفرنج حتى نقتله ونخلص البلد من ظلمه .

وهنا دخل الحاجب وقال :

— مولاى ، حضر الآن إلى المعسكر الأمير شمس الخلافة المصرى رسولا من قبل الوزير شاور .

فارتبك أبو الحسن قليلا وهمس فى أذن أسد الدين :

— لقد حضر يعرض شروط الصلح ياسيدى ، ولا بد لى من الخروج من هنا الآن لئلا يرانى فهو يعرفنى حق المعرفة .

فسأل أسد الدين الحاجب :

— وأين هو الآن ؟

— إنه ينتظر فى خيمة عند باب المعسكر ،

— إذن اصحب ضيفنا هذا إلى الخيمة المجاورة ، ومهد له سبل الراحة كلها ، ثم ارسل أحد الجند ليصحب الأمير شمس الخلافة إلى هنا .

وخرج أبو الحسن فى صحبة الجندى ، وبعد قليل حضر شمس الخلافة ودخل فحيا وقال :

— سلام الله على القائد العظيم أسد الدين ، وعلى الشاب البطل صلاح الدين .

فقال أسد الدين :

— السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، تفضل فاجلس ، كيف حال شاور ؟ لعله فى خير ولعله مطمئن إلى صحبة أصدقائه الفرنج ؟!

— إن شاور حمّلنى السلام إلى القائد العظيم أسد الدين ، وهو يقول إن قوى المسلمين فى جيشينا ناها الوهن فمن الخير أن نضع حداً لهذا القتال .

— وهل أنا الذى بدأت القتال ياشمس الخلافة ؟

— فى الحق إن لشاور بعض العذر . . ورغم .

فقاطعه أسد الدين غاضبا وقال :

— أى عذر لشاور ؟ أله العذر ألا يفى بوعده لنور الدين ويغرر بى ؟ أله العذر أن يستنجد بجند أعدائنا الفرنج ليحاربنا بعد أن أعناه وأغثناه وأعدناه لملكه وقضينا على عدوه . . أى عذر جئت تلتمس لسيدك ؟ !

وقال صلاح الدين :

— لقد جازانا شاور جزاء سنمار يا شمس الخلافة .

فارتبك شمس الخلافة قليلا وقال :

— لقدكنت أريد أن أقول ياسيدى القائد بعض مالم تعلما من أمر شاور : لقد كان فى مسلكه — رغم كل ما حدث — بعض الخير . . إنه يعلم أن جيش الفرنج قوى وكثير العدد والعدة ، وكان فى قدرتهم التغلب على جيشكم ، ولكن شاور كان يعلم أن فى نصرة الفرنج هزيمة لجندكم المسلمين ، ثم إنه كان يخشى أن يفتح الفرنج بلبيس

فيطمعوا فيها وفى البلاد بحجة أنهم فتحوها بالسيف ولهذا كان يثنى عزمهم عن القتال دائما . . وما من يوم كان يمضى إلا وينفذ إلى كبار الفرنج الجملة من المال ويسألهم أن يدفعوا الملك عن الزحف والقتال ، فهو بهذا قد أدى لجيشكم خدمة كبيرة .

فقال صلاح الدين :

— هذا كلام له خبىء معناه ليست لنا عقول .

وقال أسد الدين :

وبعد، إننا نعلم كل ما تريد أن تقول ، ولا داعى لكل هذه المقدمات وهذا المن علينا ولا من ، إن صاحبك يطلب الصلح . . أليس كذلك ؟

— إنه يريد حقن دماء المسلمين من الجيشين .

فقال أسد الدين فى تهكم مرير .

— حقن دماء المسلمين ؟ هيه . . ومتى كان شاور يفكر فى دماء المسلمين ؟ ، قل كلاما غير هذا . .

— لقد سعى شاور حتى أقنع الفرنج بالرحيل ، ولكنهم اشترطوا لرحيلهم أن يرحل جيشكم أيضاً .

— ثم ماذا ؟

— وهو يقدم للقائد أسد الدين ثلاثين ألف دينار أخرى نفقة لجنده .

— أيحسبنا شاور أطفالا تخدعنا ألاعيبه ؟ أو ممن يغريهم بريق المال ؟

— لا يا سيدى القائد ، إن شاور لا يقصد إلى هذا ، إن جنود

المسلمين يقتلون كل يوم من جيشنا وجيشكم ، وفى هذا تقوية للفرنج فان كان القائد العظيم أسد الدين بطل الإسلام المخلص الأمين لا يقبل قول شاور فإنى أتوسل إليه أن ينظر إلى صالح المسلمين وصالح الإسلام وأن يتناسى حقده على شاور فى سبيل هذا الصالح .

وكأن شمس الخلافة كان يضرب على الوتر الحساس . ويحدث ناحية الضعف بل ناحية القوة فى أسد الدين فخفت حدته قليلا ، وأخذ يفكر فى موقفه ، وموقف جيشه فى مصر ، فوجد أن جيشه لم يعد فى قوة تمكنه من النضال وخشى إن هو رفض شروط الصلح أن يعدل الفرنج عن الرحيل ويهاجموه فى عنف لتنتهى مهمتهم فى سرعة ليعودوا إلى بلادهم ، ورأى أخيرا أن من الخير أن يقبل هذا الصلح وينسحب من مصر ، ولكن ليعود إليها أوفر سلاحا وأكثر جندا ، وأقوى عدة .

فالتفت إلى شمس الخلافة وقال :

— لصالح المسلمين قبلت الصلح لا لشاور . ولكن لى شروطا فإنى أخشى الغدر ، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين .

— مر يا مولاى .

— إنى أشترط أن يسافر الفرنج أولا ثم أتبعهم أنا بجيشى .

— وهل ينفذ سيدى القائد ما يقول ؟

فأجاب أسد الدين فى سخرية لاذعة .

لست بشاور يا شمس الخلافة . . . أنا أسد الدين ، وإذا وعدت فإنى أفى ولو كلفنى الوفاء جيشى ونفسى .

* * *

وفى اليوم التالى أذن أسد الدين لجنده بالراحة والنزهة أنى شاءوا فخرجوا جماعات وانبثوا فى أنحاء المنطقة المجاورة واختلطوا بجند الفرنج يتسابقون ويتبارون ويتحدثون ، وخرج أسد الدين على جواده مستروحاً وبيده لت من حديد ومعه بعض قواده والمسلمون والفرنج يرمقونه بأنظارهم إعجاباً وتقديراً فتقدم اليه جندى من الفرنج وقال :

— أيها القائد العظيم : أما تخاف هؤلاء الفرنج وهم يحيطون بك وبجندك ولو أقدموا الآن لقبضوا عليكم .

فنظر اليه أسد الدين نظرة المعتز بشجاعته وقوته وقال :

— ليتهم يفعلون فإنى والله كنت أضع السيف فيهم فلا أقتل حتى أقتل رجالا ، ثم يقصدهم الملك العادل نور الدين فيفنى من بقى منهم . والله لو طاوعنى هذا الرجل شاور لخرجت اليهم فأفنيتهم جميعاً .

فذعر الفرنجى وخاف وصلب على وجهه وقال :

— والله لقد كنا نعجب من فرنج هذه الديار ومبالغتهم فى وصفكم والآن قد عذرناهم ، ونظر الجندى إلى رفاقه وقال :

— هلموا بنا . . .

فابتسم أسد الدين ونظر اليه نظرة الرجل الكبير إلى الطفل المغلوب على أمره .

* * *

وبعد أيام خرج الفرنج مسرعين إلى بلاد الساحل، ورحل أسد الدين بجيشه بعدهم بثلاثة أيام وقد عقد الأمل على العودة سريعاً إلى مصر لتأديب شاور، ورفع الظلم عن كاهل أهل مصر ومُلكها . أجل ومُلك مصر فقد كان أسد الدين طموحاً ذا نفس عالية لا ترضى بالدون ولا تقنع بالقليل .

عبد الرحمن يحذر

انقضى عام وبعض العام بعد خروج الجيش وشاور فرح مغتبط فقد عادت اليه السلطة كلها كما كانت فاستبد بها وجعل كل همه تتبع كل من علم أنه قد كان بينه وبين أسد الدين صلة أو معرفة أوصحبة، فقتل نفراً منهم وشرد نفراً آخرين وأصبح أهل مصر فى خوف من عيون شاور وجنده لا يكاد واحد منهم يتحدث عن أسد الدين أو رجاله إلا فى اقتصاد وسر وكتمان .

وفى ضحى يوم بينا أبو الحسن جالس فى داره بالفسطاط وأمامه تلاميذه من صبيان المدينة يحفظون القرآن إذ دخل عليه صديقه عبد الرحمن القوصى وقال :

— السلام عليك يا أبا الحسن :

— وعليك سلام الله ورحماته وبركاته . . . كيف حالك يا عبد الرحمن ؟ تفضل .

وجلس عبد الرحمن وراح الرجلان يطرقان بحديثهما كل ناحية . والحديث ذو شجون ، كل هذا وأبو الحسن منتبه لصبيانه كلما أخطأ أحدهم أو تلعثم رده إلى الصواب . فلما حل موعد الظهر ختم كل صبى المقرر عليه وتقدم إلى شيخه فقبل يده وحمل لوحه وانصرف .

فلما خلا المكان بالرجلين . قال عبد الرحمن :

— جئتك اليوم محذراً يا أبا الحسن .

فضحك أبو الحسن وقال :

محذراً ! ! وممن يا بنى فلست من رجال الدولة حتى يكون لى أعداء .

— لقد غدوت من رجال الدولة يا صاحبى ما بل من أخطر رجالها . . .

— وكيف ؟

— أتذكر إذ كنا جلوساً فى سوق الوراقين منذ أسبوع تساوم ذلك الكتبى لشراء كتاب « فضائل مصر » لابن زولاق .

— أجل أذكر ذلك جيداً وأنه رفض بيعه بعشرة دنانير ، وقد أخبرتنى أنت أنك اشتريته منه بعد يومين باثنى عشر ديناراً .

— ليس هذا موضوع حديثى يا أبا الحسن . . أتذكر ذلك القائد الكردى الذى حضر ونحن جلوس فسلم على ، وتقدم لشراء بعض الكتب ؟ .

— أجل أذكره . . فقد لفت نظرى بكلوتته الصفراء على رأسه بغير عمامة ، وذؤابة شعره الطويل مرخاة تحتها وملابسه الكردية ، وذلك لكثرة ما رأيت جند أسد الدين واختلطت بهم — فهذه ملابسهم — وقد عرفت يومذاك أن هذا القائد ممن استفسدهم شاور من رجال أسد الدين .

— هذا صحيح يا أبا الحسن وإن لهذا الرجل قصة .

— ومَنْ من الرجال ليس له قصه ياعبدالرحمن .. هات ماعندك ؟

— هذا القائد اسمه خشترين الكردى وهو كما تقول ممن استفسدهم شاور من رجال أسد الدين ، وقد أقطعه شطنوف . ولكن لنتركه قليلا لأبدأ لك القصة من طرف آخر . . . أنت تعرف أنى أنسخ الكتب منذ ذلك اليوم المشئوم الذى خرجت فيه . للأمير شمس الخلافة ، ولهذا الأمير ولع شديد بالكتب واقتنائها وله مكتبة كبيرة تضم كل طريف وتليد وعجيب ، وقد وجدت فى هذا العمل أكبر لذة لأننى ما هاجرت من قوص إلا طلباً للعلم ، فكنت أقضى يومى كله فى المكتبة أنسخ وأقرأ ، واطمأن الأمير إلىّ وإلى عملى وأعجبه خطى ونقلى فزاد فى أجرى وحمدت الله على ذلك .

— أعرف هذا كله يا عبد الرحمن ، فماذا وراءه .

— وراءه إن للامير بنتاً صغيرة تبلغ من العمر نحو الثلاثة عشر أو الأربعة عشر عاماً .

— وأظنها ذات جمال باهر ساحر يا عبد الرحمن .

— إنها لكذلك وتمتاز أيضاً بعقل راجح وذكاء نادر ولكن دعنا من هذا . . فنى ذات يوم.

فضحك أبو الحسن وقال ملاطفاً :

— أنا أستطيع أن أكمل لك القصة . . وفى ذات يوم رأيتها وحدثتها فأعجبتك و . .

فاحمر وجه عبد الرحمن خجلا وثار قائلا :

— لا يا أبا الحسن . . لست أريد أن أقول هذا . . دعنى أكمل

قصتى . . فى ذات يوم جاء الأمير شمس الخلافة لينظر فى بعض الكتب فرآنى منكباً على عملى فحدثنى عن رغبته فى أن أتولى تفقيه ابنته هذه فى دينها بعد أن حفظت القرآن فترددت أولا ـ ثم قبلت بعد إلحاح .

— اقول لك الحق يا صديق . . أنا لا أعرف صلة بين قصتك هذه وبين تحذيرى الذى جئت من أجله .

فضحك عبد الرحمن وقال :

— ما لصبرك ينفذ بهذه السرعة يا أبا الحسن . هل أقول كما قال صاحب موسى « أنك لن تستطيع معى صبرا » . . لا بد من هذه المقدمات لأصل إلى ما أريد قوله الآن

— قل ياسيدى :

— وفى قصر الخليفة جارية رائعة الجمال ، بارعة فى الغناء والعزف على العود ، إسمها ريحانة وهى تحضر دائما إلى قصر الأمير لتعلم بنته الغناء والموسيقى . . وهذه الجارية أيضا تحب الكتب وتقرأها فكانت إذا حضرت ورأتنى أدرس لفاطمة بنت الأمير جلست عن قرب تستمع إلى درسى حتى ينتهى . فتصحبها إلى غرفة أخرى حيث تبدأ درسها وإن لها صوتا حلوا كان يصل إلى وأنا أنسخ أو أقرأ فيشغلنى قليلا عن عملى وإن كان يرفه عنى ويخفف بعض ما أحسن من ضيق .

فغضب أبو الحسن وصاح فى رفيقه :

— والله لو كنت أيوبا لنفد صبرى . . . .

فضحك عبد الرحمن وقال :

— انتهينا يا أبا الحسن . . وصلنا إلى بيت القصيد :

وهذا القائد الكردى خشترين كما رأيت . شغف بالكتب ، يحبها ويقضى معها وقتا طويلا ، وكان لصداقته الأكيدة مع الأمير شمس الخلافة . يتردد على مكتبته فيختار بعض الكتب أو ينتحى ناحية فيقرأ ، وفى هذا المكان رأى ريحانة وسمع صوتها ، وأغلب ظنى أنها أعجبته وأنه أحبها فقد كثر حضوره إلى المكتبة عن ذى قبل كما طالت مدة إقامته بها .

فقال أبو الحسن :

— ومالى أنا ياسيدى ولهذه الجارية ومن يحبها . قم بنا نصلى الظهر ثم نتناول غداءنا فقد بلغ منى الجوع مبلغه

— انتظر قليلا يا أبا الحسن . .

ومنذ يومين جلس إلى هذا القائد يتجاذب وإياى اطراف الحديث عن الكتب قديمها وحديثها ثم سألنى :

— من هذا الشيخ المسن الذى كان يجلس معك عند الوراق ياشيخ عبد الرحمن ؟

فعجبت وقلت :

— إنه رجل يدعى أبو الحسن ، وهو رجل طيب كريم النفس والقلب .

فرد متهكماً :

— يبدو عليه هذا . . ثم استأذن وانصرف .

وبالأمس عند الأصيل جاءنى رسول من قصر الخليفة يطلبنى لمقابلة القاضى الفاضل فى ديوان الإنشاء ، فذهبت وأنا خائف أن يكون فى الأمر شىء فأنت تعلم كثرة الوشايات والدسائس هذه الأيام وكيف تودى بالأبرياء

— أجل أعرف يا عبد الرحمن ، وتأكد أن لابد لهذا الظلم من آخر . ولماذا كان يريدك القاضى الفاضل ؟

— كان فى حضرته بعض الكتاب فتظاهر أمامهم أنه يكلفنى بنسخ ديوان شعر كان بيده لاستاذه ابن قادوس الدمياطى رحمه الله ، ورأيته يدس فى الكتاب ورقة صغيرة وينظر إلى فلما خرجت تصفحت الديوان وقرأت الورقة فاذا بها : حذر صديقك أبا الحسن فان خشترين قد وشى به لدى الوزير شاور ، وأخبر أنه رآه أكثر من مرة فى معسكر أسد الدين» . وقد جئتك اليوم محذراً

فربت أبو الحسن على كتف جليسه وضحك طويلا ولحيته تهتز مع ضحكاته وقال :

— لقد « حلونت » روحى يا عبد الرحمن . . وكنت أظن الأمر أخطر من هذا . . أتحذرنى من شاور ! !

— أجل انه لرجل غادر وإذا صح لديه ما بلغه فسيأخذك بالعقاب شديد.

— وماذا تراه يفعل؟

— أنه لا يعرف غير القتل والسجن والتشريد :

— وماذا بقى لى فى الحياة يا عبد الرحمن أحرص عليه ، لقد بلونا الأيام حلوها ومرها يابنى فلنشرب الكأس حتى الثمالة . .

— ولكن الله سبحانه وتعالى قال « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » فما دمت تعلم مصدر الخطر فيجب أن تبتعد عنه

— وماذا تشير ياعبد الرحمن ؟

— الرأى عندى أن تختفى فى منزل أحد أصدقائك حتى تنجلى الغمة

— لا يا صديق فأنا لا أخشى شاور ، والآن دعنا من هذا هيا بنا نصلى الظهر لئلا يفوتنا . ثم نأكل لقمة ، ألم تشعر بالجوع يا أخى .

وبدأ أبو الحسن الآذان فى صوت خفيض ولم يكد ينتهى منه ويبدأ الصلاة وخلفه عبد الرحمن مؤتما به حتى سمعت جلبة وقعقعة سلاح ثم دق قوى على الباب فلما لم يجد الطارقون مجيبا حركوا الباب فانفتح فى سهولة ودخلوا فاذا بهم بعض جند شاور . وراعهم أن وجدوا المكان قفرا وبه حصير وقف عليها الشيخ الذى جاءوا للقبض عليه يصلى وخلفه شاب من ذوى العمائم وكان الشيخ يقرأ فى صوت يتهدج من فعل السنين وضعف الشيخوخة قوله تعالى « إن فى إختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون . إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون . إن الذين

آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم . دعويهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين . ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى اليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون . وإذا مس الأنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ،ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين . ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون . . »

— الله أكبر

قالها الشيخ فى صوت قوى فيه كل معانى الإيمان بالله وكأنه كان يقول للقوم وهو لا يحس بهم ، لتأت جنود شاور كلهم . وليأت شاور نفسه . . . فهل يستطيع أن يقربنى وأنا بين يدى الله القوى المتعال ، المعز المذل الجبار . . إذهبوا لو كان فى قلوبكم أثارة من إيمان بالله فقولوا لسيدكم إن أبا الحسن بين يدى ربه . . .

ولكن الجند كانوا فى عجب مما وجدوا ينظر الواحد إلى الآخر ولا يتكلمون ، ويستمعون إلى ذلك الصوت الضعيف الجميل رغم ضعفه وهو يتلو آى الله وحكمه فخشعت قلوبهم لحظات ووقفوا ينتظرون حتى ركع المصليان وسجدا ثم وقفا ، وقرأ أبو الحسن الفاتحة

بصوت أكثر إرتفاعا ثم بدأ يتلو بقية صورة يونس من حيث وقف وأطالى القراءة هذه المرة وكأنه يقول للجند . . . استمعوا لكلام الله خير لكم من أوامر شاور وانتظروا ولو طال بكم الانتظار حتى الغد حتى أنتهى من مقابلة ربى فهو ربى وربكم ورب وزيركم شاور ، إنه أعلى يدا ، وأعز مقاماً ؟

— « هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم احيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم إذاهم يبغون فى الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون . إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون . والله يدعوا الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم : للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . . . »

الله أكبر

وركع أبو الحسن وركع عبد الرحمن وانتهيا من الصلاة

فالتفت أحد الجند وقال :

— يا أبا الحسن هل لك أن تصحبنا فإن الوزير يطلبك

فلبس خفيه ، وقال:

— هيا يا سادة .

ولكن عبد الرحمن التفت لواحد من الجند وقال :

— لاحول ولا قوة إلا بالله . . . هلا انتظرتم قليلا فإن الرجل لم يطعم بعد

فقال أبو الحسن :

— لا ياعبد الرحمن لقد اغتذيت وشبعت . إننى أحس بفيض من السرور يملأ على جوانحى ونفسى فهذه خير صلاة صليتها فى حياتى .. ألست تعلم أن التقوى هى خير زاد للمؤمن . . والله أننى لأحس وكأننى أكلت خروفا الآن . .

وخرج أبو الحسن فأقفل داره وأعطى مفتاحها لعبدالرحمن وقال :

— احتفظ به ياصديق معك فإن كان فى العمر بقية وعدت أخذته منك وإن كان من حظى أن ألقى الله سريعا فوزع مافى الدار على الفقراء . .

فتألم عبد الرحمن وبكى ومد يده لصديقه محييا ، ووقف يرمقه بنظره مودعا وهو يسير بين الجند فلما توارى عن ناظريه أحس كأن قلبه قد إنفطر وأحس فى عقله نشاطا قوياً كأنه صحا من غفوة طويلة فرأى أن يقصد فى الحال إلى القاضى الفاضل فيروى له ما حدث لعله يجد لصديقه مخرجا أو لعله يشفع له عند شاور

بين شاور وأبى الحسن .

كان شاور وحيداً فى غرفته بدار الوزارة يفكر ثائراً كيف يجرأ هذا الرجل الصعلوك — معلم الصبيان — على الاتصال بأسد الدين . . . ويسأل نفسه . . . ترى لماذا كان يذهب هذا الرجل إلى معسكر أسد الدين ، ويقابله فى خيمته الخاصة على انفراد أكثر من مرة ؟

لا بد أنه كان ينقل اليه أخبارنا . . ونظر من النافذة المطلة على القصرين والميدان بينهما . . . ترى ما الذى أخر الجند — أيكون الرجل قد فر فهم يبحثون عنه .

وهكذا كان شاور يضطرب بين أفكاره وقد أقلقه الانتظار وضايقه . وبعد مدة رأى الجند يتقدمون نحو الدار وبينهم شيخ طويل وقور انحنت هامته قليلا يمشى فى تؤدة وهوادة واطمئنان فجلس على أريكة فى صدر الغرفة ينتظر قدومهم . وبعد لحظات دخل أبو الحسن يحرسه الجند الذين قبلوا الأرض بين يدى الوزير وانصرفوا .

وقال أبو الحسن :

— السلام عليك أيها الوزير .

فقال شاور محتداً :

— لا سلم الله عليك ، أيها الرجل الخائن .

فقال أبو الحسن فى هدوئه المعتاد .

— ليست هذه تحية الاسلام أيها الوزير — قال الله سبحانه وتعالى « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » .

— لست أهلا للتحية — أتخوننا وتريد لنا السلام . قل لى أصحيح أنك كنت تزور أسد الدين فى معسكره .

— صحيح .

— وتعترف أيضاً . والله لأذيقنك من العذاب ألواناً . ولماذا كنت تذهب إلى هناك ؟

— كان لى أصدقاء كنت أذهب لزيارتهم .

— ما شاء الله . . رجل عظيم . . صعلوك . معلم صبيان ، له أصدقاء فى جند أسد الدين . . بل أسد الدين نفسه صديقه يقابله فى خيمته على انفراد .

فرفع أبو الحسن رأسه شامخاً بأنفه وقال فى ازدراء :

— أما وقد وصل بنا الحديث إلى هذا الحد فاسمع يا شاور . . لست أنت الذى تقدر الناس حق قدرهم . . . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . . . هذا ميزان الرجال عند الله سبحانه وتعالى . فقل لى من تكون إذن .

فاحتدم شاور غيظاً وتقدم نحو الشيخ أبى الحسن مهدداً وعيناه تنطقان بالشر .

— لقد زدت عن حدك يا شيخ النحس . . . والله لآمرن بقتلك ولتكونن جيفة تنهشها الكلاب .

فضحك أبو الحسن وقال :

— لست أبالى إن أتى الموت كيف أكون ولا أين تلق رفاتى .

— لست تبالى . . . سترى — لأذيقنكم العذاب ألواناً حتى تعرف من شاور .

— أنا أعرفك جيداً يا شاور ، وكل مصرى يعرفك . . وكم من برىء ذاق طعم ذلك ، وكم من مسكين قضيت عليه بظلمك وغدرك أنت هنا فى سياج من القصور والجند والشيعة الذين لا يردون اليك ولا يصدرون عنك إلا وألسنتهم تلهج بآيات حمدك ومدحك . . تخط هذا السياج وأزح عنك هذه الملابس التى تميزك ، وابعد عنك هذا الجند الذى يرهب ويرعب وامش فى الأسواق وتحدث إلى الناس واستمع اليهم تعرف من أنت . . إن أهل مصر يئنون من ظلمك وظلم أهلك وجندك . إنهم ينزلون عليك السخط ليلهم ونهارهم لأنك استنجدت بالفرنج أعداء دينهم وجرأتهم على بلادهم . هؤلاء أهل مصر وهذا أنت ياشاور .

وهكذا أحس أبو الحسن فى نفسه قوة غريبة تنساب فى عروقه فاندفع فى مهاجمة شاور بهذا الكلام الجرىء فكان يهدر كالجمل ويلقى بالجملة بعد الجملة وكأنها السهام تنفذ إلى صدر شاور حتى بهت الرجل وفغر فاه ، ونظر إلى الشيخ مشدوهاً وكلماته تتزاحم فى رأسه وترسم

له صورة من سخط العامة المكبوت ، فلما رآه أبو الحسن صامتاً لا يريم راح يكمل حديثه أكثر عنفاً واستهتاراً من قبل.

— ثم تلومنى لاتصالى بأسد الدين . . . وما جريرة أسد الدين ؟ هل هو كافر من الكفار ؟ هل هو عدو من الأعداء . ؟ . أليس هو الذى سار بجيشه وحارب وضحى بالكثير ليعيدك إلى دست الوزارة فلما عدت اليها غدرت به واستنجدت بأعدائه وأعداء بلادك ودينك ضده . ؟ !

وهنا غلا الدم فى عروق شاور وأحس كأن هذا الشيخ الضعيف يكشف عنه ملابسه قطعة قطعة ، ويظهر سوءاته للناس أجمعين . . . فصرخ فيه صرخة الأسد :

— اسكت . . . اسكت يا أشأم الشيوخ وألعنهم . . . لقد تجرأت على مقامى ومقام الوزارة .

وهم بإشهار سيفه وقال :

— والله لا يسكتك إلا هذا السيف ، يطير بهذه الرأس إلى الجحيم . . إلى سقر . . إلى أسوأ المواطن وشر الأماكن .

وهنا دخل الحاجب يستأذن لكاتب الانشاء القاضى الفاضل ، فأذن له .

ودخل القاضى الفاضل وبيده بعض الأوراق فرأى ما أفزعه ... رأى شاور كالأسد الثائر يرغى ويزبد ، ويشتم ويلعن ، وقد أشهر سيفه فى يده ، وفى آخر الغرفة عند الباب الشيخ أبو الحسن واقف فى وقاره

المعهود ، وهدوئه المألوف وعلى فمه ابتسامة فاترة تنطق بكل معانى الاستخفاف والازدراء والسخرية فعلم أن الأمر جد خطير وقال :

— سيدى الوزير لعلى جئت فى وقت غير مناسب — أو لعلى جئت فى الوقت المناسب . . . هل يتكرم مولاى الوزير فيخبرنى عن سر غضبه .

فقال شاور وصدره لا يزال يعلو ويهبط من أثر الغيظ .

— إن هذا الشيخ اللئيم بلغت منه الوقاحة أن يهاجمنى بكلمات بذيئة فيتهمنى بالظلم والغدر .

فقال القاضى الفاضل :

— هدىء من ثائرتك أيها الوزير . . . إن هذا شيخ كبير وللكبار دالة على الصغار فهم يعتبرونهم كأبنائهم . وقد تكون للسان زلات .

— إنك لم تسمع ما قاله يا عبد الرحيم . . أننى أفكر فى أشر الوسائل لتعذيبه ، فالقتل عقاب هين .

فقال أبو الحسن :

— هل كلمات الحق تغضبك إلى هذا الحد أيها الوزير . . أنا لم أعود لسانى غير الصدق . هل كان جميلا لديك أن أكيل لك المديح أصنافاً وألواناً لأستدر عطفك وأنال عفوك . . . لو كانت لى بغية فى الحياة لفعلت ، غير أنى شيخ عجوز خبرت الحياة ، وذقت عذبها وعلقمها وطعمت خيرها وشرها ، فوجدت أن الخير لا يزور إلا لماماً ، وأن

الشر إذا زار لا يترك المرء إلا حطاماً ، فإن كنت تريد قتلى فقد انقضت حياتى، ولم يبق من العمر قدر ماسلف ولست أحرص على مابقى .

فنظر القاضى الفاضل إلى أبى الحسن كمن يقول له صه ، وقال لشاور

— أيها الوزير العظيم . . أنت أهل لكل مكرمة ، وأبو الحسن لا يريد كما يقول إلا النصح ، وقد تكون الألفاظ خانته ، فهو لم يعتد معاشرة الملوك والوزراء والتحدث اليهم ، فدع هذا الأمر الآن حتى تخف حدة غضبك ، فإنى جئتك فى أمر هام .

— وما هو يا عبد الرحيم ؟

— أنى رسول من ملك الفرنج ، يحمل رسالة مختومة هذه هى .

وقدم ورقة ملفوفة إلى الوزير .

فقال شاور :

— رسالة من ملك الفرنج — ولم لم تخبرنى منذ حضرت .

ونادى الحاجب فقال له :

— خذ هذا الرجل وألق به فى السجن حتى أطلبه .

فخرج أبو الحسن وهو يقول :

« رب السجن أحب إلى مما يدعوننى اليه » .

ونزع شاور الختم وبدأ يقرأ الرسالة فى لهفة وسرعان ما بدت علامات الغضب على وجهه وألقى الرسالة إلى جانبه وقال :

— أرأيت . أرأيت يا عبد الرحيم ... ها هو أسد الدين قد أعد جيشاً جديداً وخرج من دمشق، وسيأتى عن قريب لغزو مصر ومقابلتنا

فى حضرة الخليفة

نسى شاور أباً الحسن منذ قرأ خطاب ملك الفرنجة ، ونسى كل شىء إلا أسد الدين فقد غدا شبحا مخيفا مفزعا يبدوله فى نومه ويقظته لا يفكر إلا فيه وفى جيشه الذى خرج من الشام ليزيحه عن دست الوزارة . عن مجد السلطان ، وعز الملك الذى ناضل من أجله رجالا وجيوشا . . الذى كافح فى سبيله رزيك بن الصالح ، وضرغاما ، وأسد الدين نفسه ، وقد ظن أن أسد الدين قد قنع من الغنيمة بالإياب ، فلم يعد يفكر فى مصر ، ولكن هذا الخطاب جاء مكذبا لظنونه ، مخيبا لآماله ، فراح يفكر فى سبيل ينجيه من هذا المأزق . إن جيشه فى مصر ضعيف لا يصمد أمام أبطال أسد الدين ، إنه يذكر الآن وقد وقف أسد الدين إلى جانبه عند بلبيس ينظر إلى جند ضرغام المحتشد فى كثرة وأسد الدين يعاتبه بقوله :

« لقد أرهقتنا ياشاور ، وغررت بنا ، وقلت إنه ليس فى مصر عساكر فجئنا فى هذه الشرذمة القليلة . »

فقال له وهو الخبير بهؤلاء الجند

« لا يهولنك ما تشاهد فهؤلاء يجمعهم الطبل ، وتفرقهم العصا . »

ولقد شاهد أسد الدين بنفسه صدق هذا القول ، ولهذا طمع فى مصر وأتى إليها ثانية .

تذكر شاور هذا كله فرأى أن لا بد له من التفكير فى طريقة

أخرى غير الاعتماد على جنده . . . فكر فى أن يسعى لصداقة أسد الدين ، ويرسل اليه مالا ، ولكنه رأى بثاقب فكره أن أسد الدين لم ينس له غدره وحنثه بوعده ، وهو إن كان قد قبل الصلح منذ عامين وانسحب من مصر فليس هذا إلا ليعود اليها أكثر استعداداً فلا يمكن إذن أن يقنع بما سيعرض عليه . . ليس أمامه إذن إلا الفرنج فهم حتى الآن أصدقاؤه ، وإن أتوا ونصروه فلا يمكن أن يفكروا فى البقاء فى مصر لأنهم يخافون على بلادهم من نور الدين . ولهذا أرسل إلى مرى يشكره على خطابه ، ويطلب منه النجدة ، ويعده بدفع المال ثمناً لمساعدته .

وفرح مرى بهذا الطلب — فقد كانت هذه بغيته — بل كان هذا عزمه وإن لم يطلبه شاور لأنه كان يخشى دائماً أن تتغلب جند نور الدين على مصر فتكون النتيجة طرد الفرنج من الشام ، وسار بجيشه حتى وصل إلى الفسطاط ، وانضم إلى جيش شاور ، أما أسد الدين فقد خرج من الشام فى نحو الفى جندى ، وعبر صحراء سينا إلى صحراء مصر الشرقية حتى وصل إلى أطفيح ، وهناك عبر بجنده إلى الشاطىء الغربى واتجه بهم شمالا حتى وصل إلى الجيزة ، وعسكر هناك والنيل يفصل بين معسكره وبين معسكر شاور وحلفائه .

ورغب مرى هذه المرة أن يكون للتحالف بينه وبين مصر صبغة رسمية خوفاً من غدر شاور ، فأصر على أن تعقد معاهدة بينه وبين المصريين يوقعها ويحلف عليها الخليفة العاضد نفسه ، ولهذا اختير

قائدان من كبار قواده وصحبهما الوزير شاور بنفسه إلى القصر الكبير وسار الرسولان فى ممرات كثيرة خفية ، واجتازا أبواباً عديدة ، والحراس من أقوياء السودان يحيونهما حتى وصلا بهواً متسعاً غير مسقوف وحوله أقبية مقامة على عمد من الرخام ، ثم تقدما إل مكان ذى سقف مزخرف مرصع بالذهب مزين بأبدع الألوان وكانت تخطف بأبصارهم آيات الجمال الفنى المنبثة فى كل مكان من القصر إذ كانا يمران على تماثيل رائعة للحيوانات المختلفة ، ونافورات منمقة تطرد الماء رذاذاً ليعود سيرته الأولى ، وحولها الطيور الجميلة الريش والأصوات ، والأرض قد صنعت من قطع الفسيفساء الصغيرة وقد اتخذت أشكالا ورسوماً هندسية فائقة الحسن رائعة تسر الناظرين ، وأخيراً انتهى بهما السير إلى غرفة العرش فسمعا الحرس يعلنون قدومهما فى صوت وجلبة قويتين ، ثم تقدم الوزير وخلع سيفه ، وقبل الأرض ثلاث مرات فأسفرت الستائر فجأة وهى تلمع بما يزينها من ذهب ولؤلؤ عن الخليفة فى ملابسه الزاهية الأخاذة ، وهو فتى فى الرابعة عشرة من عمره أسمر اللون فتقدم شاور ، ووصف فى صوت منخفض ما وصلت إليه البلاد من ضعف ، وأشاد بذكر صديقه ملك بيت المقدس العظيم ، وطلب من الخليفة أن يوافق على المعاهدة بينه وبين صديقه على أن يعطيه مائة الف دينار معجلة ومثلها مؤجلة ثمناً لصداقتهم ومساعدتهم ، ومد زعيم الرسولين يده للخليفة دليلا على صدق عهده ، فتردد الخليفة ثم مد يده بعد قليل يغطيها قفاز ، فقال الرسول :

— « مولاى إن الحق لا غطاء له . وإن كل شىء مكشوف فى عهود الأمراء » .

فابتسم الخليفة ابتسامة الغاضب وخلع قفازه ومد يده إلى الرسول، وحلف اليمين أن ينفذ المعاهدة فى صدق وإخلاص .

* * *

وعاد شاور إلى معسكره ومعسكر الفرنجة ، وهو يفرك يديه من الفرح — الخليفة فى يده ، ومصر تحت سلطانه بقرة حلوب تدر عليه المال الذى يساعده على بسط سلطانه ، والتغلب على عدوه ، والفرنجة تحت أمره .. فليأت إذن أسد الدين فلن تكون له الغلبة ، وبينما هو يفكر فى هذا وقد ملك عليه الغرور نفسه وعقله . إذ بأحد الجند يستأذن لرسول من قبل أسد الدين جاء يحمل رسالة لشاور ، فضحك شاور وقال لصديقه مرى ..

— لقد أحسن الرجل بقوتنا دون شك فجاء يطلب صلحا ، ولما نلتق، هات الرسول يا جندى ..

ودخل الرسول فحى ، وقدم الرسالة فأخذها شاور وبدأ يقرأ بصوت منخفض أولا ، ثم رفع صوته ليسمع جلساؤه من قواده وقواد الفرنج .

« وأنا أحلف لك بالله الذى لا إله إلا هو وبكل يمين يثق بها المسلم من أخيه أننى لا أقيم ببلاد مصر ، ولا أعود اليها أبداً ولا أمكن أحداً من التعرض اليها ، ومن عارضك فيها كنت معك إلباً

عليه ، وما أؤمل منك إلا نصر الاسلام فقط ، وقد حصل العدو بهذه البلاد ، والنجدة عنه بعيدة ، وخلاصه عسر ، وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت — عليه ، ونتهز هذه الفرصة التى قد أمكنت ، والغنيمة التى قد كتبت فنستأصل شأفته ونخمد ثائرته وما أظن أنه يعود للإسلام مثل هذه الغنيمة أبداً .

وما أن انتهى من تلاوة الرسالة حتى رماها بعنف إلى الأرض والتفت إلى مرى وقواده وقال :

— ألم أقل لكم ، لقد أحس أسد الدين بضعفه ، والله لنذيقنه الهزيمة . ولنشتتن جيشه .

ثم التفت إلى الرسول وقال :

— إن سيدك لا يدرى « ما هؤلاء الفرنج هؤلاء الفرنج » أما ردى على الرسالة فهو قتلك أولا ، وما سيراه أسد الدين فى الميدان ثانيا .

ونادى واحداً من جنده فجذب الرسول من يديه ، وهو يستغيث ، ولا سميع .

نضـــال

أقام أسد الدين بجيشه فى الجيزة مدة يلتمس أن تواتيه الظروف ليعبر إلى البر الشرقى لمهاجمة الفسطاط والقاهرة، وانضم جيش الفرنج إلى جيش شاور فغدا الجيشان قوه عظيمة لاقبل لأسد الدين بها، وحفر الخنادق حول العاصمتين وحصنت الأسوار وأقيمت الستائر والمجانيق ووسائل الدفاع المختلفة .

وأدرك أسد الدين ما يعترضه من صعوبات ، وأعوزه المال يصرف منه مرتبات الجند ، وكانت المسافة بينه وبين نور الدين فى الشام بعيدة ، فجمع قواده ليستشيرهم ويسألهم النصيحة ، وانتهى به وبهم الرأى أن يرسل ابن أخيه صلاح الدين بجزء من الجيش إلى الأسكندرية وأوصاه أن يستميل عرب البحيرة ليمدوه بالمؤن ، وأن يذهب أسد الدين ببقية الجيش إلى الصعيد يرتاد بلاده ويجمع خراجه والمؤنة لجيشه .

انتهى المسير بأسد الدين وجيشه إلى قوص عاصمة الصعيد فاتخذها مقراً ، وأستطاع أثناء سيره وإقامته أن يسترضى الأهلين ، فانضم إلى جيشه عدد كبير من أهالى الصعيد ، ومن أعراب الصحراء ، وجمعت له المؤن الكثيرة وجبيت له الأموال الوفيرة .

أما مرى فقد أتى هذه المرة وفى نيته الاستيلاء نهائيا على مصر ،

ولهذا أنتهز فرصة تحالفه مع شاور وبث رجاله وعيونه فى الفسطاط وفى أنحاء الصعيد يجوبون الأسواق والقرى يرسمون معالمها ويصورون مداخلها ومخارجها ومساكنها ، ويكتبون أسماء القرى جميعاً ، ومبلغ خراج كل منها . ثم اجتمع بشاور ليتفقا على الخطة التى يجب اتباعها للقضاء على أسد الدين وجيشه ، فاتفقا على أن يتركا جيش الصعيد قليلا ويتجها إلى الاسكندرية لمحاصرتها فإذا انتهيا من القضاء على قوة صلاح الدين كان من اليسير عليهما أن يجهزا على جيش أسدالدين .

وقضى صلاح الدين ثلاثة شهور فى الاسكندرية وهو محاصر بها ، تحاصره قوى شاور ولمرى فى البر وسفن الفرنج فى البحر ، وقاسى الرجل فى الدفاع عنها ، وقدم له القاضى الرشيد بن الزبير متولى ديوانها كل مساعدة ممكنة ، وجاد أهل الاسكندرية بكل غال وعزيز لديهم ، ودافعوا معه عن مدينتهم دفاع الأبطال وهم صامدون لا تلين لهم قناة ، ولا تضعف لهم شوكة ولكنه أيقن فى النهاية أن ليس فى استطاعته رغم هذه المساعدات أن يتغلب على هذه القوى جميعا فأرسل يستنجد بعمه فى الصعيد ، وأدرك أسد الدين حرج الموقف فأسرع بالعودة حتى وصل إلى القاهرة ، وبدأ يحاصرها .

وكان الوقت قد طال بالفرنج وهم يحاصرون الاسكندرية دون طائل ، فبدأوا يتذمرون ، ووصلتهم أخبار وصول أسد الدين إلى القاهرة ، وحصاره لها فخافوا أن يستولى عليها ثم يأتيهم من الجنوب

فيصبحون فى مأزق حرج تحصرهم قوة صلاح الدين من الشمال وقوة أسد الدين من الجنوب ، فرغبوا إلى شاور أن يضع حداً للحرب ، وأن يعقد صلحاً مع أسد الدين ، ولكن شاور كان يرى أن الفرصة مواتية ، وأن أسد الدين خطر عليه وعلى حياته فلا بد أن ينزل به وبجيشه هزيمة نكراء تودى به أو تردعه فلا يعود يفكر فى مصر ، فظل يماطل الفرنج ويراوغهم ويمدهم بالمال كسباً للوقت ، ولكن الملل كان قد بلغ بهم منتهاه ، كما كان الخوف على بلادهم من نور الدين يملك عليهم أفئدتهم ويقض مضاجعهم فلا يحسون طعم الراحة فى إقامتهم فى مصر فاضطر شاور أن يذعن ، وسارت الرسل بين المعسكرين تعرض شروط الصلح وتتناولها بالتعديل والتبديل حتى اتفق الفريقان أن يرحلا عن مصر على أن يقدم شاور لأسد الدين جميع ماغرمه فى هذه الحملة وثلاثين ألف دينار أخرى وأن يقدم ملك الفرنج لصلاح الدين السفن لتحمل الضعفاء من جنده عبر البحر إلى الشام .

أما الفرنج فتركوا حامية منهم فى القاهرة وحرساً على أبوابها وقبل شاور أن يدفع لهم جزية سنوية قدرها مائة ألف دينار .

ولم ينس أسد الدين صديقه أبا الحسن فعلق تنفيذ شروط الصلح وخروجه من مصر على الافراج عنه ، فلما أطلق سراحه وأرسل اليه رحب به وطيب خاطره ، وعرض عليه أن يصحبه إلى الشام فوافق .

وبهذا خرج الجيشان مرة أخرى من مصر وفى نفس قائديهما أمور كثيرة تجول وتصول ـ أما ملك الفرنج فقد زاد علما بمصر بما آتاه به رجاله الذين بثهم فى أنحاء البلاد وأطرافها من معلومات جعلته يفكر فى مصر ويطيل التفكير فهو لم يخرج اليوم إلا ليخرج أسد الدين معه ثم يعود إلى مصر وهى خالية من أية قوة تعارضه ، ولهذا أبقى حاميته وحرسه بالقاهرة لتمده بالأخبار ولتمهد له سبيل العودة القريبة .

أما أسد الدين فلم يكن يتوقع أن يسبقه الفرنج إلى مصر وأن يلقى منهم هذه المقاومة لأنه كتم خبر حملته كتمانا شديدا ولهذا سار إلى مصر فى عدد قليل ـ فى ألفى جندى ـ ولقد لقى هذه المرة من أعدائه مقاومة عنيفة غير أنه لقى من عطف المصريين ومعونتهم فى الصعيد والاسكندرية ما أفعم نفسه سروراً ، وما زاده أملا فى الاستلاء على مصر .

لقد تنقل فى المرة السالفة بين الفسطاط والحوف الشرقى ولكنه ذرع مصر فى هذه المرة وجابها جنوبا وشمالا ورأى من جمالها وخيراتها ما لم ير من قبل وأحس ما يعانيه المصريون أكثر مما أحس فخرج وهو أشد إيمانا بوجوب فتحها وإزاحة شاور عن ملكها فإنه لا يمكن أن يغفر له الاستعانة بالفرنج ضده ولا يمكن أن يغفر له قتله رسوله ورفضه ما عرض عليه من تعاون ضد أعداء الاسلام ، ولكنه لم

يتمكن من إقناع نور الدين بضرورة المسير إلى مصر هذه المرة إلا بعد رأى وتعب — ترى أيرضى مرة أخرى أن يزوده بجيش جديد بعد أن عاد اليه فى المرتين وقد ضحى مالا ورجالا ومصر كما هى لشاور يعبث فيها فسادا .

كان أسد الدين يفكر فى هذا كله وهو على جواده يتقدم جيشه العائد إلى الشام ولكنه آمن والايمان لايعرف المستحيل ... سيسعى جهده وعلى الله التوفيق .

مرى يعود

اتخذ أسد الدين أبا الحسن جليساً له وسميراً فكان يصحبه معه كلما انتقل من مكان إلى مكان وكان يخلو اليه كلما خلا بنفسه بعد غزاة أو نضال ضد الفرنج وكان يرتاح دائما إلى وجوده ويأنس إلى حديثه وأخباره ، وكان أبو الحسن ينتهز كل فرصة فيسهب فى وصف مصر وغناها وما يعانيه أهلها من ظلم شاور وعسفه ويحرض أسدالدين على المسير ثالثة لملكها ، وإنقاذها وإنقاذ أهلها ، وأسد الدين يزداد كل يوم اقتناعا بما يقول أبو الحسن فيخلو بنور الدين ويعيد عليه الرجاء مرات ومرات أن يمده بجيش ثالث ويعده ألا يعود هذه المرة إلا بعد فتحها ، ونور الدين لا يقتنع بقول أسد الدين ويحاول أن يثنى عزمه عن التفكير فيها فيهبه حمص وأعمالها زيادة عما تحت يده من « إقطاعات » ، وشاور قد بث العيون فى الشام تنقل إليه أخبار أسدالدين وأفكاره وكان يرسل إلى نور الدين الهدايا والرسائل يعده بمال يدفعه مسانهة حتى لا يوافق أسد الدين على رغبته

أما ملك الفرنج فكان لا ينى عن التفكير فى مصر فأخذ يزيد فى جيشه وعدده ، والرسائل ترد اليه تباعا من جنده فى مصر تحرضه على العودة فجمع فى صفر سنة ٥٦٤ قواده وأمراء جيشه وكبار رجال الاسبتارية ليستشيرهم فى الرأى فاختلفوا بين محبذ ومعارض ورأى

أن يعرض عليهم مزايا المشروع ومضاره ويبين لهم ما قد يعترض سبيلهم من عقبات ليتأكد من اقتناعهم بفكرته وولائهم له إذا عمل على تنفيذها ، فقال :

« أيها الأمراء — الرأى عندى بعد أن سمعت أقوالكم أن لا نقصد مصر فهى طعمة لنا وأموالها تساق الينا نتقوى بها على نور الدين ، وإن نحن قصدناها نملكها فإن صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها لا يسلمونها الينا ويقاتلوننا دونها ويحملهم الخوف منا على تسليمها لنور الدين ولئن أخذها نور الدين وصار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام »

وما كاد ينتهى من حديثه حتى علت أصوات القواد والأمراء تعارضه فى شدة وقال كبير الاسبتارية :

— أيها الملك : إننا لا نعبأ بمن فى مصر من جنود ، وسيكون لنا النصر عليهم ، أما ما يرد اليك من مال مصر فهو قليل من كثير ولأن تحوز الكثير خير من أن تحوز القليل ، وإن أنت لم تسر لملك مصر ، فوالله لنسيرن نحن إليها قبل أن يقصدها أسد الدين مرة أخرى ،

وأخذ كل أمير يتكلم بدوره فيؤيد هذا الرأى فى حماسة وقوة ففرح مرى وقال :

— والله لأنتم الرجال ، فقد سرنى هذا الشعور ، وهذه الغيرة فى سبيل المسيحية . سأسير بكم قريبا ، وسنملك مصر باسم المسيح وقوته ونفنى هؤلاء (الكفار) ونبيدهم .

وخرج مرى بجيشه الجديد فى عدد وفير وعدة وسلاح ووصلت العيون إلى شاور تعلمه بخبر هـــذه الحملة الجديدة فاضطرب، ولم يكد يصدق ، وجمع أمراءه وقواده ، وأطلعهم على ما وصل اليه وطلب منهم الرأى فيما يفعلون ... ولـكنهم وجموا هذه المرة وسكتوا وطال سكوتهم ، إذ كان كل منهم يفـكر ، ولا يستطيع الكلام ..

كان كل أمير يفـكر فى هذه الويلات التى يجلبها شاور عليهم وعلى مصر ؛ إنهم يعتقدون أن أى جيش خارجى لا بد أن ينتصر عليهم ، فقد أفنت المنازعات المتتابعه قواد جيشهم فلم يعد يستطيع الوقوف وحده ضد أى هجوم أجنبى — وقد اتصلوا بجيش الفرنجة وحاربوا معهم . واتصلوا بجيش أسد الدين وحاربوا ضده ، والجيشان أشجع جنوداً وقواداً ، وأكثر عدة وسلاحا وأمهر حربا ونضـــالا ولقد هاجمهم أسد الدين بالأمس فاستعانوا بالفرنج .. فماذا يفعلون اليوم وقد هاجمهم الفرنجة أصدقاء الأمس — الرأى أن يستعينوا بنور الدين أى بأسد الدين وجيشه — ولـكن هل يقبل شاور هذا الرأى — أنه يرضى بالموت ولا يرضى أن يستعين بأسد الدين ..

فلما طال سكوتهم صاح شاور :

— ما هذا الصمت .. لقد دعوتكم لتساعدونى بآرائكم

فتنحنح الأمير شمس الخلافة وقال :

— وهل نبدى آراءنا فى صراحة ؟

— أجل قولوا كل ما يعن لكم

— إذن الرأى عندى أيها الوزير أن نلجأ إلى نور الدين ..

فصاح شاور كمن لدغته عقرب :

— تعنى أسد الدين . إن وجود هذا الرجل فى مصر معناه موتى . إنه طامع فى ملك مصر ..

فقال شمس الخلافة :

— ومرى هو الذى لا يطمع فيها .. أرأيت الآن صحة رأيى. لقد نصحتك يوم أن أرسل اليك أسد الدين يطلب أن تتحالفا ضد الفرنجة أن تجيبه إلى طلبه ، فقد كان مخلصا فى دعوته فلم توافقنى وفعلت مافعلت.

فغضب شاور لهذا الحديث لكرهه الشديد لأسد الدين، ولكنه كتم غضبه إذ كان يعز شمس الخلافة ويعتمد عليه فى كثير من أزمانه ، وقال :

— لقد كانت بينى وبين الملك مرى صداقة وود ، وفى رأيى أن نرسل اليه رسولا يذكره بهذه العلاقة القديمة ، ويسأله عن غرضه وما يقصد اليه فقد نستطيع أن نصده ببعض المال .

فوافق الحاضرون كارهين ، وخرجوا واجمين ، إذ كانوا يعلمون أن هذا سعى فاشل.

ووصل رسول شاور إلى الداروم حيث وصل مرى بجيشه وقابل الملك ، وبلغه الرسالة، فحدثه مرى حديث الأفعى ، ومازال به يستميله ويغريه حتى قبل الرسول أن يقطعه ثلاث عشرة قرية على أن يقنع

شاور أنه لم يأت إلى مصر معاديا ، غازيا وإنما جاء خادماً ، أو مساعداً كما فعل فى الماضى .

لم يقتنع شاور بهذا الرأى ، ونادى الأمير شمس الخلافة وأنبأه أنه يشك فى إخلاص رسوله إلى مرى ، ورغب إليه أن يسير هو إلى الملك فيسأله عما يريد .

ووصل شمس الخلافة إلى معسكر الفرنج ، ودخل على الملك فرحب به ، وقال :

ـ مرحباً بصديق شمس الخلافة ، وأهلا وسهلا ..

فقال شمس الخلافة :

ـ مرحباً بالملك الغدار ..

ـ لا لست غادراً ياشمس الخلافه ..

ـ إذن لماذا أتيت فى هذا الجيش.

ـ لقد أتيت بقصد الخدمة كالمعتاد، وقبض ما قررتم لى من عطاء.

ـ إننا نحتاج لخدمتك إذا دهمنا عدو ، أمامع خلو البال من الأعداء فلا حاجة لنا اليك ..

فسكت مرى لحظة ، ثم قال :

ـ إن هناك أسبابا أخرى دفعتنى إلى السير اليكم ..

ـ وما هى ..

ـ قد تكون أسبابا سرية .

ـ وهل بيننا من أسرار ـ أبن عنها ، فقد تكون غير صحيحة.

— لقد نمى إلى أن الفقيه عيسى الهكارى سعى بدهائه حتى جمع بينكم وبين بيت بنى أيوب ، فزوج بنت شاور من صلاح الدين ، كما زوج الكامل بن شاور من أخت صلاح الدين .

فضحك شمس الخلافة لغرابة الخبر وقال :

— وهل تظن هذا صحيحاً ؟

— هذا ما بلغنى .

— وهبه صحيحاً فما العلاقة بينه وبين مجيئكم فى هذا الجيش اللجب .

— لو تم هذا الزواج لكان معناه اتفاقكم مع أسد الدين ضدنا ، فكان لا بد لى من اتخاذ الحيطة والحذر .

— أيها الملك ، أنت أول من يعلم مبلغ الكره بين صلاح الدين وعمه ، وبين شاور وأنه من المستحيل أن يتم هذا المشروع — قد تكون هذه فكرة الفقيه عيسى ، ولكن تأكد أن شيئاً من هذا لم يصل إلى علم شاور .

— لقد كان هذا رأيى أيضاً فقلت لمن نقل إلىّ الخبر إن ما بين شاور وأسد الدين من عداء لا يمكن أن يسمح للفقيه بإتمام هذا المشروع

— إذن لا تخفى عنى شيئاً ودع هذه التعلات وأصدقنى القول ، ما الذى دفعك إلى المجىء ؟

— أقول لك الحق ، وأنت صديقى ، إن قوماً من الفرنج وفدوا إلى بلادنا من وراء البحار ، وغلبونا على آرائنا ، وقالوا إنهم أتوا

راغبين فى الخروج إلى مصر وملكها، فخفنا أن يسيروا إليكم فلا يكون لكم قبل بهم ولا تستطيعون ردهم ، وفضلنا أن نحضر بأنفسنا لنتوسط بينكم وبينهم .

— وماذا يطلبون ليعدلوا عن رأيهم ؟

— يطلبون ستمائة الف دينار .

فغضب شمس الخلافة ، وأخذ يلوم شاور فى نفسه لأنه أذاق هؤلاء الفرنج طعم المال ألوفاً ، فراحوا يطلبون المزيد بسبب وبغير سبب ، وعلم فى نفس الوقت أن هذا الحديث الملتوى ينبىء عن كذب الملك الصريح ، وأنه فى الواقع لم يأت إلا طمعاً فى مصر ذاتها ؛ فأراد أن يلجأ إلى أسلوب التهديد عله يوهن من عزم هذا الملك الغادر فقال :

— ولكنك تعلم أيها الملك أن المصريين قد أرهقوا بالمكوس التى تفرض عليهم كل يوم ، فمن أين يأتى اليكم شاور بالمال . تذكركم أتلف ضرغام من ألوف الدنانير حتى اضطر إلى اغتصاب أموال اليتامى قبيل مصرعه مما أدى إلى ثورة العامة ضده ، وتذكركم ألفاً دفع شاور اليك ، وإلى أسد الدين فى المرتين السالفتين . إن أهل مصر لايطيقون دفع أكثر مما دفعوا وإن لصبرهم حداً ، وأخشى إذا طالبهم شاور بمال جديد ليرضيكم أن يثورو ضده وضدكم وهنا ينتهز أسد الدين الفرصة فيأتى إلى مصر ويهاجم نور الدين بلادكم .

ولكن مرى أتى هذه المرة وبيده الوثائق الصحيحة التى زوده بها رجاله وحاميته التى تركها فى القاهرة ، فلم يعر هذا الكلام اهتماماً ، وقال :

— أنا أعلم صدق قولك ونصيحتك يا صديقى ، وقد طلب القوم مبلغاً أكبر من هذا فما زلت بهم أقنعهم حتى جعلوه خمسمائة ألف دينار فأعرض الأمر على صديقنا شاور لعله يجد مخرجا .

— سأفعل ، ولكننى أرجو ألا يتقدم جيشك خطوة أخرى حتى يأتيك الرد .

— سأنتظر إكراماً لك — ولكن أرجو ألا يتأخر الرد .

فاطمـــة

استيقظت فاطمة بنت الأمير شمس الخلافة مبكرة ، ولبثت فى فراشها تتمطى وتتثاءب فى تراخ وكسل ، ثم راحت تفكر فى أشياء كثيرة مختلفة ؛ لقد كانت تنـام من قبل ملأ عينيها فلا تستيقظ إلا وقت الضحى ، ولـكن حالها تغير منذ شهر ، فهى لا تكاد تنام حتى تتزاحم عليها الأحلام بعضها مزعج مفزع ، وبعضها جميل لذيذ ، ثم هى تستيقظ الآن عند الفجر فتلم بهـا الأفكار متشعبة متفرقة ، ولـكنها تجتمع كلهـا حول موضوع واحد ، أو حول شخص واحد . . . مدرسها عبد الرحمن ؛ لقد غدت تفكر فيه كثيراً ، وإنها لتبذل الجهد كل الجهد لتبعد صورته عنها . فترى نفســـها غارقة من جديد فى التفكير فيه .

وقد ظنت أول الأمر أن السبب فى هذا غيـابه عنها بعد أن اعتادت أن تلقاه كل يومين أو ثلاثة ، ولـكن ها قد مضى شهر كامل وهو كاف لأن ينسيها ، ثم هى ترى نفسها تزداد تعلقاً بالتفكير فيه يوماً بعد يوم — إنها تذكره الآن وهو جالس إليها فى المـكتبة بقامته المعتدلة ، ووجهه الأسمر الوسيم ؛ هى تقرأ ، وهو يفسر ، وأغلب ما ينظر إلى الـكتاب فى يده ، وقد تتلاقى عيناه وعيناها ، وهو يشرح لها آية قرآنية ، أو حديثاً نبوياً ، أو حادثاً تاريخياً ، فيسرع ويغض

من بصره فى خجل وحياء ، وما كانت تحس شيئاً غريباً فى كل مرة من هذه المرات ، ولكنها تذكر الآن أن قلبها حفق خفقاناً شديداً ، وأن أطرافها كانت ترتعش وهو ينظر إليها ، ويمد يده محيياً قبيل سفره إلى بلده قوص ، وأن هذا الشعور ليعاودها الآن كلما فكرت فيه ، وكانت تذكر صوته ولهجة حديثه وتستعيد ما كان يزودها به من آراء غريبة تبين عن قوة شخصيته . وسعة تفكيره .

وقد رغبت أن تحدث أحداً من الناس عن هذا الشعور لتستفسره كنهه ومعناه ، ولكنها كانت تتردد كثيراً لأنها لم تجد فيمن حولها من تأتمنه على هذا السر ، إن أباها مشغول بأمور الدولة ، وقد كثر تغيبه عن القصر هذه الأيام ، وزوج أبيها قد تسيء تفسير هذا الشعور ففكرت فى صديقتها ريحانة التى تدرس لها الغناء والموسيقى ، غير أنها كلما همت بالافضاء إليها ترددت ، ثم أجفلت وأعرضت ، وما أن وصل بها التفكير إلى ريحانة حتى تذكرت الأبيات التى أعجبتها بالأمس وهى تقرأ ، فاختارتها ووضعت لها لحناً أخذت تغنيه وترددده إلى ساعة متأخرة من ليلة أمس فقامت من فراشها ، وأمسكت بعودها واحتضنته ، وأخذت تستعيد لحن الأمس وتغنى :

استوحش القلب مذ غبتم فما أنسا ... وأظلم اليوم مذ بنتم فما شمسا
ما طبت نفساً ولا استحسنت بعدكم ... شيئاً نفيساً ولا استعذبت لى نفسا
قلبى وصبرى وغمضى والشباب وما ... ألفتم من نشاطى كله خلسا
لما هدت نار شوقى ضيف طيفكم ... قريته بالكرى إذ زار مقتبسا

ورمت تأنيسه حتى وهبت له إنسان عيني أفديه فما أنسا
أنا الخيال نحولا فالخيال إذا ما زارني كيف يلقى من به التبسا
لهفي على زمن قضيته طرباً إذ لم أكن من صروف الدهر محترسا

ولما وصلت إلى البيت الأخير أحست كأن الشعر شعرها، أو كأنه على الأقل يعبر عن شعورها فراحت تردده، وتعيده، وتفتن فى إخراج ألحانه، فتقصرها، وتمدها، وترفعها، وتخفضها، وترعشها ثم تكسرها فتلحمها، وبدرت منها التفاتة فرأت وجه ريحانة يطل عليها من باب الغرفة مشرقاً مبتسما، تبدو عليه علامات الغبطة والفرح، فخجلت واحمر وجهها، وتركت العود من يدها، وقامت لترحب بضيفتها وقالت:

— أهلا ريحانة — لقد تأخرت بالأمس، ولما لم تأت شغلت نفسى بالقراءة وقد أعجبتنى هذه الأبيات للعماد الكاتب، فوضعت لها هذا اللحن، لعله أعجبك.

فاحتضنتها ريحانة، وقبلتها، وقالت:

— إنه لحن جميل، جميل، جميل.. أعيديه علىّ مرة أخرى.

— ليس إلى هذا الحد، إن هذه محاولة تلميذة.

— لا والله.. إننى أقول الحق لقد تفوقت على.

ثم أطالت النظر إليها تعجب بجمالها، وقد وقفت كالزهرة المتفتحة وزادها الحياء حسناً ورواء، وقالت:

— ولكن ما هذه الهالة الزرقاء حول عينيك — أسهرت طويلا بالأمس.

— كلا، لقد نمت مبكرة، ولكن اعترانى أرق غريب، فلم يزرنى النوم إلا لماماً.

فضحكت ريحانة ضحكة ماكرة وسألتها:

— ألم يعد الشيخ عبد الرحمن من قوص بعد؟

فصبغت الحمرة وجه فاطمة حتى بدت وجنتاها فى لون التفاح الجميل وأطرقت قليلا. وعجبت فى نفسها وتساءلت، ما الذى جعل ريحانة تنقل الحديث مباشرة إلى السؤال عن عبد الرحمن، وتقرن هذا بعدم نومها. لقد فضح الشعر سرها.. ولكنها تمالكت نفسها وأجابت على السؤال حتى لا تزيد فى شكوك ريحانة وقالت:

— لا.. لم يعد.. هدأ الله سره — لقد وصلت أخبار أن أباه مريض فأسرع بالسفر منذ شهر

ثم أرادت أن تنقل الحديث إلى موضوع آخر لتنجو بنفسها من هذا الحرج، فقالت:

— ولكن ما الذى أخرك عن الحضور أمس؟

فتنهدت ريحانة وقالت:

— هيه. لقد أصبحت حياتنا فى يد الأقدار يا فاطمة.. ومن يدرى فقد نقتل، وقد نؤسر، ويتحكم فى حياتنا وأنفسنا وشرفنا الفرنج الكفار.

فذعرت فاطمة ، وقالت:

— قد نقتل ، وقد نؤسر . . وكيف . . ولم . ؟

— كيف . . ولم . . ألم تسمعى بمجىء الفرنج إلى مصر .

أجل . . قد سمعت ، وقد كان لهذا الحادث أثر كبير فى حياتنا .

فقد كثر سفر والدى ، وتغيبه عن القصر ، وقد زاره الوزير شاور بنفسه هنا فى الأسبوع الماضى أكثر من مرة .

فعضت ريحانة نابها وقالت :

— أجل . الوزير شاور إنه رأس البلايا . . إن القصر هـذه الأيام فى هرج ومرج . فالخليفة قلق لا يستقر ، ساخط على شاور ، ورجال القصر ونساؤه يشاركونه هذا السخط ، ولكنهم لا يستطيعون شيئا ؟ فالجيش تحت إمرته ، لقد جرأ هذا الوزير الفرنج واستنجدبهم ضد أسد الدين فى المرتين السالفتين حتى اطلعوا على خفايا البلد وعوراتها ، فأتوا إلينا غازين هذه المرة ، وقد وصلوا إلى بلبيس ، وافتتحوها ، وأسروا معظم أهلها ، وهم يتأهبون للسير إلى القاهرة والفسطاط .

— وماذا فعل شاور ؟

— إن هذا الرجل لازال يركب رأسه فهو يصر على أن يتولى الدفاع عن مصر وحده رغم ضعف جيشه . ولقد علمت أن الأمراء ، وعلى رأسهم أبوك عرضوا عليه أن يستعين بنور الدين فقال لهم إنه يفضل أن يحرق البلد ويحترق معها على أن يفكر فى هذه

الاستعانة ، إنه رجل حقود ، يؤثر هلاك مصر والمصريين على أن يرى عدوه أسد الدين فى مصر .

وكانت فاطمة تستمع إلى ريحانة ، وهى شاردة الذهن تفكر فى حرج الموقف وغرابته ، وتعجب كيف وصلت هذه الأخبار إلى صديقتها ، ولكنها عادت فتذكرت أن لا بد وأن يكون خشترين هو الذى نقل إليها هذه الأخبار لصلته بها ، ثم تذكرت أيضا كيف كان عبد الرحمن يعرض بشاور وأعماله وأخطائه فى كلام ملفوف مستور كلما عرضت مناسبة فى درسه ، وطال بها الصمت والتفكير ، وكانت قد زالت حمرة الحياء ، وعاد إليها لونها الباهت من أثر السهر فخافت ريحانة أن تكون قد أفزعتها بهذا الحديث فتظاهرت بعدم الاهتمام وضحكت ، ثم قالت :

— مالك ساهمة ، شاردة العقل . . فيم تفكرين . . إن الفرنج لا زالوا بعيدين عنا ، والله يساعد من بيدهم الأمر حتى يصدوهم عنا . . هاتى العود وأسمعينى لحنك الجديد ، فإنى مضطرة إلى العودة السريعة اليوم فقالت فاطمه :

— اعفينى الآن ، فإنى أشعر ببعض الضيق ، وسأسمعك إياه المرة الآتية إن شاء الله ، فإنى أكون قد أجدته وجودته .

* * *

خرجت ريحانه ، وتركت فاطمة لتخلو بأفكارها ولكنها لم تلبث قليلا حتى سمعت صوت رجل غريب يدخل غرفة أبيها المجاورة للمكتبة

والخادم يرحب به ويدعوه للانتظار حتى يحضر الأمير ، فنادت الخادم وسألت من يكون الرجل فقال :

— إنه مولانا القاضى الفاضل كاتب ديوان الإنشاء يريد مقابلة مولاى الأمير شمس الخلافة فأخبرته أنه خرج وسيعود بعد قليل فطلب أن ينتظره وقد أجلسته فى غرفة سيدى الأمير .

فعجبت فاطمة ودهشت ، إنها سمعت عن القاضى الفاضل كثيراً ، وخاصة من عبد الرحمن فإنه كان يمتدحه أمامها دائما ، ويثنى عليه حتى لقد قال لها مرة

— إن القاضى الفاضل هو الرجل الوحيد فى هذه الدولة .

ولكن لم يسبق له أن زار أباها فى قصره قبل الآن — ترى ما الذى جاء به . . وبينا هى فى هذا التفكير تبدأ وتعيد إذ سمعت صوت أبيها يدخل غرفته محييا ومرحبا بضيفه فانزوت فى ركن من أركان المكتبة وتظاهرت بالقراءة ، وبدأ الحديث بين الرجلين فقال القاضى الفاضل .

— إنك تعلم أيها الأمير خطورة الموقف الآن . وقد سمعت أنك أشرت على شاور أن يستنجد بنور الدين فأبى ولذلك أتيت أنا الآن أؤيد رأيك وأرجوك أن تتلمس سبيلا آخر لتنفيذ هذا الرأى قبل أن يداهمنا الفرنج فلا نستطيع شيئا .

— لكم أشرت بهذا الرأى على شاور ، ولكنه لا يرضى ، ولا يرضخ ، ويخيل إلى أنه يفضل أن يسلم البلد إلى الفرنج على أن يكتب إلى نور الدين . . . ولست أدرى كيف أقنعه . .

— إن اقناعه من المستحيل فلنحاول ولنسعى سعينا من طريق آخر

— وما هو ياعبد الرحيم ؟

— إنى أرى أن تسعى لإقناع الخليفة نفسه أن يكتب هو إلى نور الدين ليستنجد به

فضحك شمس الخلافة ، وعجب كيف لم يفكر فى هذا من قبل وهو طريق ميسور وقال :

— أجل هذا هو الطريق — إنك دائما حلال المعضلات ياعبد الرحيم . وإننى لأعجب لم لم أفكر أنا فى هذا الحل قبل الآن مع قربه وسهولته .

— إن خطورة الموقف تنسى المرء دائما البسائط وتدفعه إلى التفكير فى البعيد الصعب .

— هذا صحيح . . ولكننى أخشى إن أنا ذهبت لمقابلة الخليفة أن يعلم شاور — ورجاله ينبثون فى كل ركن من أركان القصر — وينقلون إليه كل صغيرة وكبيرة وإذا علم فإنه يسعى لإحباط المشروع

— لقد فكرت فى هذا أيضا ووجدت له الحل

— يبدو لى ياصديق أنك تفكر فى كل شىء وأن لديك لكل مشكلة حلها . ليت لك الأمر — وإن كنت من أرباب القلم — دون هذا الرجل شاور . وما هو هذا الحل؟

— أنت تعلم أن الكامل بن شاور ناقم على الفرنج منذ ذلك الحادث بينه وبين قائد حامية الفرنج فى القاهرة ، ولقد تحدثت إليه فعرفت أنه

يميل إلى الكتابة إلى نور الدين فلو أنك استملته إليك، وأقنعته بصواب هذا الرأى فإنه يستطيع أن ينقله الى الخليفة العاضد دون أن يثير ريبا أو شكا لدى رجال القصر.

— بوركت ياصديق وبارك الله لك فى هذا الرأس المفكر.

وسأبعث فى طلب الكامل فى الحال، بل سأذهب إليه بنفسى وأدعوه لزيارتى لنتحدث فى الأمر هنا فى منزلى، والله يوفقنا جميعا.

الخليفة يستنجد بنور الدين

خرج القاضى الفاضل ، وخرج الأمير شمس الخلافة ، وبقيت فاطمة وحدها فى المكتبة تفكر وقد اتسعت أمامها ميادين التفكير : إن مصر تضطرب بالحوادث فى الخارج فالفرنج فى بلبيس ، وشاور يستعد لصدهم ، ورجال الدولة يتقابلون ويتشاورون عليهم يجدون مخرجاً أو عوناً ، وهى وسائر نساء مصر حبيسات الجدران والقصور كأنهن فى سجن اختيارى لا يدرين من الأمر شيئاً ، ولا يشتركن فى التفكير فى مستقبل البلاد .

ألسن مصريات وهذا وطنهن كما هو وطن رجالهن من آباء وإخوة وأزواج وأبناء ؟ ! ألا يخضعن للهزيمة كما سيخضع لها رجال مصر ؟ . ألن يؤسرن كما يؤسر المصريون إذا تغلب العدو — لا قدر الله — ؟ ! وإذا انتصر المصريون ألا يفرحن لهذا النصر ؟ ! لم إذن يقرن فى البيوت محتجبات كالسائمة لا يفقهن شيئاً ولا يعلمن شيئاً ، ولا يشتركن فى الدفاع عن البلاد بالقدر الذى يستطعن ؟ ! هل فى الدين ما يمنعهن عن القيام بهذا الواجب الشريف ؟ كلا ، إنها تذكر أن مدرسها عبد الرحمن قد حدثها أكثر من مرة عن نساء المسلمين اللاتى كن يخرجن مع جيوش النبى لمحاربة الكفار فيحرضن الجند على القتال ويسقين الماء ويضمدن الجرحى .

وإنها لتذكر أنها كانت تشتعل حماسا وهى تستمع لمثل هذا

الحديث فتتمنى لو أن الزمن تقدم بها فكانت إحدى هؤلاء النساء لتفعل فعلهن ، وتضحى كما ضحين . وإن هذا الشعور نفسه ليعاودها الآن فتحس أن كل جزء من جسمها يناديها للحركة والعمل . . عمل أى شىء تستطيعه لتساهم فى الدفاع عن وطنها مصر ، وعن دينها الاسلام ضد هذا العدو المغير . ولكن كيف يتاح لها هذا وهى لا تغادر القصر إلا محجبة مرات معدودات فى السنة للنزهة فى حدائق الروضة أو فى حراقة أبيها الخاصة يوم الاحتفال بوفاء النيل ؟

فكرت فاطمة فى هذا طويلا ، وشعورها القوى ، وأملها الجامح يدفعانها ، والحقيقة الواقعة المؤلمة تردها . وإذا بأحد الخدم يدخل فيقول :

— الشيخ عبد الرحمن حضر ويريد مقابلة مولاتى .

فأحست فاطمة بالفرح الشديد يغمرها ، وأخذ قلبها ينبض فى سرعة غريبة ، وأخذت تنظر إلى الخادم مشدوهة مدة طويلة وهى لا تكاد تصدق ما يقول ، ثم نهضت واقفة وقالت :

— وأين هو ؟

— فى المنظرة تحت .

— أدعه إلى هنا ، وسأذهب لأغير ملابسى وأوافيه .

وخرجت فاطمة إلى غرفتها وظلت تقلب ملابسها وهى حيرى : أيها تختار ، وأطرافها باردة ترتعد لاتكاد تمسك ثوبا حتى يسقط منها ، وأخيراً انتقت ثوباً أبيض بسيطا ، وارتدت فوقه قباءاً واسعاً ذا أكمام طويلة أخضر اللون مزركشاً بالذهب مطرز الأطراف

باللون الأبيض وتناولت منديلا من نفس القماش واللون فتلثمت به، ونظرت إلى المرآة، وأطالت النظر ثم ذهبت إلى المكتبة فلم تكد ترى عبد الرحمن حتى اندفع الدم إلى وجهها فصبغه بحمرة فى لون الخمر جميلة، وأطرقت إلى الأرض حياء، ثم مدت يدها اليه تحييه وهى تقول:

— حمداً لله على السلامة، كيف قوص، وكيف صحة السيد الوالد؟

— أحمد الله وأشكره، كانت قد أصابته حمى وعانى منها كثيراً، ولكنه قارب الشفاء الآن.

— الحمد لله، أكمل الله له الشفاء، ورزقه الصحة والعافية التامة.

وسكتت وسكت عبد الرحمن وهو ينظر إليها ويعجب بجمال وجهها المستطيل ذى العينين السوداوين والأنف الدقيق، والفم الصغير، والطرحة الخضراء تحيط به كما تحيط الهالة بالقمر، ثم قال:

— لقد وجدت أمامى هنا هذه الكراسة فقلبتها فإذا بها أبيات من الشعر رائعة تدل على ذوق جميل وحسن اختيار.

فأفرح هذا التقريظ فاطمة وقالت تجيبه:

— لقد شغلت نفسى أثناء غياب سيدى الأستاذ بقراءة بعض الدواوين، وكنت أختار مايعجبنى من الشعر فأدونه فى هذه الكراسة.

— ولكننى لاحظت أن كراستك تحوى نوعين من الشعر فقط: الشعر الذى يتحدث عن مصر، والشعر الذى يتحدث عن القلب... مما دلنى على أنك كنت ملهمة فى اختيارك.

— إننى لم أضع لنفسى خطة معينه عند الاختيار، ولكن هذا

أمر طبيعى ، فمن من الناس يحيا بلا وطن ، ومن من الناس يحيا بلا قلب ؟!

وهنا سمع المدرس وتلميذته صوت الأمير شمس الخلافة يدخل غرفته المجاورة ومعه ضيف فقال عبد الرحمن :

— هذا صوت الأمير — ألا اذهب لأسلم عليه ؟

فقالت فاطمة فى همس :

— لا ، بل أبق قليلا فإنى أظنه مشغولا مع ضيفه فى أمر هام ، ولا ترفع صوتك لئلا يسمعنا .

— إذن اسمحى لى أن أنتظر فى المنظرة تحت فإننا نسمع حديثهما واضحاً جلياً .

— بل إنى أريدك أن تسمعه فهو حديث يهمك .

— ولكن هذا ليس من الخلق الطيب فقد لا يريد الامير أن نسمع حديثه .

— إن الامر لكما تقول ، ولكن هذا الحديث يتعلق بمستقبل البلد ، وواجب عليك كمصرى أن تعرفه وإنى لا أخشى أن تنقله إلى أحد فانك يا سيدى خير من يؤتمن على الاسرار .

فقال عبد الرحمن فى دهشة :

— ما هذا ؟! إن هذا صوت الكامل بن شاور .

— نعم إنه هو . . استمع الآن للحديث .

وهنا سمعا الأمير شمس الخلافة يقول لضيفه :

— يا كامل : إن عندى أمرا لا يمكننى أن أفضى إليك به إلا إذا أقسمت أنك لا تطلع أباك عليه .

— أقسم بالله أن لا أفضى إليه به . قل — ما هو .

— أنت تعلم أن أباك عقد النية على الصبر والمكافحة وحده ضد الفرنج ، وأنت تعلم أيضاً أنه لا يقوى على هذا الكفاح ويبدو إلىّ أنه سيسلم البلد أخيراً للأعداء ، ولا يكاتب نور الدين .

— أعلم هذا .

— وأظنك تدرك معى أن هذا رأى خاطىء .

— أوافقك .

— إذن لا مخرج لنا إلا الكتابة إلى نور الدين ، ولهذا أرجو أن تذهب بنفسك إلى الخليفة فتطلب منه أن يكتب هو إلى نور الدين يطلب النجدة .

أطرق الكامل طويلا ، وأنشأ يفكر ، وتنازعته عواطف كثيرة ، واحتدمت المعركة فى نفسه ، إن هذا الذى يطلبه شمس الخلافة يوافق هوى فى نفسه ، فهو يؤمن معه بخطر الفرنج على البلد ، وهو يؤمن معه أن جيش أبيه قد لا يصمد طويلا أمام جيش الفرنج ، فإذا انهزم كان لهزيمته نتائج جد خطيرة ، وضاعت مصر حصن الإسلام القوى ، وانتقلت إلى أيدى الفرنج ، ولكنه يعلم فى نفس الوقت أن أباه يكره أسد الدين كرها شديداً ، ويأبى كل الإباء أن يستعين بنور الدين ، لأنه أدرك تماما — من التجربتين السابقتين — أن أسد الدين يطمع فى

ملك مصر ، وأنه إذا أتى هذه المرة وجد تعضيدا من المصريين وترحيبا من الخليفة ، وتأييدا من رجال الدولة.

وإذا أتى أسد الدين وملك مصر ، أليس فى هذا نهاية لدولة أبيه وضياع لمجده ومجد أسرته ؟ وماذا يكون مصير أبيه ومصير أسرته ، بل ومصيره هو ؟ أقرب الظن أن يكون مصيرهم جميعاً الأسر إن لم يكن القتل فإن أسد الدين لا يمكن أن يكون قد نسى لأبيه غدره المتكرر وحنثه فى وعوده .

جالت كل هذه الأفكار بخاطر الكامل ، وقامت فى نفسه ثورة عنيفة ، أيقبل ما عرضه عليه شمس الخلافة ويشترك معه فى تنفيذ خطته فيكون فى هذا خيانة لأبيه وأسرته وقضاء على مجدهما ومجده وإن كان يؤدى بذلك خدمة لمصر وللإسلام ، أم يعتذر ويترك الأمور تجرى فى أعنتها فيكون بذلك وفيا لأبيه ؟ أيهما أحق أن يتبع ، وأيهما أحق أن يفوز بولائه ووفائه .؟!

طال بالكامل التفكير ولج به الألم واشتد به الحرج ، ولكنه كان رجلا مؤمنا شديد الإيمان فآثر أن يوافق شمس الخلافة على رأيه ، راجيا أن يقدر له أسد الدين سعيه هذا إذا جاء فيعفو عن أبيه ، ولم يشأ أن يفضى لمحدثه بما جاش فى نفسه ، وإنما رفع رأسه بعد قليل وقال :

— إن أبى يخشى أن يملك أسد الدين مصر إذا حضر هذه المرة ، ولكننى أفضل أن يملك البلد المسلمون على أن يملكها الفرنج .. سأذهب

أيها الأمير ، وفى يقينى أن الخليفة سيرحب بهذا الرأى فهو أشد كرها للفرنج منا . . . ولكن . .

— ولكن ماذا ؟

— من الذى سيحمل الكتب إلى الشام ؟ !

سمعت فاطمة هذا الحديث كما سمعه عبد الرحمن ، أما هى فكانت تعلم مقدماته فلم تعجب له ، أما عبد الرحمن فقد أخذته الدهشة فكان يتابع الحديث بجميع حواسه ، ولم يكد يسمع هذا السؤال الاخير حتى وقف ونظر إلى فاطمة ، وهمّ بالكلام غير أن فاطمة سبقته فقالت :

— لقد كنت أذكر قبل حضورك كلامك عن نساء المسلمين فى عهد النبى ، وما كن يؤدينه من خدمات فى الحروب وكنت أتمنى أن تتاح لى فرصة أؤدى فيها خدمة لدينى فى هذه الظروف العصيبة ، وهذا أبى يريد من يحمل رسالة الخليفة إلى نور الدين ، وكم أتمنى لو كنت أنا هذا الرسول فإنى أجيد ركوب الخيل ويمكننى أن اتنكر فى زى شاب.

فضحك عبد الرحمن معجبا بهذه الروح الوثابة وقال :

— بارك الله فيك وفى هذه الروح القوية ، ليت كل نساء المسلمين كن فاطمة ، إننى أفخر بك الآن . . ولكن هذه رحلة طويلة شاقة ، ولقد هممت إذ وقفت الآن أن أذهب أنا للأمير فأعرض عليه نفسى لأكون رسوله إلى الشام . . أتأذنين لى . . ؟ ؟

وتركها وطرق باب الغرفة المجاورة ودخل محييا ، فدهش الأمير شمس الخلافة وقال :

— أهلا . . . بالشيخ عبد الرحمن ، متى وصلت ؟ حمداً لله على السلامة ، وكيف صحة الوالد ؟

فقال عبد الرحمن :

— شكراً جزيلا أيها الأمير ، والحمد لله فقد منّ على والدى بالشفاء بعد أن قاسى آلام الحمى مدة ليست بالقصيرة ، ولكن ليغفر لى سيدى الأمير جرأتى فإنى أعتقد أننى جئت فى وقت غير مناسب ؛ وليغفر لى جرأتى مرة ثانية لأننى تطفلت فسمعت حديثكما الآن وأنا فى المكتبة وقد جئت أعرض نفسى على سيدى الأمير لأكون حامل رسالة الخليفة إلى نور الدين .

فعجب الكامل ونظر إلى هذا الشيخ الجرىء ، ونظر إلى شمس الخلافة مستفهماً فقال شمس الخلافة .

— هذا الشيخ عبد الرحمن معلم ابنتى فاطمة وهو من أفاضل الناس علماً وديناً وشهامة وها أنت ذا تراه يقدم نفسه لهذه السفارة الخطيرة فى الوقت الذى يتردد فيه كبار رجال الجيش عن القيام بها لو سألتهم ذلك .

ثم التفت إلى عبد الرحمن وقال :

— إننى أثق بك يا شيخ عبد الرحمن ، وأعلم مبلغ إخلاصك ، وستكون سفيرنا إلى نور الدين إن لم نجد سفيراً .

وذهب الكامل بن شاور فى اليوم التالى إلى القصر الكبير وطلب الإذن لمقابلة الخليفة فلما مثل بين يديه خلع سيفه وقبل الأرض ثلاثاً

ثم أفضى اليه برغبته فوجد منه أذناً صاغية ، ولكنه تردد قليلا قبل أن يعلن موافقته فقد تسرب الشك إلى نفسه ، وأخذ يتساءل : أحق ما يقول الكامل ؟ أجاد هو فى عرضه ؟ ألا يمكن أن تكون هذه خدعة من شاور أراد بها أن يتعرف رأيه فيه ، وحقيقة ميوله نحو أسد الدين ؟ لقد كان من الممكن أن يتقدم اليه بهذا الاقتراح أى رجل من رجالات الدولة غير الكامل بن شاور أما أن يتقدم هو فهذا أمر يثير الشكوك .

لقد كانت هذه رغبته ، ولقد بات ليلته يفكر فيها ويلتمس السبيل إلى تنفيذها وخاصة بعد أن أحس نساء القصر معه بالحيرة والقلق ، وبعد أن شاهد فى أعينهن علائم الألم المكبوت وصور الاستغاثة الصامتة كلما تحدث اليهن ، غير أن حرصه وشكه دفعاه إلى إنكار هذا الاقتراح أولا ليعرف مبلغ صدق محدثه ، فنظر إلى الكامل نظرة طويلة ثم قال :

— قد يكون لهذا الاقتراح وجاهته ، بل لعله الحل العملى الوحيد ، ولكننى لا أستطيع الموافقة عليه ، فأنت تعلم أن دولتنا قامت لتدعو إلى المذهب الشيعى وتدافع عنه ، وقد بذل جدودى الجهود المضنية فى هذا السبيل فهل أتقدم أنا الآن إلى الاستعانة بنور الدين وهو رجل سنى مغال فى سنيته يدين بالولاء لمنافسى الخليفة العباسى . إن معنى هذا زوال مذهبنا بل ودولتنا .

وسكت العاضد قليلا ثم تنهد طويلا وقال يخاطب نفسه — رباه

هل قدر لى أن أهدم بيدى ما بناه أبناء فاطمة فى هذه القرون الطويلة؟

وأدرك الكامل صدق دعواه وحرج موقفه، فإنه كان يعانى نفس الحرج والضيق — وإن اختلفت الأسباب .. ولكنه أراد أن يقنعه بصواب رأيه فقال :

— إن مولاى أمير المؤمنين مسلم قبل أن يكون شيعيا وإنه ليعلم أن الفرنج قد قدموا هذه المرة فى عدة وعتاد لا قبل لنا بهما ، فهل يؤثر أن تنتقل مصر إلى أيدى المسيحيين محافظة على المذهب وهل يحافظ المسيحيون على المذهب إذا هم ملكوا مصر ؟ أما أسد الدين فقائد من قواد الإسلام ، فهو إن انتصر كان فى نصره العزة والمجد للإسلام ، ولا أظن أنه يسعى لتغيير المذهب ، ثم إنكم يامولاى تستطيعون أن تصطنعوه وتقربوه إليكم بشىء من المال والجاه .

عجب العاضد من هذا الحماس وهذا الصدق يشيعان فى حديث الكامل فأراد أن يتأكد من إخلاصه ، فسأله :

— وهل حدثت أباك فى هذا الموضوع ؟

— لا يا مولاى ، فأنا أعلم مبلغ الكره الذى بينه وبين أسد الدين وأنه يرى الاتفاق مع الفرنج خيراً من الاستنجاد بنور الدين .

فاشتد العجب بالخليفة وسأل الكامل مرة ثانيه .

— ألا ترى أن فى انتصار أسد الدين . . لو قدم . خطرا على أبيك .

فأجاب الكامل بقوله :

— مولاى — لقد فكرت فى هذا الأمر طويلا ، وترددت فى الإقدام كثيراً ، وعانيت من نزاع نفسى وثورتها الشىء الكثير ولكننى فضلت فى النهاية سلامة الإسلام والدولة على سلامة أبى ، ومن يدرى فقد نستطيع فى المستقبل أن نزيل ما بين أبى وبين أسد الدين من أسباب العداء .

عند ذلك أدرك العاضد صدق محدثه وإخلاصه ، وأكبر فيه هذه الروح الطيبة ، فأعلن اليه موافقته ، ولكنه عاد يسائله :

— ولكن ، أترى نور الدين يلبى نداءنا ، ويغيث لهفتنا ؟

— على المرء أن يسعى يا مولاى ، وليس عليه تحقيق الأمل .

— صدقت — على المرء أن يسعى ، وليس عليه تحقيق الأمل . سأنادى القاضى الفاضل ليكتب الخطاب ، والله أسأل أن يكتب لنا التوفيق .

واستأذن الكامل وخرج ، وترك الخليفة الشاب فى لجة من أحزانه ، وغمرة من آلامه ، يستعيد فى نفسه هذا الحديث ، ويدرس الموقف وملابساته ، لقد قرأ تاريخ أجداده ، ورأى فى هذا التاريخ صفحات المجد واضحة جلية ، إنه ليذكر الآن ما قرأه عن حياة جده الأعلى مؤسس الأسرة عبيد الله المهدى ، وإنه ليستعيد أمام ناظريه صور النضال القوى الذى خاض غماره حتى استطاع أن يضع أول لبنة فى هذا الصرح المشيد ، فلما نجح وأقام دولته فى المغرب لم يهدأ له بال حتى أسس لدولته عاصمة جديدة — هى المهدية — وأفتن فى

تحصينها فأحاطها بالأسوار القوية والقلاع المتينة ، فلما تم له ذلك قال قولته المأثورة : « الآن آمنت على الفاطميات » — أجل الفاطميات ، بناته وزوجاته ونساء أسرته ، إن من خلق العربى أن يفتخر دائماً بحمايته لوطنه وحريمه . وقد ورث هو ملك الفاطميين ، وفى حماه الآن فاطميات يهددهن خطر داهم — انه خطر مسيحى ، ومن واجبه أن يحميهن ويدافع عنهن ، ولكن هذا الرجل شاور يملك قوى البلد فليس أمامه إذن إلا أن يستنجد بنور الدين ، ولعله يستطيع أن يضرب شاور بأسد الدين ، فإذا تخلص منه أمكنه — كما يقول الكامل أن يصطنع أسد الدين ويقربه إليه .

وقد يستطيع أن يغريه حتى ينقلب داعية لدولته ويحارب به نور الدين والخليفة العباسى ، إن فى تاريخ أسلافه سابقة مشابهة ، فقد استطاع الخليفة المستنصر الفاطمى أن يستميل اليه البساسيرى أحد قواد العباسيين بالمال والعطاء حتى انقلب الرجل داعية له ، ودخل بغداد عاصمة العباسيين وخطب له فيها .

وهكذا انفسحت الآمال أمامه ، وهدأت فى نفسه ثورة النزاع فنادى قهرمانة القصر وطلب اليها أن تأتيه بذوائب من شعور نسائه .

وأرسل فاستدعى القاضى الفاضل ، وأمره فكتب له الرسائل إلى نورالدين بأسلوبه البليغ ، وسخم أعالها بالمداد الأسود ، ثم أخرج العاضد ذوائب الشعر ونظر اليها قليلاً ، ولبث لحظة يحاول أن يمد يده بها إلى الفاضل ثم يحجم ، وتندت عيناه بالدموع ، ولكنه أسرع فقدمها إليه ، وهو يقول :

— خذ يا عبد الرحيم هذه فارفقها بالرسائل ، هكذا أراد الله ولا راد لقضائه .

وحمل القاضى الفاضل الرسائل إلى شمس الخلافة فى داره ؛ واتفق الرجلان على أن يكون عبد الرحمن هو رسولهما إلى نور الدين .

وكان عبد الرحمن فى المكتبة مع تلميذته فاطمة فناداه الأمير شمس الخلافة وقال :

يا شيخ عبد الرحمن ، إننى لا أشك فى إخلاصك لوطنك ودينك ولهذا وافقت على أن تكون أنت حامل الرسائل إلى نور الدين ، وهذه هى ، ولكنك تعرف جيداً أن مستقبل هذا البلد وأهليه يتوقف على نجاحك ووصول هذه الكتب إلى نور الدين نفسه فكن حريصاً عليها حرصك على حياتك .

— لا تخف أيها الأمير . . . سأجعلها فى ثنايا قميصى اللاصق بجسمى ، وسأصونها من أى معتد إلى أن أسلمها لنور الدين بيدى ، والله يوفقنا جميعا لما فيه خير مصر والاسلام .

فقال شمس الخلافة :

— سر على بركة الله ، وسأخرج أنا على جوادى إلى صحراء عين شمس وانتظرك حتى توافينى فأعطيك الجواد لتبدأ رحلتك محروسا بعناية الله ورعايته .

حريق الفسطاط

كان شاور يعتقد أنه يستطيع أن يخرج الفرنج من مصر وحده إذ كان يطمع أن يغرى ملكهم بالمال فأرسل جباته وجهابذته إلى الأقاليم يجمعون المال من الفلاحين والتجار ، واستعمل هؤلاء كل صنوف القسوة وألوان العذاب حتى سخط الشعب عليهم وعلى شاور غير أن مُرى لم تخدعه رسائل شاور المتتابعة ، ووعوده المتتالية فتقدم بجيشه ، وعسكر عند بركة الحبش قبلى الفسطاط ، واتخذ الأهبة لمهاجمة العاصمتين : القديمة والجديدة . فذعر شاور وقرر أن يحرق الفسطاط بما فيها كى لا يملكها العدو ، فأرسل المنادين يجوبون خططها وحواريها وأزقتها ينذرون سكانها كى يحملوا متاعهم ويسرعوا بإخلائها .

ارتاع سكان الفسطاط وبلغ الذعر فى نفوسهم أقصاه فكان كل منهم يحمل ماخف وزنه ، وغلا ثمنه ، ويحاول أن يفر بنفسه وأولاده وزاد الاقبال على الدواب لحمل الناس والمتاع حتى بلغت أجرة الحمل إلى القاهرة ثلاثين ديناراً ، وتشتت الناس أيدى سبا فرحل البعض إلى القاهرة والبعض إلى الصعيد أو إلى مدن الدلتا وقراها وهم يبكون مساكنهم ومتاعهم ومدينتهم الجميلة بأسواقها ومساجدها ، الغنية بتجارتها وصناعتها ، العظيمة بآثارها ودور علمها .

وفى اليوم التاسع من صفر سنة ٤٦٥ فرق شاور رجاله ومعهم

عشرون ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل ، فأشعلوا النار فى جميع أنحاء المدينة .

ووقف شاور على جبل المقطم يرقب مدينة عمرو بن العاص العظيمة وهى تحترق والنار تأكلها وتأكل معها تراثا جليلا ظل المصريون يقيمون صرحه ويشيدون أركانه ويبنون عمده خمسة قرون ونصف قرن ، وكان كل لسان من ألسنة النيران يتصاعد مترنحاً ويندلع فى صوت صارخ أجش يبكى المدينة الجميلة ويلعن شاور .

وفى الوقت نفسه كان الفقيه زين الدين المصرى يقف إلى جانب القاضى الفاضل فى داره التى هاجر إليها بالقاهرة ليشرفا من إحدى النوافذ على هذه المدينة الاثيرة لديهما ، العزيزة إلى نفسيهما ، ويبكيان فيها أوقاتاً جميله قضياها فى المسجد الجامع ، أو فى داريهما ، أو دور أصحابهما ، وينقمان على هذا الرجل شاور فعلته النكراء ، ويرثيان لسكان المدينة ، ويأسفان لما حل بهم من ذعر وخوف وضياع أنفس وأموال ؛ وكان الرجلان يدعوان الله مخلصين له الدعاء بقلبين عامرين بالايمان أن يدفع عن أهل مصر هذا البلاء ، ويغيثهم برحمة من عنده ، ولم يلبثا أن وجدا شوارع القاهرة تزدحم بالفقراء من الناس وقد علا عويلهم واشتد بكاؤهم . . فقال القاضى الفاضل : — لا حول ولا قوة إلا بالله . . لا حول ولا قوة إلا بالله .

أنظر . . أنظر يازين الدين .

ثم غطى عينيه بيده لئلا يرى ، ونظر زين الدين فرأى فقراء

الفسطاط ومعوزيها الذين لم يجدوا أجر الدابة التى تحملهم ، وقد طاردتهم النار فلجأوا إلى القاهرة يتدافعون بالمناكب فى حال تبكى أقسى القلوب وأغلظها . . فهذا شاب مسكين يحمل أباه المريض على ظهره ، وخلفه زوجه وأولاده يتعلقون بأذياله ؛ وهذه صبية شاردة تبكى وتصرخ صراخاً يقطع نياط القلوب تنادى أمها ولا مجيب ؛ وهذه امرأة ضعيفة لا رجل لها تحمل طفلها الرضيع ويتبعها ولدان وطفلة ، وخلفها عجوز تحمل حصيراً بالية وقلة ماء هما كل ما تملك من حطام الدنيا ، وهى تتعثر فى مشيتها تكبو ثم تقف لتكبو ثانية . والجميع يتزاحمون ويتدافعون لايجدون دوراً تؤويهم أو رجلا يطعمهم

رأى زين الدين هذا كله فترك النافذة وهو يقول :

— اللهم الطف بعبادك ، وأغثهم برحمتك .

وخرج القاضى الفاضل فدعى جماعة من هؤلاء اللاجئين إلى داره وأعطاهم بعض الطعام ، وترك صديقه زين الدين ليعنى بأمرهم ، وخرج على بغلته فالتف الناس حوله وهم يصرخون ويولولون ويطلبون منه العون والنجدة فطيب خاطرهم ووعدهم أنه سيسعى لدى الخليفة والأمراء ليوجدوا لهم مأوى وطعاماً ، فصاحوا جميعاً يحيونه ويدعون له ، وتقدم شابان عن الجميع فأخذا بزمام البغلة يشقان للقاضى الطريق وسط الزحام الشديد إلى أن وصل إلى قصر الخليفة فطلب الاذن ودخل فقال :

— يا أمير المؤمنين . . . لقد مس شعبك الضر والجوع بعد أن أشعل الوزير شاور النار فى الفسطاط ، وهاهم سكان المدينة الفقراء يملأون شوارع القاهرة وأزقتها لا تكاد تغطيهم الملابس البالية ، ولا يكاد يمسك جوعهم شىء وهم يئنون ويبكون ويضجون بالعويل والصراخ . . . وأنتم يا مولاى ملاذ الجميع وكهفهم ونصيرهم فجد لهم بما يطعمهم من جوع ، وما يكسيهم من عرى . وهؤلاء أمراء الدولة قد امتلأت خزائنهم بالمال والطعام فليأمرهم مولاى أمير المؤمنين أن يفسحوا لهؤلاء اللاجئين الضالين أمكنة فى دورهم ، ويعنوا بأمورهم . أغثنا يا مولاى من هذا الفزع الأكبر . . أغثنا .

فتأثر الخليفة العاضد ، وتندت عيناه بالدموع ، ولا غرو فهو شاب فى السابعة عشرة من عمره ، ألقيت اليه مقاليد الأمور فى بلد تعقدت أمورها ، فهاجمها العدو واستبد بها رجل لا يسعى إلا لمجده وإن جاع الناس واحترقت البلد . ومسح الخليفة الدموع من عينيه وقال :

— أيها القاضى ، مر المشرفين على مطبخ القصر أن يوزعوا ما عندهم من طعام على هؤلاء المساكين ، وسأدعو الأمراء الآن وأحثهم على العناية باللاجئين وإيوائهم وإطعامهم . . والله يقوينا على فعل الخير ، ويؤيدنا بروح من عنده ، وينقذنا من هذا الشر الذى يحيط بنا من كل مكان .

وذهب القاضى الفاضل إلى مطبخ القصر فجمع ما به من طعام وحمله مع الحاملين ، وخرج لتوزيعه على أولئك الفقراء المساكين فتكالبوا عليه وعلى من معه يتدافعون ويخطفون ما يقدم اليهم ، ويضجون فرحاً وسروراً ، ويهتفون فى صوت واحد .

— حفظ الله سيدنا القاضى ـ نصر الله مولانا القاضى ، فتركهم وأخذ يشق طريقه إلى منزله ، وعيونه تملأها العبرات وهو يناجى ربه فى سريرته أن يغيث هذا الشعب المسكين وينقذه من أيدى ظالميه وأعدائه .

صلاح الدين يخرج الى مصر كارها

ظل أسد الدين مدة بعد عودته من مصر يطلب من نور الدين أن يزوده بجيش جديد ليعود إليها فيملكها ، ونور الدين يزهده فيها ، ويزيد فى إقطاعه ليرده عنها ، فلما لم يجد فائدة من الرجاء ذهب إلى إقطاعه حمص فى شمال الشام ومعه أبو الحسن الذى لم ينِ عن قصده لحظة ، فكان لا يفتأ يذكر صديقه أسد الدين بمصر ، وبما يقاسيه أهليها من مكروه .

وكان نور الدين وقتذاك فى حلب يخرج للغزو والجهاد ثم يعود إليها ، وهناك وصلته الأخبار بمسير الفرنج إلى مصر فندم أن لم يوافق أسد الدين على رأيه ، وأخذ يعيد التفكير فى مصر من جديد ، ويستشير قواد جيشه علّه يصل إلى رأى أخير يطمئن إليه .

وفى أحد أيام ربيع الأول كان نور الدين يجلس فى قلعة حلب ، ومعه خاصته ورجال دولته يعرض عليهم ما وصله من أخبار مصر فدخل أحد الجند يطلب الإذن لرجل غريب يريد المقابلة .

وكان القادم الشيخ عبد الرحمن فحى الملك العادل وقال :

— لقد جئت من مصر أحمل رسالة الخليفة العاضد إلى مولانا الملك العادل نور الدين فذهبت إلى دمشق ولكننى علمت بوجود مولاى فى حلب فجئت إليها مسرعا .

فقال نور الدين :

ـ وكيف حال مصر ؟ لعلها فى خير فإنا فى هم شديد من أجلها .

ـ إن مصر يا مولاى فى كرب وبلاء فتداركها بالنجدة قبل أن يملكها الفرنج .

ـ وأين وصل الفرنج الآن ؟

ـ خرجت من مصر وهم على أبواب الفسطاط .

فصاح نور الدين غاضباً وقال فى لهجة النادم :

ـ على أبواب الفسطاط ؟ لقد تهاوننا ونسينا حق المسلمين علينا . . أين الرسائل أيها الشيخ ؟

فمد عبد الرحمن يده إلى القميص الداخلى ، وأخذ يفتق بعض أجزائه ، ثم أخرج الكتب من بين ثنايا القميص ، وناولها لنور الدين ففضها وإذا بذوائب الشعر تتساقط من طياتها فالتقطها عبد الرحمن ، وقدمها إليه ، وبدأ نور الدين يقرأ ، والقواد حوله يرقبون حركاته وينظرون إلى وجهه ، وعلائم الغضب والسخط والحمية تتابع على محياه واضحة قوية ؛ وما إن انتهى من القراءة حتى تندت عيناه بالدموع ونظر إلى خصل الشعر فى يده ، وأخذ يردد بعض كلمات وردت فى خطاب العاضد :

ـ (هذه شعور نسائى من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج) ، ثم التفت إلى قواده وقال :

— لقد كان أسد الدين أصوب منى رأيا ، لابد من عمل سريع لنتدارك ما فاتنا ونصلح خطأنا .

ونظر إلى صلاح الدين وقال :

— اذهب الآن إلى عمك فى حمص فاذكر له خبر هذه الرسائل وادعه لِيأتى على جناح السرعة .

وركب صلاح الدين جواده ، وخرج من حلب مسرعا نحو حمص فلم يكد يبعد عن المدينة نحو ميل حتى رأى عمه وبعض رجال يسرعون نحو حمص ، فحياه وبلغه رسالة نور الدين ، فقال أسد الدين :

— لقد وصلتنى رسائل مشابهة من مصر فجئت مسرعا لأعرضها على مولانا الملك العادل .

وعاد أسد الدين وابن أخيه إلى قلعة حلب ، فقال نور الدين :

— عفوا يا أسد الدين ، لقد أخطأنا فى فهم قصدك ، ولم نقدر رأيك حق قدره ، وكانت النتيجة ما أصاب المسلمين فى مصر من ضر ومكروه فتجهز واستعد للسير بأقصى ما تستطيع من سرعة .

فقال أسد الدين :

— إننى خرجت فى المرتين السالفتين ومعى جند قليل وعتاد أقل ، ولا يمكننى أن أخرج هذه المرة إلا إذا زودتنى بما يضمن النجاح فى مهمتى .

— لك ما تطلب فاختر من جندك ألفى فارس ، ومن التركمان ستة آلاف ، وسأعطيك مائتى ألف دينار للنفقة ولكل فارس عشرين

دينار نفقة خاصة ، وسأزودك بما تريد من ثياب ودواب وآلات وأسلحة . . هل هذا يرضيك ؟؟ وتردد أسد الدين ثم قال :

— والقواد ؟ !

— إنك تكثر من الشروط يا أسد الدين ، والله إن تأخرت أنت عن المسير إلى مصر لأسيرن إليها بنفسى ، فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج .

— عفواً يامولاى ، إننى لم أقصد إلى هذا ، ولكننى لمست بنفسى أسباب الفشل فى الغزوتين الماضيتين ، وأريد ألا تتكرر المأساة هذه المرة . فقال نور الدين :

— سأبعث معك خير قوادى ، ورجال جيشى ، سيصحبك عز الدين جرديك ، وغرس الدين قلج ، وشرف الدين برغش وناصح الدين خمارتكين ، وعين الدولة بن الياروقى ، وقطب الدين ينال ، وغيرهم ممن تريد فهل يرضيك هذا ؟

— شكراً جزيلا يامولاى . . ففى هؤلاء الكفاية .

ثم نظر إلى ابن أخيه وقال :

— تجهز يا يوسف للمسير معى .

فغضب صلاح الدين وقال :

— والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها ، فلقد قاسيت بالاسكندرية من المشاق مالا أنساه أبداً .

فالتفت أسد الدين إلى نور الدين وقال :

— لابد من مسيره معى يامولاى .

فنظر نور الدين إليه وقال :

— لا بد من مسيرك مع عمك يا صلاح الدين فهو يريد أن يشد أزره بك وأنت ابن أخيه .

فقال صلاح الدين :

— لقد قاسيت الشدائد يا مولاى فى السفرة الأخيرة من قلة النفقة والدواب .

— سأزودك بما تريد فاعقد العزم ولا تتردد .

فسكت صلاح الدين لحظة وقال :

— اتركنى للغد يا مولاى استخير الله .

وخرج أسد الدين ليعد العدة للمسير العاجل فقابل الشيخ أبا الحسن، وأفضى إليه بخبر الحملة الجديدة وذكر له أن ابن أخيه صلاح الدين لا يريد السفر معه ؛ فقال ابو الحسن :

— عليك بالشاعر حسان العرقلة فهو صديق صدوق لصلاح الدين وقد اختص به يجالسه وينادمه ، ويمدحه كثيرا بشعره .

فأرسل أسد الدين فدعاه وطلب إليه أن يذهب إلى صلاح الدين فيحرضه على المسير معه إلى مصر ؛ وأعد العرقلة أبياتاً فى نفسه ، وذهب إلى دار صلاح الدين .

أما صلاح الدين فقد خرج من لدن نور الدين مهموماً محزوناً وسار إلى داره فتوضأ وصلى ، وتناول المصحف وفتحه ، وبدأ يقرأ

سورة البقرة ، وقرأ ، وقرأ إلى أن وصل إلى قوله تعالى :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »

وتابع القراءة إلى أن قرأ :

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون »

واطمأنت نفسه ورضيت ، واستمر فى القراءة ، ودخل عليه العرقلة وهو يقرأ قوله تعالى :

« وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم ، من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبصط وإليه ترجعون »

فقال العرقلة :

— صدق الله العظيم : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فنضاعفه له أضعافا كثيرة »

وبدأ ينشد صلاح الدين أبياته حاثا ومحرضا :

وهل أخشى من الأنواء بخلا ... إذا ما يوسف بالمال جادا

فتى للدين لم يبرح صلاحا ... وللأعداء لم يبرح فسادا

لئن أعطاه نور الدين حصنا ... فإن الله يعطيه البلادا

إلى كم ذا التوانى فى دمشق ... وقد جاءتكم مصر تهادى
عروس بعلها أسد هزبر ... يصيد المعتدين ولن يصادا
ألا يا معشر الأجناد سيروا ... وراء لوائه تلقوا رشادا
فما كل امرىء صلى مع النا ... س مأموما كمن صلى فرادا

فضحك صلاح الدين وقال :

— لقد اطمأنت نفسى يا عرقلة بعد قراءة القرآن :

وسأسير إلى مصر .

— وسيكون لك ملكها كما ملكها يوسف بن يعقوب .

— لست أسعى لهذا يا عرقلة . إننا نجاهد من أجل المسلمين .

— وإن مُلّكتها فكم تعطينى .

— والله لئن مُلكت مصر لأعطينك ألف دينار .

وأرسل نور الدين الفقيه عيسى الهكارى برسالة الى الخليفة العاضد يخبره بقرب وصول النجدة ، وسار مع جيش أسد الدين إلى دمشق ليودعه قبل رحيله إلى مصر .

القلب الذهبي

خرج جيش أسد الدين من دمشق فى طريقه إلى مصر، وفى صحبته أبو الحسن وعبد الرحمن، وقد فرح كل منهما بلقاء صاحبه فكانا يقضيان الوقت معاً فى حديث مستمر، وأبو الحسن يسأل عن أحوال مصر وأخبارها، وعن أصدقائه واحداً واحداً، وعبد الرحمن يجيب ويسهب فى الاجابة، فإذا أمسى المساء، وأناخ الجند للراحة والنوم، جلس عبد الرحمن وحده خارج الخيمة ينظر إلى السماء ويتذكر مصر ويحن إلى من فيها، وصورة فاطمة ترافقه فى كل آن وحين، فى حله وترحاله، فى نومه ويقظته ـ إنه يتذكر دائماً موقفها أمامه فى المكتبة وهى تودعه قبل سفره وتوصيه بنفسه، وبالرسالة خيراً، ووجهها الملائكى ينظر إليه بكله ـ بعينيه البراقتين ووجنتيه الحمراوين، وأنفها المستقيم الدقيق، وفمها الصغير، وجبهتها المشرقة، ثم يذكر كيف مدت يدها إليه تقدم له القلب الذهبى المسطور عليه آية الكرسى، وتطلب منه أن يحمله معه فى سفره ليكون رقية تحفظه من كل شر وسوء، وتسأله أن يحتفظ به، ويحسن حراسته فهو أعز ما تملك فى الحياة، فيمد يده إلى جيب يلاصق قلبه فيخرج القلب، وينظر إليه طويلا ثم يقبله قبلة خافتة وهو يتلفت حوله، ويعيده إلى مكانه الأمين لصق قلبه.

وكان كلما قرب الجيش من مصر زاد حنينه إلى وطنه ، واشتد فرحه لقرب رؤيته لفاطمة ، فلما وصلوا إلى بلبيس دخل على القائد أسد الدين وطلب الاذن منه ليسرع هو إلى القاهرة ليحمل إلى من فيها البشرى بقرب محى النجدة ، فأذن له وامتطى صهوة جواده يسابق الريح ، وهو يحس أن قلبه يكاد يقفز من صدره فيسبقه إلى القاهرة ، ووصل إلى قصر الأمير شمس الخلافه ، ودخل إلى الحديقة ، فرأى فاطمة فى ثوب أحمر فاتح جالسة إلى جانب فسقية هناك ، تلقى فتات الخبز إلى السمك ، فوقف لحظة يتأملها ، ثم خطا نحوها فى احتراس ، فلما وقف خلفها قال يخاطب السمك .

— كم أنت سعيد أيها السمك .

فجفلت فاطمة ، وهمت واقفة وقد وضعت يدها على صدرها من أثر المفاجأة ، وقالت :

— الشيخ عبد الرحمن .. حمداً لله على السلامة ـ متى وصلت ؟

— الآن فقط ، وكان من حظى أن كنت أول من قابلت .

فأطرقت ، وقالت :

— أرجو أن تكون قد وُفقت فى رحلتك وسفارتك .

— الحمد والشكر لله سبحانه وتعالى . فقد كان التوفيق يلازمنى فى كل خطوة أخطوها .

ثم سكت لحظة وقال :

— والفضل فى ذلك كله لقلبك .

فارتبكت فاطمة ، وقالت :

— قلبي أنا ؟

فأخرج القلب الذهبي من جيبه وقال :

— أجل قلبك الذهبي .

فضحكت فاطمة ووضعت يدها على قلبها ، وقالت :

— لقد أفزعتني ، وظننت أني كنت أحيا هنا مدة غيابك بلا قلب .

فضحك عبد الرحمن ، وقال :

— لا ، لم أعن هذا ، عشت وعاش قلبك ، ولكن مهمتي لم تنته أين الأمير شمس الخلافة ؟

— إنه في غرفته .

— سأذهب لأحمل اليه البشرى ، إن جيش أسد الدين في طريقه من بلبيس إلى هنا .

وأسرع عبد الرحمن فدخل على الأمير شمس الخلافة ، فلم يكد يراه حتى وقف ، وصاح :

عبد الرحمن ، أهلا وسهلا وحمداً لله على سلامتك .

وتقدم فعانقه ، وقبله ، وقال :

— ما وراءك ؟

— ورائي جيش أسد الدين في طريقه من بلبيس إلى هنا ، وقد جئت أحمل اليك البشرى .

— الحمد لله . . ياليتنا لم نهادن هذا الملك ، ولكن فليعوضنا الله خيرا فى هذه المائة ألف دينار .

— مائة ألف دينار . .

— أجل ، لقد اتفقنا مع الفرنج أن ندفع لهم أربع مائة ألف دينار على أن ينسحبوا من مصر ، وقد دفعنا لهم منها مائة ألف دينار

ثم أطرق لحظة ، وقال :

— ولكن البلد خربت ، وأفلست خزانتها ، والله لايمكن أن أترك هذا المال لهم ، سأحتال حتى أسترده ، والآن سأتركك قليلا فانتظرنى حتى أعود لنتناول طعام الغذاء معاً — وسأذهب إلى الخليفة وأبلغه خبر مجىء النجدة — إن القاضى الفاضل سيكون أشدنا فرحاً بهذا النبأ .

وذهب الأمير شمس الخلافه إلى قصر الخليفة ، وأخبره بوصول أسد الدين بجيشه إلى بلبيس ، وبينا هو خارج من باب القصر إذا به يقابل الوزير شاور داخلا ، فحياه وقال :

— أيها الوزير ، إن لدى أنباء سارة تهمك .

فقال شاور

— أخبار سارة ، هاتها فإن الأيام الأخيرة عودتنا ألا نسمع أنباء سارة .

فانتحى به شمس الخلافة جانبا ، وقال

— لقد وصل أسد الدين بجيشه إلى بلبيس

فأحس شاور كأن عقربا لدغته ، وقال :

— وهل هذه أنباء سارة ياشمس الخلافة ؟

— أجل إنها لسارة ، فإن حضور أسد الدين معناه سرعة خروج الفرنج من مصر .

— ولكن أسد الدين طامع فى ملكها .

— لا أعتقد أنه جاء طامعا ، ولكنه جاء منجدا ومعينا ، وهبه جاء طامعا ياصديق ، أليس الخير أيها الوزير أن يملك البلد المسلمون حتى لاتقع فى أيدى الفرنج .

فبهت شاور من هذه الصراحة ، واشتد به الضيق من هذه النغمة التى يسمعها فى كل حين ، ومن كل إنسان . . المسلمون خير من الفرنج . المسلمون خير من الفرنج . . قد يكون هذا صحيحا ، ولكن معناه زوال مجده هو ، وأفول نجمه ، وماذا يعنيه هو ، بل إنه ليفضل أن يكون وزيرا والبلد فى أيدى الفرنج على أن يملكها المسلمون فيفقد سلطانه وجبروته ، ولكنه عاد يفكر فى أسد الدين ، وما يتطلبه جيشه من نفقات ، فقال :

— إن أنباءك السارة ياشمس الخلافة ستربك البلد كله ، فأنت تعلم أننا لانجد المال الذى انفقنا على تقديمه للفرنج كى يسرعوا الخروج من مصر ، فأنى لنا بمال جديد ندفعه لأسد الدين وجيشه .

فقال شمس الخلافة :

— دع هذا لى فإنى سأدبر المال بنفسى .

— وكيف ؟

— سأذهب فأطلب من الملك مرى بعض مادفعنا له من مال .

فضحك شاور ضحكا عاليا ، وقال :

— تطلب مالا من ملك الفرنج . . إننا لم ندفع له إلا ربع ماطلب فهل يعطيك ما أخذ ، وهو يلح كل يوم فى طلب مابقى له لدينا .

فقال شمس الخلافة :

— إنها فكرتى وسأعمل على تنفيذها ، والله يوفقنى .

ثم استأذن منه ، وخرج من القصر ، ثم من القاهرة متجها إلى معسكر الفرنج جنوب الفسطاط ، وما أن رآه ملك الفرنج حتى ابتدره قائلا :

— مالك واجما ، مقطب الجبين أيها الأمير ، فليس هذا عهدنا بك

فقال شمس الخلافة :

— إننا فى أزمة شديدة ، وموقف حرج أيها الملك .

— وماذا عساه أن يكون ذلك الموقف الحرج ياشمس الخلافة ، لقد اتفقنا على الهدنة وها نحن أولاء نحزم أمتعتنا ، ونتأهب للعودة فماذا يحزنكم بعد ؟

— لقد قلّ عندنا المال أيها الملك فنحن فى حاجه إلى من يعيننا ببعضه

فدهش الملك ، وأعتقد أن وراء هذا الكلام حادثا خطيراً فقال :

— لقد غدونا أصدقاء كما كنا ، فاطلب ما تشاء أعطك

فعجب شمس الخلافة من هذا العرض ، ولكنه خشى إن طلب

كل المبلغ الذى دفع أن يرفض طلبه ، فقال :

— لقد قلت حقا أيها الملك الحكيم ، فإننى لم أفكر أن ألجأ لأحد غيرك لما بيننا من ود وإخاء — وإنى لأشتهى أن تهب لنا نصف ما أخذت

فقال مرى :

— لقد فعلنا

فازداد العجب بشمس الخلافة فقد أجابه الملك إلى طلبه دون لجاج، أو نقاش، وخشى أن يكون وراء هذه الموافقة السريعة الكريمة شىء ، فنظر إلى الملك طويلا ، ولم يملك أن يكتم ما فى نفسه فقال :

— أيها الملك ، إننى لأعجب فى نفسى من هذا الكرم ، إذ لم يحدث أن ملكا فى مثل حالك وقدرتك علينا ، وهب مثل هذه الهبة لقوم هم فى مثل حالنا

فقال الملك :

— ليس فيما فعلت شىء غريب يثير عجبك ، أو دهشتك ، فأنا أعلم انك رجل عاقل حازم ، وأن شاور مثلك ، وأنكما ماسألتمانى هذا المال العظيم إلا لأمر قد حدث

فلم ير شمس الخلافة بدا من أن يفضى للملك بسر الموقف ليبرر طلبه أولا ، وليدفع الملك إلى التعجيل بالسفر ثانيا ، فقال :

— صدقت أيها الملك ، فإن أسد الدين فى طريقه إلى القاهرة ، ولا مال عندنا ، وقد راعينا ما بيننا من ود وصداقة ، فأرسلنى الوزير

شاور لأخبركم أنه « مابقى لكم مقام » فى مصر الآن ، فالخير أن تسرع بالرحيل ، ونحن باقون على الهدنة محافظون على شروطها ، وسندفع بعض هذا المال لأسد الدين عند وصوله لنرضيه ، فإذا عاد للشام ، أرسلنا إليكم ما بقى لكم من مال

كان ملك بيت المقدس قد علم بخروج أسد الدين ، وكان يدرك انه قدأحيط به، فرأى من الحكمة أن يوافق على كل مايطلبه شمس الخلافة من شروط ، لأنه لم ينس ما لقيه ، وما لقيه جيشه من جند أسد الدين الأشداء فى المرتين المنصرمتين ، فقال :

— أنا راض بما ذكرت ، وإذا احتجتم لمبلغ آخر فاطلبوه أدفعه لكم حتى يسهل عليكم إقناع هذا الرجل أسد الدين ، وسأعد العدة للرحيل السريع

فأحس شمس الخلافة بعض مافى نفس الملك من ذعر وخوف، فأراد أن يكسب منه أكثر ما يستطيع كسبه ، فقال :

— هذا ما كنت أتوقعه من حزمك وحسن تدبيرك وإصالة رأيك أيها الملك ، ولكننى أرى أن هناك أشياء صغيرة ، قد يكون لها أثر خطير ، وقد تسهل لك سبيل العودة الآمنة إلى بلادك

— وما هى؟

— أرى انك فى حاجة لكسب عطف المصريين حتى لا يقيموا العقبات فى طريق عودتك ، فهل ترى مانعا من اطلاق سراح الأسرى المصريين .

ثم سكت لحظة ، وقال :

ـ وأظن أنك لو أطلقت سراح طى بن شاور لكان هذا جميلا تطوق به عنق صديقك الوزير ، يجعله يبذل الجهد لإبعاد أسد الدين عن مصر ، وأعتقد أن هذا لو تم لكان كسبا عظيما لكم .

فقال الملك :

ـ ولك هذا أيضاً ياصديقى ، سنطلق سراح طى بن شاور ، وجميع الأسرى المصريين ، فهل من مزيد؟

ـ كلا أيها الملك ، لقد كنت دائما كريما معنا ، إنك ستعود إلى ملكك ، ولكننى سأذكر دائما حزم الملك مرّى ، ورجاحة عقله ، وصداقته وإخلاصه .

شاور يمكر مكرا

أحسن ملك بيت المقدس ، وقواده بالفزع الأكبر عندما علموا بمجيء أسد الدين، فقضوا ليلهم كله واليوم التالى وهم يحزمون أمتعتهم ويعدون العدة للرحيل، فلما تم استعدادهم غادروا المعسكر إلى الصحراء الشرقية وهم يتجنبون أن يقابلوا جيش أسد الدين

ووصل أسد الدين بعد رحيلهم بأيام إلى القاهرة ، فعسكر بأرض اللوق خارجها، ووجد شاور أنه لا سبيل إلى المقاومة، فآثر أن يصانعه ويصادقه ، فما كاد يعلم بوصوله حتى أرسل إليه الهدايا والإقامات، ثم صحب الأمير شمس الخلافة وذهب فى اليوم التالى لزيارته فى معسكره فلما دخل فى خيمته ، وقف وحى الأمير شمس الخلافة تحية الصديق المشوق لرؤية صديقه ، ولكنه تردد فى أن يمد يده لشاور ، ووقف الرجلان لحظة ينظر كل منهما لرفيقه نظرة تملأها المعانى المتضاربه المتعارضه ، ورأى شمس الخلافه حرج الموقف فتقدم لإنقاذ شاور وقال :

أيها القائد الجليل القدر ، عفا الله عما سلف ، وقد جاء الوزير شاور لزيارتكم بعد أن ترك خلفه الماضى بجميع مافيه من إحن وخلاف

ثم أخذ بيد كل منهما ، ووضعها فى يد الأخر ، وتصافح الرجلان وتعاهدا على أن ينسى كل منهما ما كان بينهما من أسباب النزاع، وجلس الثلاثه يتحدثون حديث ود وصفاء ومحبة وإخاء ، وأراد شاور إن

يزيل مافى نفس عدوه بالأمس من أثر سىء ، وأن يبرهن له على صدق توبته فقال :

أن مصر ترحب بكم اليوم بعد أن عانت من الفرنج ماعانت، وإنى لأذكر الآن سابق مشورتكم أن نتحد معا فنهاجم الفرنج هنا لنقضى عليهم ، فهل لديك مانع اليوم من أن نجدد هذا العزم ، فهم لايزالون فى صحراء مصر لم يغادروها بعد؟

فعجب أسد الدين من هذا الرأى ، يتقدم به شاور اليوم ، وقد رفضه بالأمس ، والفرصة سانحة ، فأجابه بلهجة الواثق من نفسه المستخف برأيه ، وقال :

لقد كان هذا رأيى أيها الوزير والفرنج على البر الغربى ، وليس لهم وزر ، أما الآن فلا ، لأنهم على البر المتصل ببلادهم ، وقد وصل جندى إلى هنا بعد أن أنهكهم التعب وأكدهم السير ، فوجدنا الله سبحانه وتعالى قد كفانا شرهم ، فنحن اليوم فى حاجة إلى الراحة والاستجمام

فاغتم شاور لهذا الرد ، وأيقن أن أساليبه الملتوية لاتجدى مع هذا الرجل الصريح ، وأيقن أيضا أن أسد الدين قد أتى هذه المرة ، وفى نيته البقاء فى مصر ، وزاد فى يقنيه مارآه من كثرة الجند والعتاد وهو مقبل على المعسكر مما لم يره فى المرتين السابقتين، فخرج حزينا كاسف البال ، مضطرب الفكر ، يسمع لشمس الخلافة ، ولا يكاد يجيب إلا بلا أو بنعم، بل كثر مااستعاد ماألقى إليه مما لفت نظر رفيقه ، فالتفت إليه وقال :

— لقد انتهى الأمر ياصديق ، وأصبح النضال أمراً مستحيلا وقد يجر عليك شراً كثيراً لو حاولته ، وأسد الدين رجل صريح وكريم ، فما يضيرك أن تصافيه ، وتهادنه لتحافظ على مابقى لك من سلطان ، فذلك خير لك وللبلد ، وها أنت ذا قد لاحظت بنفسك طيب قلب الرجل ، فإنه صفح وعفا بعد كلمات قليلة قلتها .

فتظاهر شاور بأنه يوافق شمس الخلافة على رأيه وإن كانت نفسه حينذاك كالبركان المضطرم تكاد تنفجر فتصيب بحممها وغضبها هذا القائد الوافد المنذر بزوال ملكه ، وختام حياته ، فقال :

— صدقت ، ياشمس الخلافة ، إن أسد الدين رجل كريم وطيب القلب ، وسيكون جيشه الكبير الشجاع خير حصن لمصر يرد عنها عادية الفرنج إن أزمعوا عودة .

ثم سكت لحظة وقال :

— ولكننى لا أخشى إلا هذا الفتى صلاح الدين ، إن له لنظرات نفاذة قوية لا أطمئن اليها لأنى أحس كلما نظر إلى أنه يكشف خبيئة نفسى ، ويدرى كل مايجول فيها ، وكان الرجلان قد قربا من منزل شمس الخلافة فاستأذن من الوزير ودخل ، واستمر شاور فى طريقه حتى وصل دار الوزارة ، وصعد إلى غرفته الخاصة ، وخلع ملابسه وأطرق يفكر طويلا ، ويستعيد مامر به طول أيام حياته من محن وخطوب ومن عز ومجد ، ومضت الساعة تلو الساعة ، وخيم الظلام وهو غارق فى أفكاره ، لم ينبهه إلا آشعة القمر تدخل من فتحات

النافذة فى خيوط متفرقة ، فتنير بعض ظلام الغرفة ، فترك الأريكة التى يضطجع عليها ، وقام إلى النافذة ينظر من خلالها ، فرأى القمر يشرق بدرا كاملا ، وقد سطع نوره فملأ الأرجاء وأضفى على قصور القاهرة المتفرقة وحدائقها حلة من نور بهى وضاء ، ونفذ بعض هذا النور إلى نفسه فرفعها قليلا عن عالم الحكم وشهواته ورأى نفسه إنسانا ضعيفاً لاصديق له يشاركه رأيه أو يحنو عليه فى محنته ، وتذكر كيف قضى عمره الطويل فى نضال متلاحق فى سبيل شهوة زائلة ، ومجد زائف وأخذ يفكر فى هذا الكون المتسق العجيب الاتساق ، يولد الناس ويدبون فى الحياة يلاحق بعضهم بعضا يشقون ويسعدون ، وتشملهم آيات الحزن أحيانا طوالا ، وقد يمسهم الفرح لحظات فيزيل ماعلق بنفوسهم من هذه الآيات ، وساءل نفسه وهو ينظر إلى هذا البدر المنير كم أشرق هذا البدر بنوره على أقوام صفت لهم الأيام فنعموا وقطفوا من أزهار الحياة وثمارها ، وكم أشرق وهو فى رحلته أيضاً على أقوام آخرين ، أصابتهم الأقدار بمحنها وويلاتها ، والبدر كما هو يسير سيرته ، ويرتحل رحلته ، يجد فيه البعض لونا من ألوان الجمال ويسامره البعض فيفضون إليه بما يقض مضاجعهم ، ويخز نفوسهم من آلام ، ونظر أيضاً وأطال النظر فوجد سماء مصر الصافية ، وقد انتثرت فى جميع أرجائها النجوم اللوامع تحيط بهذا القمر الساطع ، وكأنها الحاشية أو الجند يسيرون فى حراسته وحمايته يتضاءل نورها إذا سطع بدراً فلا تلتفت إليها الأنظار ، ويلمع ضوءها فتتباهى إذا

اختفى ، فلا ينير العالم غيرها ؛ وترك هذا العالم إلى نفسه ، وراح يتساءل . . ترى أتكون حياته كحياة هذا القمر . . لقد بدأ حياته جندياً صغيراً ، كما بدأ هذا البدر فكان هلالا . . . ثم ارتقى وارتقى حتى أصبح وزيراً فكان ملأ السمع والبصر كما يبدو هذا البدر الآن يجذب إليه الأنفس والأنظار ، وستمضى الأيام فيصبح البدر محاقا لايكاد يضىء ، ترى أوصل هو إلى محاقه أم قرب من هذا المحاق .

ولم يكد يصل فى تفكيره إلى هذه النهاية حتى اتجه بعقله ونفسه إلى معسكر أسد الدين يستعرض ثانية مجلسه ذلك اليوم هناك ، وما دار بينه وبين أسد الدين أولا ، وبينه وبين شمس الخلافة ثانيا من حديث ، فعادت إليه الهموم تتكالب ، وما درى أن شخصاً متخفياً كان يدب فى ذلك الحين فى طريقه إلى معسكر أسد الدين ، فلما وصل قاده الجند إلى خيمة القائد ، ولشد ماكانت دهشته عندما خلع الزائر رداءه ، وأزال تنكره فإذا به الخليفة العاضد نفسه ذهب ليرحب بأسد الدين فلما استقر به المقام تحدث اليه فى شئون كثيرة ، ثم أسر إليه برغبته الشديدة أن يسعى لقتل الوزير شاور لأنه لايثق به ، ولا يأمنه على نفسه ، وعلى أسد الدين نفسه ، وأبان له أن وجوده بلاء وشر على البلد وأهله ، فمن الخير أن يقضى عليه .

لم يدر شاور من أمر هذه الزيارة شيئاً ، لأنه كان غارقا فى أحلامه وتأملاته التى أقضت مضجعه تلك الليلة ، فلم ينم إلا قبيل الفجر ، ولم

يكن فى نومه أحسن حالا منه فى يقظته إذ لاحقته الأحلام المزعجة المفزعة فاستيقظ مقبوض النفس ، تعلو وجهه غبرة ، وترهقه قترة ، إن حلما من بين الأحلام التى رآها أفزعه وأرعبه . فقد رأى أنه دخل دار الوزارة فوجد على سرير ملكه رجلا وبين يديه دواة الوزارة وهو يوقع منها بأقلامه ، فسأل عنه ، فقيل هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يعلم علم اليقين أن الأحلام جميعا تحتمل أكثر من تأويل واحد إلا الحلم يظهر فيه رسول الله ، فإنه حلم صادق بظاهره وباطنه لا تأويل له ولا تفسير ، وتداعت الذكريات فى نفسه فتذكر حلمه الذى رآه وهو نائم تحت النخيل فى العريش . الحلم الذى رأى فيه الرجل ذا وجه الأسد يزوره فى بيعته ثلاث مرات ، فإذا كانت الزيارة الثالثة انقلب أسداً ثم انقض عليه فصرعه ، تذكر هذا فثارت به آلامه وشجونه وأحزانه ، وراح يدبر فى نفسه أمراً ، ويمكر مكراً والله أشد مكراً ، وأجل تدبيراً .

قتل شـــاور

قضى شاور معظم ليلته ساهراً ، وكذلك فعل أسد الدين ، فقد مكث ساعات بعد خروج العاضد من خيمته ، وهو يفكر فى هذا البلد الغريب الذى يستبد به وزير مخاتل مخادع كشاور ظل ست سنوات يستبد بالشعب فيه ويحرم الخليفة السلطة ، فيستأثر بها لنفسه ، ويلعب بقوتين خارجيتين معاديتين : قوته هو أسد الدين ، وقوة الفرنج ، وظل يدبر الأمر فى نفسه ، فهذا البلد خير مهد لقوة عظيمة يعتز بها الاسلام وهو فى نضاله وجهاده ضد الفرنج ، ولـكن كيف السبيل إلى ذلك ، والأمر فيه فوضى لايطمئن إنسان لصاحبه ، ولا يثق صديق بصديقه لقد مضى عليه يومان أو ثلاثة منذ نزل بأرض اللوق خارج القاهرة ، ووفود المصريين من سراتهم ، وفقهائهم ، وتجارهم ، تفد على معسكره وحديثها كله ترحيب به وبقدومه واستغاثة خافتة مكتومة من هذا الرجل المستبد بالحكم فيهم ، وفى الليل يأتى خليفتهم متنكرا فيدس لوزيره ، ويطلب منه أن يقتله .

قضى أسد الدين ليله يفكر فى هذا كله . ولـكنه لايجد السبيل إلى الغدر بشاور ، لقد زاره الرجل وصافحه وصافاه ، فـكيف يخون العهد ويفتك به ، لقد غدر به شاور أكثر من مرة ، وناوأه وكافحه ، واستعان بالفرنج ضده ، ولـكنه اعتذر عن الماضى ، وسعى إليه راغبا فى صداقته .

كان أسد الدين رجل حرب وجهاد ، سريع الكره ، سريع الصفح لايحمل ضغنا أو كراهية ، ولا يبيت الشر فى خفاء ، فهو أبعد الناس عن السياسة ، قضى حياته كلها مشهراً سيفه فى الميادين يجالد عدوه ويناهضه حتى ينتصر عليه ، فإذا أقر العدو بضعفه وطلب الهدنة والأمان هادنه وأمنه ، ولهذا لم يشأ أسد الدين أن يسرع بقتل شاور بل ترك الآقدار تجرى فى أعنتها ، وغفر للرجل ماسلف ، وشعر شاور بصفح أسد الدين فتقرب إليه ودأب على الركوب كل يوم إلى معسكره فيقضى معه بعض الوقت ، أو يركبان فيسيران سويا يتجاذبان أطراف الحديث ، فيمد له شاور بالوعود مداً ، ويمنيه الأمانى الطيبة فإذا عاد إلى داره خلا بنفسه ، وظل يعمل فكره ، ويدبر المكيدة للإيقاع بأسد الدين ورجاله ، فهو يرى الخليفة يسبل عليه عطفه كل يوم فيرسل له ولرجاله الخلع والهدايا والإقامات ، وهو يرى جند أسد الدين ينبثون بين الشعب فيلقون حباً واكراماً بينما هو إذا سار هذه الأيام فى موكبه لقى وجوماً وإعراضاً ، ولم يحس علامات التجلة والاحترام التى كان يقابله بها المصريون من قبل ، بل كان كلما مر بينهم سمعهم يهمسون ، ورآهم يشيحون بأوجههم عنه حتى لايرونه ولا يراهم ، فكان يحس أن دولته قاربت أن تدول ، وأن نجمه كاد يأفل ، فثارت نفسه ورأى أن المعركة الآن أصبحت بينه وبين أسد الدين ، إن أبهة الملك لاتحتملهما معاً بل لابد لأحدهما أن يفسح الطريق للآخر ، واعتقد

أنه إن لم يبادر فيزيل أسد الدين ، فلابد أن يسعى أسد الدين إلى إزالته ، فقرر أن يدعوه ورجاله إلى وليمة خاصة ليفتك بهم ، وهم فى ضيافته ، ولم يجد من خاصته ورجال دولته من يثق به فيفضى إليه بنيته إلا ابنه الكامل فاستدعاه وحدثه حديثا لينا وأطال فى الحديث ليمهد للخبر ، وليبين لإبنه خطر أسد الدين ، وحكمة هذا القرار الذى يريد تنفيذه ، ولكن الكامل لم يكن ليوافق أباه على رأيه وهو ممن عملوا الحيلة لاستدعاء أسد الدين والاستنجاد به ضد الفرنج فلم يكد يسمع قول أبيه حتى صاح معارضا .

— ماهذا يا أبت ، « والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرفن أسد الدين »

فغضب شاور من جرأة ابنه ، ولكنه أراد أن يقنعه ليكسبه إلى جانبه فقال :

— يا كامل تدبر فى الأمر بعين اليقظة « والله لئن لم أفعل هذا لنقتلن جميعاً »

فلم يبال الكامل بهذا الوعيد وقال :

— صدقت ، و « لان نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج فليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه ، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين بنفسه لما أجابه ، ولما أرسل إليه فارسا واحدا فيملك الفرنج البلد ، وتزول دولة الإسلام» .

سمع شاور هذا الكلام من ابنه فأيقن أن لافائدة من جداله ، وقال فى نفسه « لئن كان هذا اعتقاد ولدى فكيف يكون اعتقاد غيره ممن لايمتون إلى بصلة » وسكت على مضض إذ وجد أنه لم يعد فى جعبته إلا سهم واحد وذلك أن يصافى أسد الدين ، ويبذل له الود ليبقى له بعض ما كان يتمتع به من سلطان ، ولكن الخليفة العاضد كان يبعث الرسول بعد الرسول إلى أسد الدين يحرضه أن يسرع بالقضاء على شاور فوجد أسد الدين أن يجمع رجاله وقواده ليستشيرهم فى الأمر ، فإنه لازال يحس فى نفسه التردد ، ولايستسيغ الإيقاع بالوزير

وانتظم المجلس أسد الدين ، وابن أخيه صلاح الدين ، وجميع قواد جيشه وعرض عليهم أسد الدين الأمر ، وتطارحوا القول وتبادلوا المشورة فكان أشدهم مهاجمة لشاور صلاح الدين إذ قال :

— أيها القواد العظام ، لقد شاهدتم غنى هذه البلد وثروتها وعلمتم أن الفرنج كشفوا عورتها ، وعرفوا مسالكها ، فتأكدوا أننا إذ خرجنا منها اليوم لأسرعوا اليها فى الغد ، وكلكم تعلمون كيف كان يلعب بنا وبالفرنج ذلك الرجل شاور ، وكيف كان يوقع بيننا وبينهم ليخلوا له الجو فينفرد بالسلطان فيها ، وقد ضيع أموال مصر فى غير وجهها ، وقوى بها الفرنج علينا وما كل وقت ندرك الفرنج ونسبقهم إلى هذه البلاد التى قل رجالها وهلكت أبطالها .

فقال أسد الدين :

— كل ماقلت صحيح ، فماذا ترى ؟

— أرى أن يقتل شاور ، ففى قتله جلاء للموقف ، واستقرار للامور

فصاح أبو الحسن ، وكان حاضراً مجلسهم يسمع ولا يتكلم ، وقال:

— سلمت وغنمت ياصلاح الدين ـ والله لهذا هو الحل ، ولا حل غيره . . اقتلوا رجلا تنقذوا شعبا ودينا .

فلم يتمالك عز الدين جرديك أن قال :

— إن صوت الشعب من صوت الله ، وهذا أيها القائد العظيم مصرى ينطق بصوت المصريين ، وقد استمعت بنفسك لوفودهم التى جاءت ترحب بك ، وكلهم يشكون هذه الشكوى ، ويئنون مما يجدون.

وكان أسد الدين يحب أن يدافع عن شاور فهو رجل نبيل يقدر قيمة كلمته التى قالها لشاور ، ووعده أن ينسى الماضى ، ويبدأ صفحة جديدة كلها صدق ، وصداقة ، وإخاء ، فقال :

— ولكننى وعدت الرجل.

فقال عز الدين جرديك :

— أترك هذا الأمر لنا .

وقال صلاح الدين :

— أجل أترك هذا الأمر لنا .

وأمن الجمع على هذا الرأى ، واتفقوا على أن يتولى صلاح الدين وعز الدين جرديك القبض على شاور ، واضطر أسد الدين أن يخضع لرأيهم .

وكان شاور قد دأب أن يركب كل يوم عند الأصيل فى أبهة الملك

والعدة الحسنة ، والآلة الجميلة ، والطبول والأبواق تسبق موكبه ، فيذهب إلى معسكر أسد الدين ليقضى بعض الوقت فى حديث وسمر ، ومضت على أسد الدين سبعة عشر يوما وهو ينتظر من الخليفة الوفاء بالوعد ، والخليفة يقر أنه لا يستطيع وفاء وشاور وزير ؛ وشاور يعد ، ويمنى ويماطل .

وفى اليوم الثامن عشر خرج شاور فى موكبه المعتاد وامتطى صهوة جواده الحبيب الى نفسه (منصور) والطبول أمامه تدق ، والأبواق تنفخ ، والجند يحيطون به ويتبعونه ، وكان يحس ضيقا فى صدره ، فتثاقل فى مشيته ، وأحسّ الجواد بعض مايحس سيده من ضيق وقلق واضطراب ، فمشى الهوينا مطرقا حتى وصل الركب إلى معسكر أسد الدين ، فخرج صلاح الدين للقائه ، ورحب به ، ودعاه للإقامه حتى يحضر عمه فقد خرج لزيارة قبر الإمام الشافعى ولما يعد بعد ، فاعتذر شاور وقال بأنه سيذهب للقاء أسد الدين عند قـــبر الإمام فنادى صلاح الدين صديقه عز الدين جرديك ، وقال :

— لقد حضر الوزير لزيارة عمى أسد الدين ، فلما لم يجده رغب أن يلحق به عند قـــبر الإمام الشافعى ، فهل لديك مانع أن نصحب الوزير إلى هناك .

ففهم جرديك رغبة صلاح الدين وقال :

— لامانع عندى ، إن إكرام الوزير واجب من واجباتنا .

وركب القائدان وسارا إلى جانب الوزير حتى قربا من مقبرة

السيدة نفيسة ، فنظر صلاح الدين إلى الأرض الخالية الممتـــدة أمامهم ، وقال :

— إن هذا المكان يصلح ميدانا جميلا للعب ، والله لقد اشتقت للعب

فضحك شاور وقال :

— فى الحق إنك لاعب ماهر ياصلاح الدين ، لقد شاهدت لعبك عند زيارتى للملك العـادل نور الدين منذ خمس سنوات ، فأعجبت به أيما إعجاب .

فقال صلاح الدين :

— إن هذا المكان الفسيح يغـرى بالعدو والتسابق فهل تحب أن نتسابق حتى نصل إلى قبر الامام .

فقال شاور :

— لامانع عندى .

ووقف الثلاثة فى صف واحد ، وأعطى جرديك علامة الابتداء فانطلق كل منهم يسابق الريح بجواده ، فلما بعدوا عن حرس شاور ، أشار صلاح الدين لجرديك أن يبطىء قليلا ، وقرب هو بجواده من شاور وضربه بكتفـه ضربة قوية أفقـدته توازنه فمال يسارا ، وكاد يسقط فلحق به عز الدين جرديك ، وألقى عليه حبلا فقيد به كتفيه ، وجره إلى الارض ، وترك الجواد يعدو وحده ، وحاول شـاور أن يقاوم ، وصرخ يستنجد ويستغيث تارة ، ويهدد ويتوعد تارة أخرى ونظر إلى صلاح الدين بعينين يتطاير منهما الشرر وقال :

.. — فعلتها يالئيم

فتقدم صلاح الدين وكمه بمنديل فى يده ، وقال :

— اسكت ياغادر ، والله لولا أنك أسيرى الآن ، ولا تستطيع الدفاع عن نفسك للطمتك على فمك هذا الذى يجرؤ على شتمى .

ووقف صلاح الدين يحرس أسيره ، وذهب عز الدين جرديك فأحضر خيمة أودع فيها شاور ، وأسرع إلى قبر الامام الشافعى فوجد أسد الدين جالسا يستمع إلى شيخ ذى عمامة كبيرة ، وعينين واسعتين ولحية طويلة ، فأشار اليه أسـد الدين أن ينتظر ، وعجب عز الدين جرديك ، ترى من يكون ذلك الشيخ الذى يجلس أسد الدين فى حضرته خاشعا هكذا ، وسأل عنه رجلا يصلى هناك فقال له إنه الشيخ العابد الصالح نجم الدين الخبوشانى .

فلما انتهى أسد الدين من حديثه نادى عز الدين جرديك فذهب ، وأسر اليه الخبر ، فدهش أسد الدين ، ونظر إلى الشيخ نجم الدين ، وقال :

— هذا تأويل مارأيت يامولانا ، وقد صدق تفسيرك .

فسأل جرديك :

— وماذا رأيت

— رأيت ليلة أمس كأن شاور دخل دارى وناولنى سيفه وعمامته فجئت استفسر مولانا الشيخ عن معنى هـذا الحلم فأخبرنى أنى أقبض على شاور ، وأقتله ، وأكون وزيراً مكانه .

ولم يكد يتم حديثه حتى أقبل عليه جندى من جنود الخليفة مسرعا

يلهث ، فحيا ، وقبل الأرض ، وقدم رسالة معه لأسد الدين فتحها ، وقرأها ، ثم نظر إلى صاحبيه ، وقال :

— يخيل إليّ أن أجل هذا الرجل قد حان فهذه رسالة أمير المؤمنين يحثني على قتل شاور ، وموافاته برأسه .

فبدت الدهشة على وجه عز الدين جرديك ، وقال :

عجيب أمر هذا البلد . . . أبهذه السرعة تصل الأخبار إلى الخليفة ويأتي رسوله يطلب قتل شاور . لقد قبضنا عليه منذ لحظات ، وأتيت بعدها مسرعا لأخبر سيدي القائد ، يخيل الىّ أن وراء كل فرد هنا جاسوسا يحصي عليه خطواته .

ولم يلق أسد الدين بالاً لكلام جرديك ، بل نظر إلى الشيخ نجم الدين وكأنه يسأله رأيه ، أيجيب دعوة الخليفة فيبادر بقتل شاور ، أم يكتفي بسجنه .

وفهم الشيخ مقصده فقرأ قوله تعالى :

« وإذا جاء أجلهم لايستقدمون ساعة ولا يستأخرون »

فأدرك أسد الدين ما يرمى اليه الشيخ وانتحى بعز الدين جرديك ناحية ، وأمره أن يذهب فيحتال هو وصلاح الدين لقتل شاور ، وأن يصحب معه رسول الخليفة ليحمله رأس القتيل .

وعاد الرسول بعد قليل إلى الخليفة يحمل رأس شاور على طبق من فضة ، فملئت نفسه فرحا ، وأحس كأن كابوسا كان يجثم على صدره فرفع عنه ، وشاع الخبر بين أهل القاهرة وعامة الشعب فخرجوا جماعات

وتجمهروا فرحين يحمدون الله أن نجاهم من شر هذا الرجل وظلمه ، وعاد أسد الدين بعد قليل إلى القاهرة فى طريقه إلى المعسكر فرأى الناس عن بعد وهم يقبلون نحوه جماعات ، فظن أنهم غضبوا لقتل وزيرهم ، وأنهم يقصدون به شراً ، فقرب منهم ، وقال :

— أمير المؤمنين يأمركم أن تذهبوا فتنهبوا دار شاور .

فعلا صياحهم ، وهللوا فرحين ، وتركوه مسرعين نحو دار شاور

الوزير أسد الدين

تدافع سكان القاهرة مسرعين نحو دار الوزارة ، فلما أحس بهم الكامل بن شاور ، فر بأهله من باب خلفى ، واتجهوا نحو قصر الخليفة فى حال شديدة من الذعر ، وانقض العامة على دار الوزارة فحطموا أبوابها ، وانبثوا فى حجراتها وأبهائها يسلبون تحفها ، وينهبون طرفها ويحملون أثاثها ورياشها ، ويزياون آيات زينتها ، ولم يتركوها إلا قاعا صفصفا ، وخرجوا فى مظاهرة قوية فرحة يشقون شوارع القاهرة حتى وصلوا إلى باب القنطرة ، فنفذوا منه متجهين إلى معسكر أسد الدين وهم يهتفون بحياته ، ويلوحون بأيديهم التى تحمل مانهبوا من غنائم كالكراسى الجميلة المطعمة بالأبنوس والعاج ، والأرائك المكفتة بالفضة والنحاس ، والأوانى الخزفية الرائعة المنقوش والملابس والحلى والجواهر . . . فخرج إليهم أسد الدين على جواده يحيط به قواده وحاشيته فحياهم ورحب بهم .

وكانت الشمس قد مالت نحو المغيب ، وبدأ الظلام ينتشر ، وزاد الظلام حلوكة طبقات السحب الكثيفة تغطى صفحة السماء من ناحية الغرب ، ولم تلبث الأمطار أن تساقطت رذاذا فهلل المتظاهرون واعتبروا ذلك فألا حسناً ، ثم تتابع المطر ، وانهمر غزيراً فلم يطيقوا وقوفا ، وكروا راجعين ، وهم يرقصون ويغنون متخذين من الأوانى النحاسية التى فى أيديهم دفوفا وطبولا .

وكان الحراس قد انتشروا فوق سور القاهرة ، وأبوابها وبيدهم المشاعل ، فأرسلوا صيحاتهم عالية تنادى العامة بالاسراع قبل أن تقفل الأبواب ، فلما دخل آخرهم ، صدرت الأوامر للحراس فتعاونوا على جر الأبواب الضخمة ثم جذبوا قضبان الحديد خلفها وأحكموا ارتاجها ، ووقفوا يحرسون هذه المدينة التى آوت إلى فراشها بعد أن أكدها النضال وهدها التعب ، ويرقبونها وهى تغتسل بذلك الماء السماوى من آفات تلك العصبه المتتابعة من الوزراء المتكالبين على الوزارة

وكان خمسون حارسا يطوفون فى ذلك الحين بقصر الخليفة الكبير وعلى رأسهم أميرهم — سنان الدولة — فلما سمعوا المؤذنين يدعون للصلاة من قاعة الذهب داخل القصر ، وقفوا يرقبون الإشارة بانتهاء الصلاة فلما وصلتهم أخذت الطبول تدق ، والأبواق تنفخ بنغم جميل هادىء كعادتهم كل ليلة تحية للخليفة ، ثم خرج أحد الأستاذين من القصر فتقدم نحو أمير الحرس وقال :

« أمير المؤمنين يرد على سنان الدولة السلام »

فأمر سنان الدولة بغلق أبواب القصر ، ودار حوله سبع دورات ووقف البوابون لحراسة الأبواب ، وصدرت الأوامر بمنع الناس من المرور قرب القصر .

فلما أحس الخليفة بالهدوء ينشر ألويته على القصر والمدينة التف فى عباءة وتلثم بمنديل . وخرج إلى فناء القصر . وركب حمارة فصعد بها زلاقة تؤدى إلى بهو فى الجهة الخلفية من القصر فاجتازه إلى منظرة

تشرف على المدينة فتقدم إلى ذولاب خشبى كبير فى الحائط فخلع بعض أجزائه فظهر من خلفه ممر طويل فترك الدابة ودخله ، واجتازه حتى انتهى إلى سلم صغير فنزل فوجد سردابا طويلا فسار فيه مدة وإذا به يرى ضوءا خافتا فى نهاية السرداب ، وسمع صوتا يقول :

— من القادم

فنطق الخليفة بكلمة السر فلما وصل حيث يقف الحارس خلع لثامه فركع الرجل ، وقبل الأرض ثلاثا وقال : —

— السلام على أمير المؤمنين

فرد الخليفة السلام وسأله :

— أين آل شاور ؟

— إنهم فى الغرفة العاشرة من السرداب التالى يا أمير المؤمنين .

— وأين رئيس السجانين ؟

— قائم على حراستهم هناك يا أمير المؤمنين ،

— أدعه لأكلمه

فلما أتى أسر اليه الخليفة أمراً ثم عاد فى طريقه إلى غرفته الخاصة .

ظلت السماء تسكب دموعها غزارا طول الليل حتى خف عنها مابها ، وأحست بعض الراحة مما كانت تعانى فانقطع وابلها وصفت وزالت سحبها ، وبدت بعض النجوم فى ضوء ضعيف ترنو نحو المدينة وساكنيها حانية عليها وعليهم ، وكان القمر فى نهاية رحلته الشهرية فأشرق هلالا صغيراً قبل الفجر ، ولم يلبث إلا قليلا حتى مال نحو

الغروب ، وبدت تباشير الفجر أضواءاً باهتة ، فنفخ حراس القصر فى الأبواق معلنين نهاية الليل وقرب الصباح ، فانكمش حراس المدينة ناحية يغفون إغفاءة قصيرة تريحهم من عناء السهر ، وأخذت مشاعلهم تقلل من نورها بعد أن ظلت الليل كله تحترق لتنير وتقاوم مايهب عليها من ريح الشتاء وما يتساقط عليها من قطرات الماء .

واستمع سكان القاهرة لأبواق القصر تعلن اقتراب الفجر فتقلبوا فى فرشهم وهم يطاردون النوم عن أعينهم ، وسلطان النوم يغلبهم ، وأجسامهم تتراخى طالبة المزيد من النعاس بعد تعب اليوم السابق .

وخرج المؤذنون — كالأشباح — نحو مساجدهم ، وارتقوا المآذن يدعون الناس للصلاة ، فترك الناس دورهم وأسرعوا يجيبون الدعوة وانتهوا من صلاتهم وعادوا إلى منازلهم ، وقد انتشر نور الصباح ، وشاع فى المدينة ذات القباب والمآذن والقصور .

وأطفأ الحراس مشاعلهم وتركوا الأبواب لحراس النهار ، وفتحت الأبواب ليدخل الوافدون ويغادرها الخارجون ، وكان أول الخارجين من باب القنطرة جنديان من جنود الخليفة يحملان أوانى من الفضة مغطاة بقطع من الحرير .

كانت هذه الأوانى تحمل رؤوس الكامل بن شاور وآل بيته هدية إلى أسد الدين من الخليفة العاضد .

وعند الضحى وصلت رسل آخرون على رأسهم الأمير شمس الخلافة يحملون إلى أسد الدين خلع الوزارة ، وتقدم شمس الخلافة

يعرض الخلع على أسد الدين ويحلوها إليه قطعة قطعة وهو ينظر إليها مشدوهاً معجباً بجمالها ونفاستها والقواد حوله أشد إعجابا وأعظم شوقا لرؤيتها يتدافعون لمشاهدتها ويتبادلونها ويمسكون أطرافها ويمرون بأيديهم على زخارفها ، وشمس الخلافة مشغول بتقديمها ووصفها وهو يقول :

— هذه عمامة الوزير البيضاء المطرزة بالذهب من صنع تنيس

— وهذا ثوب الوزارة بطرازين من ذهب صنع فى دبيق — وهذه جبة تحتها سقلاطون ومعها الطيلسان ، والجميع يزينها طراز دقيق من الذهب ، وقد صنعت أيضاً فى دبيق ، وهذا عقد يحلى الوزير به جيده كله من الجوهر الخالص وقيمته عشرة آلاف دينار ، وهذا سيف الوزارة محلى بجوهر وقيمته خمسة آلاف دينار .

ثم ترك أسد الدين وصحبه فاغرى أفواههم فاتحى أعينهم وبعد قليلا فقاد فرس الوزير فمشت إلى جانبه تتهادى ، وتحنى رأسها ثم ترفعها متعاجبة ، والذهب والجوهر يحلى عدتها وأجزاء جسمها فيخطف لألأوها الأبصار ، وقدمها شمس الخلافة إلى أسد الدين وهو يقول :

— هذه الفرس بما يزينها هدية مولانا أمين المؤمنين إلى وزيره القائد الباسل أسد الدين .

وارتدى أسد الدين ما أرسل اليه من خلع وراح ينظر إلى نفسه معجباً بملابسه الجديدة ، وأحس فى نفسه بزهو وكبرياء لم يعهدهما من قبل فقال فى سريرته :

— إنى أعذر الآن شاور على تفانيه فى سبيل هذه الأبهة والخيلاء وما يتبعهما من عز وسلطان .

وخرج فامتطى الفرس وخلفه صـــلاح الدين والأمير شمس الخلافة وقواد الجيش الآخرون ، وسار الموكب مخترقا شوارع القاهرة وقد اصطف الناس على جانبى الطريق لرؤية الوزير الجديد ، والترحيب به . ووصل الموكب إلى القصر فدقت الطبول والكوسات ونفخ فى الأبواق ووقف الجند فى أجمل زينتهم تلمع سيوفهم ودروعهم لتحية الوزير الجديد ، ودخل أسد الدين ، وظل يجتاز غرف القصر وأبهاءه وهو لايكاد يصدق عينيه : ماهذه الروعة ، وما هذا الجمال . وما هذه الزينة ، وما هذا الترف ؟ ! !

وانتهى به السير إلى قاعة الذهب فوجد فى صدرها ستور الديباج تخفى وراءها سرير الملك ، فلما انتظم المكان جميع الحاضرين تقدم أحد الأستاذين المحنكين الخواص فوضع دواة الخليفة فى مكانها المعد لها ، ووقف الوزير الجديد أسد الدين — كما جرت العادة أن يقف كل وزير من قبل — إلى جانب باب المجلس وعن يمينه زمام القصر ، وعن يساره زمام بيت المال ، وحواليه الأمراء المطوقون أرباب الخدم الجليلة ، ويليهم قراء الحضرة ، ثم أشار صاحب المجلس إلى الأستاذين فرفع كل منهم جانب الستر المذهب الجميل المحلى بنحو ألف وخمسمائة وستين قطعة جوهر ذات ألوان مختلفة متباينة وظهر الخليفة جالسا على المرتبة المؤهلة لجلوسه فى هيئة جليلة على سرير الملك المذهب

وبدأ قراء الحضرة بقراءة بعض آى القرآن الكريم، وأحسنوا الاختيار فقرأوا قوله تعالى :

« قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير . . »

ثم تقدم الوزير فحيا الخليفة وقبل يديه وتأخر قليلا وجلس على مخدة مزركشة مذهبة طرحت على الأرض ، ووقف الأمراء فى أماكنهم المقررة فانتحى صاحب الباب وقائد العساكر ناحيتى الباب يمينا ويساراً وتلاهم من الخارج عند عتبة الباب زماما الفرقتين الآمرية والحافظية ثم من دونهم من الأمراء والقواد والأجناد إلى آخر السرداق المؤدى إلى قاعة الذهب ، وتقدم قاضى القضاة فرفع يده اليمنى مشيراً بسبحته علامة التحية ، وقال بصوت مسموع :

— « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » وتقدم بعده الأشراف أقارب الخليفة ومعهم زمامهم والأشراف الطالبيون وعلى رأسهم شيخهم فحيوا الخليفة ثم قدم العاضد منشور الوزارة إلى صاحب الباب ففضه وبدأ يقرأ :

« هذا عهد لاعهد لوزير بمثله من عبد الله ووليه أبى محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد الأجل المنصور سلطان الجيوش ولى الأئمة مجير الأمير أسد الدين أبى الحارث شيركوه العاضدى عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته ،

سلام عليك فإنه يحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ويسأله أن يصلى على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين والأئمة المهديين وسلم تسليما ، تقلد أمانةً رآك أمير المؤمنين أهلا لحملها ، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة واسحب ذيل الفخار بأن إعتزت خدمتك إلى نبوة النبوة واتخذه سبيلا للفوز سبيلا »

فلما أتم قراءة المنشور لفه بشريط من حرير وناوله للوزير فقبله وتقدم فقبل يدى الخليفة العاضد وشكره على هذا الإنعام ووعده أن يبذل الجهد فى خدمة أمير المؤمنين وخدمة مصر وأهلها والدفاع عن بلاد الإسلام . ثم تقدم الحاضرون فئة بعد فئة لتهنئة الوزير .

وصدر الأمر للحاضرين بالخروج فخرجوا واحداً بعد الآخر ووجوههم إلى الخليفة حتى يصلوا إلى الباب فينحنون ثلاثا ويرفعون أيديهم إلى رؤوسهم وينصرفون ، وكان آخر الخارجين الوزير أسد الدين ، فترك القصر وعاد فى موكب جليل من جنوده وجنود مصر إلى أن وصل إلى دار الوزارة ، ولشد ما كانت دهشته عندما رأى الدار خاوية خالية من جميع أثاثها وزينتها حتى أنه لم يعثر على أريكة أو كرسى يجلس عليه فنظر إلى صحبه وقال :

لقد أطاع العامة الأمر طاعة عمياء فنظفوا الدار من كل ما كان يشوبها أو يزينها . إن هذا ولا شك فأل حسن فلنبدأ عهداً جديداً أو لنعد أثاثا جديداً .

القاضى الفاضل

استيقظ عبد الرحمن مع الفجر فترك فراشه وقام إلى نافذة غرفته ففتحها وراح يطل منها على أطلال الفسطاط حول كوخه الصغير فيحس بعض الوحشة الممزوجة بالحنين ، لقد فر من المدينة عندما احترقت ، ولجأ إلى منزل صديق له بالقـــاهرة ، ولـكنه لم يكد يسمع الوزير أسد الدين يدعو الناس للعودة إلى الفسطاط حتى كان أول العـائدين يدفعه الحنين إلى هذه المدينة الحبيبة إلى نفسه ويسوقه الشوق اليها .

وإنه ليذكر الآن موكب أسد الدين يمر فى طرق المدينة وخططها منذ أيام ليشاهد مافعلت النيران بمبانيها ومساجدها ، وإنه ليذكر أيضا كيف كان يدعو الناس للعودة إلى مساكنهم ، ويشجعهم بالمال يعطيه لهم ، ويعدهم أنه سيعنى بإصلاح ماأفسدته النيران ، وما أتلفه النهابة .

وعاد مع العائدين صديقه أبو الحسن ، وبدأ حياته القديمة يجلس إلى صبيان المدينة فى الصباح يحفظهم القرآن ، ويقصد إلى تاج الجوامع بعد الظهر فيصلى العصر ، ويسقى الماء المزهر ، ويستمع لوعظ الوعاظ ودروس الفقهاء .

وكان نسيم الربيع المنعش الجميل يهب على وجهه فيحس بالحياة تملأ نواحى نفسه ، والأمل يشيع فى جنباتها ، وراح ينظر إلى الدور حوله وقد علاها السواد من أثر الحريق فبدت كالأشباح الحزينة ، واستعاد

فى نفسه صورة المدينة الزاهرة الزاخرة قبل أن تشوه جمالها ألسنة النار ، واستعاد مايحفظ من شعر قاله الشعراء يتغنون بمدحها ويفتنون فى وصفها ، وأخذ يغنى بعض هذا الشعر بصوت خفيض ، ويعيد الغناء :

من شاهد الدنيا وأقطارها والناس أنوعا وأجناسا
وما رأى مصر ولا أهلها فما رأى الدنيا ولا الناسا

وبدت تباشير الفجر ، وسمع بعض الديكة تصيح فى دار قريبة ثم سمع صوت المؤذن ينبعث من ناحية مسجد عمرو يدعو الناس للصلاة فأسرع فتوضأ ، وخرج يهرول نحو المسجد ، وأدى الفريضة . وفى عودته قابل صديقه أبا الحسن فصحبه إلى داره ، غير أن عبد الرحمن لاحظ أن صاحبه يكثر من الصمت والتفكير فسأله :

— مالك مكتئبا ياأبا الحسن ؟

فقال أبو الحسن والدموع تترقرق فى عينيه :

— إن أسد الدين يحتضر .

فارتاع عبد الرحمن وذعر لهذا الخبر فقد رأى أسد الدين منذ أيام قليلة فى الفسطاط يجوب انحاءها ، ويتفقد مبانيها ، وتجديد الأجزاء التى أكلتها النار من مسجد عمرو ، وكان أسد الدين يومذاك صحيحا قويا ، فلم يصدق عبد الرحمن ماسمع وأعاد جملة أبى الحسن مستفسرا .

— تقول أن أسد الدين يحتضر؟!

— أجل . فقد أصابه الخناق الليلة فعاده ابن السديد طبيب الخليفة وأنبأنا أنه لا فائدة من العلاج فسيوافيه الحمام بعد ساعات .

فأحس عبدالرحمن بالحزن يملك عليه نفسه ، ويطغى على قلبه ، وقال :

— مسكين أسد الدين ، لقد ناضل كثيراً ، ولم يكد يصل إلى مبتغاه حتى أدركه الموت ، إنه لم يمض عليه فى الوزارة غير شهرين .

— ليس المسكين هو أسد الدين فقد أدى واجبه . المسكينة مصر ياعبد الرحمن ، من يدرى كيف تمر بهذه المحنة ؟ والله لوعاد الأمر للخليفة لتحكم رجال القصر وعادت الفوضى إلى البلد .

وسكت الرجلان وطال بهما السكوت ثم نظر أبو الحسن إلى صديقه وقال :

— هيا بنا ياعبدالرحمن إلى القاهرة ، إنى لا أطيق الانتظار هنا .

وخرج الصديقان وسارا يسرعان الخطى فى طريقهما إلى القاهرة ، واجتازا باب زويلة وقربا من دار الوزارة وإذا بهما يسمعان صراخا داويا ، وأصوات النعى تملأ الجو حولها ، فوقف أبو الحسن وقال وعبد الرحمن فى صوت باكٍ :

— لا حول ولا قوة إلا بالله — إنا لله وإنا إليه راجعون .

وقال أبو الحسن :

— رحم الله أسد الدين فلقد كان والله عفيفاً دينا كثير الخير شجاعا جلدا شديدا على الكفار

وقصدا إلى دار الوزارة فوجدا الكل يبكون الفقيد بعيون تملأها الدموع ، وقلوب يملأها الحزن والألم لموت الوزير الشهم والقائد البطل ؛ ولبست المدينة كلها عليه الحداد ، وخرج سكان القاهرة والفسطاط

جميعاً وراء نعشه يودعونه الوداع الأخير ، وكان أشد الناس بكاء عليه الفقراء والمساكين لما غمرهم به من عطف وبر وإحسان .

* * *

وُورى الرجل فى التراب ، وعاد الناس جماعات يتحدثون عن فقيدهم البطل ويروون أحاديثه ويعدون مناقبه ويطلبون له المغفرة والرحمة من ربه ، وعاد معهم القاضى الفاضل عبدالرحيم البيسانى وحيدا يذرف الدمع سخينا على صديقه أسد الدين ، وخلا بنفسه فى داره حزين النفس منقبض الصدر يفكر ويقدر ، ويعيد التفكير والتقدير ، وتذكر ماضيه البعيد منذ وفد على مصر : تذكر أنه أتاها فى عهد الخليفة الفاطمى الظافر يطلب العلم والعمل والرزق فعمل أول ماعمل فى ديوان الإسكندريه ، واتصل هناك بكاتب انشائها الرشيد بن الزبير الأسوانى ، وكانت تصل الكتب من الإسكندرية إلى القاهرة مدبجة ببراعه الصناع مما أثار نفوس الكتاب بديوان الانشاء فى القاهرة فراحوا يدسون له لدى الخليفة ويتهمونه بالتقصير ، ولكن الرشيد بن الزبير دافع عنه فى إخلاص حتى طلب إليه الخليفة الظافر أن يرسله ليكون أحد كتابه .

وتذكر القاضى الفاضل أيضاً أنه اتصل بعد قدومه إلى القاهرة بكاتب الانشاء الفذ ابن قادوس الدمياطى فتتلمذ عليه وأخذ عنه طريقته ، وكان يعجب بشعره ونثره ، وظل يؤدى عمله الحكومى وهو يرقب الحوادث فى مصر دون أن يدلى فيها بدلوه غير أنه كان يتألم أشد الألم للنزاع الدائب المستمر بين رجال الدولة ووزرائها .

لقد رأى كيف يقتل بعضهم بعضا فى سبيل السيادة فقتل طى بن شاور العادل رزيك ، ثم ملك شاور فاختصه الكامل ابنه بالرعاية وجعله كاتبه ، وقد جرّت عليه هذه الرعاية الويل والثبور فكانت السبب فى سجنه تسعة أشهر مدة وزارة ضرغام ، فلما عاد شاور أفرج عنه ، غير أنه ظل يقيم فى ديوان الإنشاء بين أشواك من الغيرة والحسد والدسائس يدبرها له إخوانه من كتاب الديوان فقد كانوا يتألمون لتفوقه عليهم فى فن الكتابة ، ولتقدمه عليهم لدى الخليفة والوزراء ، وكان يحس فى كل لحظة قرب أجله لما كان يراه من قتل شاور لرجالات الدولة وزعمائها لاتصالهم بأسد الدين وجيشه ؛ ولولا اتصاله بالكامل لكانت قد وافته المنية منذ سنوات ، أجل الكامل ، رحمه الله وغفر له وكتب له الجنة ، لقد كان نعم الرجل ، لم يكن جشعا كأبيه . كان أبوه يفضل الفرنج على المسلمين ولكنه كان يعارض أباه ويناضله كثيراً فى سبيل هذه الفكرة ، وإن القاضى الفاضل ليذكر لهذا الشاب سعيه المجيد معه للاستنجاد بنور الدين عندما وصل الفرنج إلى جنوب الفسطاط ، وإنه ليذكر له ما يتناقله الناس من أطراف الحديث الذى دار بينه وبين أبيه إذ كان أبوه يدبر المكيدة للقضاء على أسد الدين ورجاله ، والكامل يحذره ألا يفعل وينذره أن يبلغ أسد الدين لو فعل ، ويقول ليقنع أباه : « لأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج » مسكين هذا الشاب ، لقد كان يستحق

كل إكرام وإعزاز ، ولكن الخليفة جازاه جزاء سنمار فقتله وهو الذى يستحق أن يمجد ويخلد ذكره . .

كانت هذه الصور تتابع على رأس القاضى الفاضل سريعة يدعو بعضها البعض الآخر فهى سلسلة تجاريبه ومشاهداته ومعرفته بالرجال منذ وفد إلى هذا البلد الطيب ، وانتهت به الذكريات إلى يوم أن تولى أسد الدين الوزارة فتذكره وقد استدعاه إلى دار الوزارة ليلا وجلس يستعرض وإياه أحوال مصر ومشروعات الإصلاح التى ينوى تنفيذها ، فلما انتهى بهما السمر قال له أسد الدين :

— إننى أقصر لك أيها القاضى الجليل حسن بلائك فى سبيل مصر والإسلام ، وقد أطراك عندى كثيراً صديقى وصديقك الفقيه عيسى الهكارى ، ولهذا فقد عولت على أن أطلبك من الخليفة لتكون كاتب إنشائى .

ولكنه خشى إن طلبه أسد الدين بالاسم أن يشك الخليفة فى أمره فيمتنع أو يكيد له فقال :

— أنا شاكر لسيدى القائد حسن ظنه وجميل ثقته غير أننى أرجو ألا تنص على اختيارى بل أطلب من الخليفة كاتبا للإنشاء ، وأنا على يقين أننى سأكون كاتبك .

وقد صدق ظنه فإن الخليفة أرسل طلب أسد الدين إلى ديوان الانشاء ففرح به كتاب الديوان أيما فرح ، واتفقوا جميعا على اختيار القاضى الفاضل عبد الرحيم محتجين بأنه أسلسهم عبارة وأبلغهم قولا

وأجلهم إنشاء ، غير أنهم كانوا يتبادلون القـــول سراً . . ليذهب عبد الرحيم فإنا لنرى أن أجلى هذا الوزير قصير كآجال الوزراء الذين سبقوه ولو أنه قتل فى الغد لقتل معه كاتب انشائه فنستريح منه ومن لجاجه ومناقشته » .

واليوم قد تحقق ظنهم فقضى أسد الدين نحبه ، وإن كان لم يقتل ولـكنه كان يقيم فى داره حينذاك على خوف يخشى جيش مصر ورجال القصر وأن يثوروا بجيش أسد الدين ويستنجدوا ثانية بالفرنج ويخشى أن يدب النزاع فى نفوس جند أسد الدين فيختلفون ويتفرق شملهم ويخشى دس من يحسدونه ويدبرون له المكائد واستعاد أمام ناظريه صور الرجال فى مصر وأخذ يخمن : ترى من يخلف أسد الدين فى الوزارة . . . إن قواد الجيش المصرى معظمهم من العبيد السود ولا فضل فيهم . . وقواد أسد الدين كثيرون ، ولـكن ليس فيهم غير رجل واحد هو صلاح الدين فإنه يبشر بمستقبل عظيم فهو شجاع جسور وهو صريح جرىء وفيه الـكثير من صفات وأخلاق أستاذه نور الدين وعمه أسد الدين ؛ ولـكن صلاح الدين شاب وأنداده من القواد رجال يفوقونه سنا وتجارب فكيف يرضون به وزيراً وزعيما عليهم .

ظل القاضى الفاضل يفكر ويطيل التفكير فى هذه الأمور جميعا ولم يوقظه من هذا التفكير إلا صوت جندى جاء يدعوه لمقابلة الخليفة العاضد فذعر وعاد إليه خوفه ولـكنه سرعان ما استعاد شجاعته وعادت إليه رباطة جأشه وخرج مع الرسول وهو يقول فى سريرته :

— اللهم أعنى بقوة من عندك ووفقنى لما فيه الخير لهذا البلد الطيب

ولشد ما طغى السرور على نفسه عند ما أنبأه الخليفة أنه استدعاه ليستشيره فيمن يراه أهلا لأن يخلف أسد الدين فى الوزارة بحكم اتصاله بجند أسد الدين وقواده الشهرين الفائتين

ولم يتردد القاضى الفاضل فى إعلان رأيه بصراحة وتأييده بقوة وحرص غريبين فقال :

— ياأمير المؤمنين ، إن هذا الجند الوافد قوتك وعتادك فاركن اليهم واختر منهم وزيرك وعضدك وكفى ما قاسيت وقاست البلاد من الوزراء الفائتين ، وفى هذا الجند قواد عظام ذوو بأس وشدة وشجاعة وحسن رأى وإحكام وتدبير ، غير أننى اختار لك ابن أخى أسد الدين : صلاح الدين . فهو شاب صغير تستطيع أن تصطنعه لنفسك ، وتوحى إليه برأيك فيكون لك كيمينك تحركها بإرادتك لتنفذ بها رغباتك ، أما من عداه فرجال مكتملو الرجولة كبار السن معتدون بشجاعتهم وأنفسهم ، وما أخشاه إن وزر أحدهم أن يعيد سيرة ضرغام وشاور فيستبد بالأمور دون مولاى أمير المؤمنين

وحاز هذا القول القبول لدى العاضد ورضى عنه كل الرضاء فقد وافق رغبات نفسه فقال :

— رأيك الرأى ياعبد الرحيم ، وصلاح الدين هو من كنت أعد العدة لاختياره .

ثم أطرق لحظة وقال :

— ولكننى أخشى ياعبد الرحيم . . .

وسكت ففطن عبد الرحيم ما يقصده وقال :

— أعلم ما تخشاه ياأمير المؤمنين ، ولكن دع هذا الأمر لى ، فإنى سأستعين برجل من رجالهم لاقناع قوادهم بأفضلية هذا الاختيار . .

— ومن يكون الرجل ؟

— إنه الفقيه عيسى الهكارى فهو قائد منهم يحبونه لشجاعته وهو فقيههم وإمام أسد الدين ، فهم يقدرونه لفضله ودينه وتقواه وإحكام تدبيره

— إنك تحسن اختيار الرجال أيها القاضى — إنى أعرف هذا الرجل ألا تذكر أنه هو الذى حمل رسالة نورالدين إلينا واعدا بإرسال النجدة الأخيرة . . . إنى تحدثت إليه ، واستمعت منه وقدرته منذ ذلك الحين كل التقدير

ووقف الخليفة إيذانا بانتهاء المقابلة وقال :

— سأرسل فى الغد إلى صلاح الدين فأخلع عليه وأوليه الوزارة وعليك أنت أن تسعى سعيك لينجح تدبيرك ، والله يوفقنا ويرعانا

أبو الحسن يعود إلى وكره بعد طول الجهاد

وسعى القاضى الفاضل إلى الفقيه عيسى ، وانفرد به فأسر إليه بما كان بينه وبين الخليفة العاضد فوجد منه أذنا صاغية ونفساً راضية بما تم الاتفاق عليه ، ووعده الفقيه عيسى أن ينفرد بالقواد فى غده قائداً قائداً ليقنع كلا منهم بأحقية صلاح الدين ، وأفضلية اختياره على أن يوافيه فى المساء ليدلى إليه بنتيجة سعيه .

وتركه القاضى الفاضل فذهب إلى داره وظل طول يومه ينتظر صديقه وهو على أحر من الجمر يقدر ، ويأمل ، ويخشى ، فلما انقضى من الليل بعضه دق باب داره وفتح وكان القادم الفقيه عيسى ، فأقبل عليه الفاضل يسأله فى لهفة

— أهلا صديق . طمأن قلبى ، هل نجحت فى سعيك .

فجلس الفقيه عيسى وقال :

— نجحت والحمد لله ، ولكن . .

— ولكن ماذا . . . إنى لا أطمئن لهذا اللفظ

— لا . لا تخف . إنى أريد أن أقول إنى نجحت ولكن بعد جهود مضن متعب

فاعتدل القاضى الفاضل فى جلسته وانفرجت أسارير وجهه وشاع السرور فى نفسه وبدا فى ضحكة عريضة وقورة ضحكها

وقال :

— لا بد للعسل من إبر النحل ياصديقى — ارو لى ماحدث بالتفصيل

— كان المجهود الأكبر هو الذى بذلته لإمتناع صلاح الدين نفسه فقد أبى أن يلى الوزارة وأصر على إبائه لأنه كان يخشى أنداده القواد وكان يتهيب أن يحمل العبء الذى ناءت به العصبة ذوو البأس من الرجال قبله ، ولكننى ما زلت به أحاوره وأداوره حتى رضى واقتنع ، والحق أقول إن الفضل كل الفضل فى إقناعه يرجع لذلك الرجل الغريب أبى الحسن المصرى . إن هذا الشيخ غريب الأطوار يختفى أياما فلا تراه ثم إذا به كالنجم الثاقب أو البدر المضىء يظهر فى أشد الليالى ظلاما واعظم الأوقات عسرا فيبدد الظلام وينشر النور ، ويبدل العسر يسرا فقد وجدته عند صلاح الدين يعزيه فى عمه فلم أتردد أن أدلى للصلاح برغبة الخليفة وهو موجود لأستعين به ، فلم يكد يسمع قولى ، ومعارضة صلاح الدين حتى انبرى يفند أقواله ويرد حججه ويسوق إليه الدليل تلو الدليل ، والبرهان اثر البرهان فى حصافة وفصاحة وقوة بيان حتى لان صلاح الدين وخضع واقتنع وخرجت من لدنه أسعى وقد اتسعت أمامى آفاق القول بعد ما سمعت فقصدت إلى سيف الدين على بن احمد ابن المشطوب فقلت له : « أظنك لاتعارض فى أن يكون صلاح الدين خلفا لعمه فى الوزارة لأننى أعتقد أن هذا الأمر لا يكون لك مع وجود عين الدولة بن الياروقى ، وشهاب الدين الحارمى . وصلاح الدين شاب صغير قليل التجارب يقدرك ويجلك واظن انه لا يستبد بالأمور

استبداد هذين لو وزر أحدهما » فأعجبه قولى ، ووافقنى على رأيى

وتركته إلى شهاب الدين الحارمى خال صلاح الدين وأكثر القواد أعوانا وأنصارا فذكرت له أن العاضد هو الذى اختار صلاح الدين ليكون وزيره « وصلاح الدين ابن اختك ، وملكه لك وقد استقام الأمر له فلا تكن أول من يسعى فى اخراجه عنه فلا يصل إليك » وما زلت به أناقشه وأقارعه الحجة بالحجة حتى أحضرته عند صلاح الدين فحلف له .

وذهبت إلى قطب الدين ينال فمهدت له فى الحديث تمهيدا ليحسن استقبال رأيى فلما لان قلبه قلت له « لقد دان الجميع بالولاء لصلاح الدين وحلفوا له ولم يبق إلا أنت وعين الدولة الياروقى ، وأراك لا تنسى أنك كردى وصلاح الدين كردى مثلك فخير لك أن يكون الوزير من جنسك حتى لا تنتقل الوزارة إلى قائد من الترك » فصدق على قولى وأعجبته حجتى فخضع وأطاع .

وسكت الفقيه قليلا ، ومد يده إلى وردة جميلة تطل من بين أزهار مختلفة تضمها زهرية من الصينى المنقوش وضعت على كرسى قريب منه ورفع الوردة إلى أنفه ، وأنشأ يستنشق شذاها العبق مرات ثم قال :

— لقد اقتنعوا جميعاً ودانوا بالولاء لصلاح الدين إلا ذلك الرجل المعتد بنفسه وأعوانه :

— ومن هو ؟

— عين الدولة الياروقى ، إننى طرقت جميع الأبواب ، واستعنت بجميع الآراء لأكسب هذا الرجل إلى جانبنا ، فهو أكبر الجماعة ، وأكثرها جمعاً ، ولكنه أبى واستكبر وقال : « أنا لا احترم يوسف أبداً » فلما قلت له « لقد خضع الجميع وأطاعوا » أجاب

« ليخضعوا وليطيعوا أما أنا فسأعود برجالى إلى نور الدين . »

فقال القاضى الفاضل :

— لقد أحسن صنعا بهذا العزم لأنه لو بقى ولم يدن لصلاح الدين لأعيدت الرواية القديمة ولظل النزاع بين الرجلين ، وقد سئمنا نزاعا ونضالا فى سبيل الوزارة .

ثم نظر إلى صديقه نظرة كلها إكبار وإجلال وتقدير وقال :

— إن هذه يدلك ياعيسى ، وجميل سيذكره لك المصريون ، وسيذكره لك الاسلام ، وسيذكره لك صلاح الدين .

فخجل الفقيه عيسى لهذا الاطراء ، وقال فى تواضع الفقهاء :

— استغفر الله ، إنك وأبا الحسن صاحبا الفضل الأكبر ، فإنه لولا اختيار العاضد لصلاح الدين اتباعا لمشورتك ، ولولا اقناع أبى الحسن لصلاح الدين حتى قبل الوزارة لما كان لمسعاى قيمة .

* * *

أرسلت الخلع إلى صلاح الدين ورجاله فى اليوم التالى ، فارتداها وركب الحجر التى أهداه إياها الخليفة العاضد وهى من مراكبه الخاصة

وقيمتها ثمانية آلاف دينار ، ولم يكن بالديار المصرية أسبق منها ، وخرج من دار الوزارة فى موكب عظيم فى مقدمته جنوده وقواده ، وفى مؤخرته جنود المصريين وقوادهم والجميع يحملون أسلحتهم من سيوف قواطع ، ودبابيس ، ورماح ، وسهام ، وأصحاب الطبول يدقونها والمنفرون ينفخون فى الأبواق ، وزينت البلد زينة جميلة ، وافتن الشعب فى إظهار فرحه باختيار الوزير الشاب الجديد فزينوا الدور والدكاكين بالأعلام والأزهار ، واصطفوا على جانبى الطريق لرؤية الموكب والترحيب بالشاب الصغير الشجاع ، وقد أصبح وزيرا ، ووصل الموكب إلى القصر الكبير واتجه صلاح الدين وخاصته إلى الديوان حيث حظى بمقابلة الخليفة العاضد ، وتناول المنشور بتوليته الوزارة ثم عاد فى موكبه وأفراد الشعب يلحون فى إعلان فرحهم وسرورهم وقد انتشروا جماعات يغنون ويرقصون ويلعبون .

وهو ينثر عليهم الدراهم والدنانير ليزيدهم فرحا ويدخل السرور على قلوبهم بعد أن ران عليها الحزن ، وطال بهم الضنك أياما وسنين ، ووصل إلى دار الوزارة فجلس يستقبل الوفود والمهنئين ويستمع اليهم وهو لايكاد يعى أكثر مايقولون فقد بهرته أبهة الملك وزينة الوزارة وأثر فى نفسه أشد التأثير هذا الشعور الفياض الذى قابله به المصريون وكان يتهيب ماهو مقدم عليه ، وماألقى على عاتقه من عبء ثقيل ناءت به رجال ورجال هو دونهم سنا وتجارب ، فإنه الآن شاب فى الحادية والثلاثين من عمره لم يبل من الحياة إلا بعض نواحيها ولم يخض من

معاركها إلا ما كان صريحا واضحا فى الميدان بين الجندى والجندى ، ولكنه الآن مقبل على معارك أخر من نوع جديد لم يألفه فهى معارك قوامها السياسة وتدبير أمور المملكة ورعاية شعب يستحق الرعاية فأنى له العلم ببواطن هذا الفن كله ، إن حوله رجالا اشتاتا يختلفون عناصر وأجناسا ومشارب وغايات ويتباينون نشأة وتربية ونفوسا واستعدادا وعليه أن يرضيهم جميعا ، فالخليفة سيد البلاد وصاحبها وهو شاب صغير يجتاز دورا خطيرا تحكمه فيه عواطفه وأهواؤه وقد عاش عمره حبيس جدران القصر يسيطر عليه رجال هذا القصر ويستبد بأموره وزراء متتابعون متناضلون كانت تحكمهم وتسيرهم أطماعهم البشرية الدنيا ولهذا الخليفة جيش بعضه من المصريين وأكثره من المغاربة ذوى الصلف والسودانيين الهوج ، وقد أفنى الوزراء فى نضالهم خيرة رجاله وأبطاله وتحت أمره جيش من الأتراك والأكراد وفيه قواد بواسل وجنود أشاوس ولكنهم رضوا به اليوم وزيرا على كره منهم ففيهم من يرى نفسه أحق منه وأولى بهذا المنصب ، ووراء هؤلاء جميعا شعب مكد كادح يعيش فى أطراف القرى وأقاصى الريف وفى المدن الكبيرة يسعى لرزقه ويبنى حضارته وتاريخه لبنة لبنة قد أضنته الحوادث الأخيرة وأنهكه الوزراء فسلبوه خيراته وأموالـه ، وامتصوا دمه ودماء حياته فهو عطش إلى جرعة وجرعات من العدل ويتمنى أن يوفقه الله إلى حاكم بار يرفق به ويزيل هذه الغشاوة عن عينيه ويمهد له حياة راضية مرضية تسودها الطمأنينة ويشملها الأمن والسلام ليقدم

له أرواح شبابه وما يملك من قوة ومال وعتاد وتأييد ليقوده نحو النصر والفوز ويسود به فهو يعشق السؤود .

كانت هذه الصور المتباينة تمر أمام صلاح الدين فتشغله عن المجد الذى سعى اليه سعيا وعن وفود المهنئين الذين يكيلون له آى المديح والتهنئة نثرا وشعرا فإذا أفاق من غيبوبته إثر حركة قادم أو خارج وأنصت لبعض مايقال تبرم به واشمأز فإنه يعتقد أن هذا الكلام بعينه قيل لعمه أسد الدين منذ نحو شهرين ولابد أنه قيل لشاور ولضرغام ولرزيك ومن سبقهم من الوزراء لأن رجال الدولة يجيدون القول ويحسنون التعبير ولكنهم لايخلصون ولايفون ، إن هذا الشعب الذى يصيح فى الخارج مهنئا فرحا هو أصدق منهم قولا وعواطف وأوفى منهم عهدا لمن يخلص له من الحكام ، وود صلاح الدين حينذاك لو اتيحت له الفرصة فترك هؤلاء القوم من كبار الرجال يلوكون أقوالهم الجوفاء، وخرج الى هذا الشعب وسار فى مقدمة مواكبه الزاخرة يحدث أفراده ويستمع إليهم وإلى شكواهم ويعدهم ويمنيهم ، ولكن التقاليد ورسوم الحكم منعته فبقى وأعاد النظر إلى من حوله وفحصهم رجلا رجلا فكان يمر بهم مر الكرام إذ يجدهم كالخيل المسوقة تزينهم الملابس المزركشة ولاقيمة لهم بدونها إلى أن استقر نظره على جماعة قليلة انزوت فى ركن قصى بعيد من أركان الغرفة يتحدثون فى همس وهم القاضى الفاضل والفقيهان عيسى الهكارى وزين الدين المصرى وأبو الحسن المصرى فعاد إلى نفسه بعض مافقد من ثقة واطمأن قلبه وعلا السرور

وجهه ، فقد رضى بهذه الفئة من الرجال تعينه على أمره وترشده إذا تشعبت به السبل ، أو أظلم الطريق ، وانتظر حتى انصرف الجمع وعاد إلى الغرفة هدوؤها فأشار على هؤلاء الصحب بالبقاء ، وانشأ يحدثهم ويستمع اليهم ، والوقت يمضى وهم لايحسون به إلى أن قال أبو الحسن:

— سيدى الوزير ، أنا أريد أن أقول وأن أهنىء ولكن السرور إذا طغى على النفس أصبح اللسان عيا فلا يستطيع بيانا

فنظر إليه صلاح الدين نظرة تنطق بالشكر وقال :

— شكرا ياأبا الحسن . أنا أعلم الناس بقلبك ، وإنى أريد أن أفيك بعض حقك ، وهيهات أن أستطيع ، فهل لك من رغبة فأقضيها

— أجل يابنى . . واسمح لى أن أناديك بهذا النداء العزيز لدىّ والذى لم أنادبه أحدا منذ سنين

وخنقته العبرات فسكت وتساقطت دمعتان على خديه وانحدرتا على شعر لحيته فعجب الحاضرون ، وتألم صلاح الدين وقال :

— ماهذا ؟ أتبكى ياأبى الحسن. أرجو ألا أكون قد أسأتك بكلماتى.

ومسح أبو الحسن الدمعتين بيده ومر بأصابعه خلال شعرات لحيته وقال :

— كلا يابنى — وإنى لأعيدها فقد ذقت عذوبتها بعد أن حرمت قولها هذه المدة الطويلة — إنك لم تسأنى حفظك الله من كل سوء ، ولكننى تذكرت فبكيت ، تذكرت ابنا لى مات وهو شاب فى مثل سنك بعد أن كان كالزهرة العبقة الشميم وخلانى وحيدا أمضغ حزنى وآكله .

ثم سكت لحظة وقال :

— وتذكرت أيضا عمك البطل أسد الدين وقد قضى بالأمس أحوج مانكون إليه .

فبكى الحاضرون لبكاء أبى الحسن ، وتندت عينا صلاح الدين بالدموع وقال :

— ما كنا نعلم شيئا عن حزنك ياأبا الحسن آجرك الله وأحسن عزاءك ، ولكن ماهذه الحاجة ياوالدى .

— انها حاجة يسيرة . فإنى أرجو أن تسمح لى بالسفر إلى بلدى دمياط لأقضى هناك مابقى لى من أيام فإنك ترى أننى قد وهن منى العظم واشتعل الرأس شيبا ، وأنى أحس أن نهايتى قد قربت ، ولقد تركت دمياط مسقط رأسى وأنا لاأنوى العودة إليها ، ولكن الله أكرمنى وحقق لى الكثير مما كنت أرجو فشعرت بالحنين يناديني أن أعود إلى بلدى .

— ولكننى فى حاجة إليك ياأبا الحسن وإلى اصالة رأيك وحسن توجيهك وإخلاصك ، فالبلد بلدك ، أهله أهلك ، وأنت أعرف برغباتهم وشكاياتهم منا .

— إن شكاياتهم تصرخ من الظلم ، وإن رغباتهم تطلب العدل فارضهم ، وأعد السكينة إلى نفوسهم يؤيدوك بخلاصة أرواحهم .

— وما السبيل إلى إرضاء المصريين ياأبا الحسن ؟

— إننى أرى أن أول مايجب عليك يابنى أن تسعى لإطلاق سراح

من أسر منهم ، فإن الفرنج أسروا فى غارتهم الأخيرة أهل بلبيس وغيرهم من المصريين وقد عادوا بهم إلى بلادهم .

— هذا صحيح ، وسأخصص مُغل بلبيس على كثرته لفكاك هؤلاء الأسرى ، وسأعفى أهل هذه البلدة من دفع الخراج مدة حياتى .

— نعم ماتفعل أيها الوزير فإنك بذلك تملك قلوب الأهليين . وهناك أيضا مكوس كثيرة تبهظ المصريين وحبذا لو أعدتم النظر فيها فأبطلتم بعضها ، وأنقصتم البعض الآخر .

فقال صلاح الدين :

— هذا ماعقدت العزم عليه، فقد شكا الناس إلى عمى أسد الدين رحمه الله أمر هذه المكوس ، وكان قد أعد العدة لوضع مائة ألف دينار ممايستخرج من المكوس بديوان الصناعة بمصر ، ومائة ألف دينار أخرى ممايستخرج من بعض الجهات القبلية والبحريه ؛ ثم نظر إلى القاضى الفاضل وقال :

— وإنى أرجو أيها القاضى أن تكتب فى الغد سجلا بوضع هذه المبالغ لنرسله إلى جميع بلاد مصر ليقرأ على المنابر .

وتقدم عند ذاك الفقيه زين الدين ، وقال :

— إننى أشكر الله الذى وهبك هذا الملك، وأتوقع أن نرى الخير جميعا وهو يغمرنا فى عهدكم الزاهر إن شاء الله ولا غرو فإن هذه بداية طيبة ، والكتاب يقرأ من عنوانه ، ولكن هل يسمح لى سيدى الوزير أن أطلعه على مظلمة لورفعها لكسب الأجرين فى الدنيا والآخرة.

— قل أيها الفقيه فإنى عاهدت الله أن أفعل كل مافيه الخير لهذا البلد وأهله .

— إن هذا الخير بعضه لأهل مصر ، ومعظمه للمسلمين عامة فقد جرت العادة أن يؤخذ من الحجاج فى عيذاب مكس مقرر وضريبة مفروضة منهم يلاقون من الضغط فى استيفائها عنتاً جماً ، ويسامون خسفا وعسفا ، وربما ورد منهم من لافضل لديه على نفقته أولا نفقة عنده فيلزم أداء الضريبة المعلومة وقدرها سبعة دنانير ونصف دينار فإذا عجز عن الأداء تناوله الجباة فى عيذاب بأليم العذاب .

فعجب صلاح الدين لهذا الأمر وسأل الفقيه :

— وفى أى الوجوه تصرف هذه الضريبة .

فقال زين الدين

— إنها تجمع لميرة مكة والمدينة .

فزاد عجب صلاح الدين ونظر إلى صديقه عيسى الهكارى وقال :

— أترى ياسيد عيسى ؟ إن هذ لهو العجب ؟ يجمعون الأموال ممن لامال معهم من حجاج بيت الله الحرام ليميروا به مكة والمدينة، هل ترى هذا من الصواب فى شىء ؟

فأحس الفقيه بأن صلاح الدين يستشيره ويطلب رأيه فقال :

— لا أيها الوزير إن هذا لهو الخطأ بعينه والرأى أن تقدموا على الغاء هذه الضريبة ، ومن الممكن أن توقفوا مايجبى من جهة من الجهات على ميرة هاتين المدينتين المقدستين .

وأمّن القاضى الفاضل على رأى الفقيه عيسى وقال :

— نعم الرأى مارأى ياسيدى الوزير فبه يرفع الظلم عن الحاج ويصل الخير إلى سكان المدينتين وتجزون على هذا وذاك الأجر من الله والدعاء من الرعية .

فاغتبط صلاح الدين لهذا القول وقال :

— أنت سلاحنا لرفع المظالم ياسيد عبد الرحيم فاكتب بهذا أيضا منشوراً فى الغد .

ونظر إلى أبى الحسن فوجد البشر يعلو وجهه ، والفرح يبدو فى بريق عينيه الباهت من فعل السنين ، وقال :

— وبعد ، أما من حاجة أخرى فنسرع لقضائها يا أبا الحسن فإنك ترشدنى إلى الخير وتجلب لى رضاء الله

فتردد أبو الحسن قليلا ولكنه أقدم فقال :

— لتغفر لى جرأتى يا بنى إن قسوت فى القول . إنك ستلى حكم هذا البلد وهذا الشعب ، وستجد حولك أعواناً ورجالا ، وستحس نشوة الحكم ولذته وستستمع إلى أقوال وآراء معظمها غث وقليل منها السمين الذى يفيد، فنصيحتى إن كان لى أن أتقدم بها أن يكون اعتمادك على هذا الشعب ، وأن توفر جهودك لخدمته فإنك تلقى العون كل العون ، لقد ملك هذا البلد ماوك وملوك ، ومنهم من غرته الأمانى فاستبد وظلم ، وطغى وتجبر ، فلما أفاق وجد هذى الأمانى سراباً ظل يخدعه وهو لايدرى ، ووجد مجده قد صار إلى زوال .

وكان صلاح الدين وهو يستمع إلى أبي الحسن يحس أنه يرتفع عن هذه الأرض وأوشابها إلى طبقات رفيعة من الأثير تحوى كل عال وتضم كل جميل ، فنظر إلى أبي الحسن نظرة التلميذ المأخوذ بآراء أستاذه وقال :

— إن كلماتك يا والدى تنفذ إلى حنايا قلبي وشعاب نفسى ، فأحس لوقعها برداً وسلاماً — وإنى لأذكر أوقاتاً كانت تمر على حينما أخلو لنفسى أو أخرج إلى الصحراء فأفكر وأطيل التفكير فانى كنت أستصغر حينذاك شأن هذه الحياة وشأن هذا المجد الذى يثير الأفراد ضد الأفراد والشعوب ضد الشعوب ، وكنت أرى أن الحياة أهون شأناً وأيسر أمراً مما نظن ففيها العذاب أصناف وألوان ، وفيها البكاء والدموع والحزن ، والدهر العات ذو جعبة ملأى بالسهام يصوبها يميناً وشمالا وفى كل مكان فتخلف وراءها ضحايا كثيرين .

فابتسم أبو الحسن ابتسامة خفيفة وقال :

— هذه النظرة الصادقة تبدى استعدادكم الطيب ، ولكن دع ما فى قولك من يأس ، وانظر إلى الحياة نظرة باسمة ولا تنسى أن نعم الله حولنا تغمرنا وتفيض علينا ، والسبيل إلى شكره أن نجاهد فى سبيله ، وإرضاء عبيده نوع من الجهاد ، وهناك الجهاد الأكبر ينتظرك ، جهاد الفرنج أعداء الدين .

فأطرق صلاح الدين لحظة وقال :

— صدقت أيها الوالد الرشيد ، إن الجهاد الأكبر ينتظرنى —

ولـكنك تعلم أن يداً وحدها لا تصفق ، والأصدقاء فى الدنيا قليل .

— إن الحق ما تقول أيها الوزير ، ولا تظنن أن الأمر قد مهد لك ، فأمامك صعاب من فوقها صعاب ، فلا تنس الخليفة ولا تنس جنده ورجال قصره ، ولا تنس رجالك كذلك .

ثم أشار إلى رفاقه الجالسين إلى جانبه وقال :

— ولـكن يكفيك هؤلاء الصحاب الثلاثة فهم عونك بعد هذا الشعب ، وكلهم بحمد الله صاحب رأى وصاحب عقل . هيه لقد طال بنا الحديث فلأعد إلى ظلبى ، فهل يسمح لى سيدى الوزير بالسفر

— والله ما دامت هذه رغبتك فإنا لا نمانع ولـكننا سنفتقدك يا أبا الحسن فلا تطل الغيبة ، فتعال لزيارتنا كلما استطعت

— سأحاول ، وأرجو أن أراك فى خير إن شاء الله . استودعتك الله .

وحياه الوزير والدموع تملأ عينيه ، وودع الحاضرون وخرجوا مع أبى الحسن ، وصلاح الدين يتبعهم بناظريه ، والدموع تتساقط منها وهو يقول :

— بوركت من رجل ، وبورك الوطن الذى أنبتك والله لأنت خير عندى من كل من حولى .

المؤامرة الأولى

مضت الأيام وصلاح الدين يتصل بأهل مصر ويتودد إليهم ، ويستمع إلى شكاياتهم ، ويحاول جهده أن ينصف المظلوم ، ويمد يد المساعدة للفقراء والمعوزين ، وكان يجلس كل يوم إلى القاضى الفاضل فيدرس وإياه نظم الحكم المختلفة ويحاول وإياه رتق الفتوق وجبر الكسور ، وكثر تنقله فى القرى والأقاليم يبذل المال للمستحقين بسخاء حتى أحبه العامة وأصبح اسمه رمز المجد والبطولة والسخاء ، وغدت أعماله حديث الناس فى الأسواق والمجتمعات يذكرونها فتهتز أعطافهم افتخاراً بوزيرهم الشهم البطل .

وكان صلاح الدين يحس حرارة الفرح والرضاء كلما أنصف مظلوماً أو أعان محتاجاً ، وكان يرى بعينيه علامات السرور فى وجوه المصريين وعيونهم كلما خرج بموكبه يمر فى شوارع القاهرة أو الفسطاط ، وكلما ذهب للصلاة مع العامة فى مسجد من مساجد هاتين المدينتين فكانوا يستقبلونه استقبال الفاتح ويهتفون بحياته ويدعون له بالنصر والفوز المبين .

وكان صلاح الذين يحاول أن يعرض على الخليفة معظم شئون الحكم قبل أن يقرر فيهـــا شيئاً ، فأحبه العاضد وأقبل على صحبته وقربه اليه ؛ وبلغ من محبته له أن كان يدعوه ليقيم معه فى القصر

اليوم واليومين والعشرة أيام فى سرور وصفاء وصداقة وإخاء .

وهدأت فورة القواد الترك والأكراد من جيشه فاعترفوا بالأمر الواقع ورضوا بصلاح الدين وزيراً وخدموه وأخلصوا له ؛ وهكذا استطاع صلاح الدين بلباقته وحسن سياسته أن يكسب الموقف ويخضع الجميع لطاعته ، فتفرغ لخدمة البلد وأهاليه ؛ غير أن البستان الجميل تنتشر فى أنحائه الأشجار الباسقة تتدلى منها الفواكه من نخيل وأعناب ورمان ، وتزين أطرافه الزهور الجميلة من ورد ونرجس وريحان يضيع شذاها فيعطر الجو ، وتنساب الأمواه فى جداوله وتنتقل من مكان إلى مكان ، هذا البستان يشيع الجمال فى حناياه وتتفجر الروعة فى نواحيه لا يخلو من حية تسعى بين الأغصان .

وكذلك كان رجال القصر الخليفى يحسون منذ تولى صلاح الدين الوزارة أن سلطانهم يضمحل وحولهم ينكمش وجبروتهم ينضمر ، وغدوا فى القصر مشلولى الحركة لا يستطيعون حراكا ، وإن استطاعوا لا يقدمون ، فراحوا يسعون سعيهم فى الخفاء كالحيات والثعابين ؛ وصلاح الدين تشغله شواغل الحكم ومهامه فلا يقيم لهم اعتباراً ، وكل ما كان يثير نفسه حنينه إلى ابيه وأخوته وأهله إذ كان يذكرهم كلما خلا بنفسه أو تعقدت أمامه المطالب فيتمنى لو كانوا إلى جانبه فى مصر يشدون أزره ويحل بهم عقدة من أمره .

وأرسل إلى أبيه يذكر له شوقه اليه وإلى أخوته وأهله ، وحنينه إلى مدن الشام وقراه وملاعب صباه ومراتع لهوه ويطلب منه أن

يسعى سعيه لدى الملك العادل نور الدين ليأذن له أو لبعض أخوته بالحضور .

وجاء الرد أن نور الدين قد سمح لأخيه الأكبر شمس الدولة تورانشاه بالسفر اليه ، ففرح لخبر مقدمه وخرج — عندما علم بوصوله — لاستقباله فى موكب حافل ، وعاد وإياه إلى دار الوزارة ، وجلس يحدثه ويستمع إليه ، ويمطره وابلا من الأسئلة عن أبيه وبقية إخوته وأصدقائه ، وتورانشاه يجيبه فى تفصيل شامل يرضيه بعض الرضاء ، ولكنه يزيد فى شوقه وحنينه فيسأل أخاه :

— ولم لم يأذن مولانا الملك العادل لأبى بالحضور ؟ فقال تورانشاه :

— إن مولانا الملك العادل يستعين بأبينا فى الملمات ، وهو فى حاجة إلى مجهود كل رجل منا وهو فى نضاله العنيف ضد الفرنج فى الشام ، وهو فى نفس الوقت يقدر كل التقدير ماقد يعترضك من عقبات أو ثورات نفوس وأنت فى أول عهدك بالوزارة فى هذا البلد

ثم سكت لحظة وابتسم ابتسامة خفيفة صافية وقال :

— أتعرف يا صلاح الدين ماذا قال لى نور الدين قبل أن يأذن لى بالحضور اليك ؟

— وماذا قال يا أخى ؟

— قال : إن كنت تريد أن تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذى كان يقوم فى خدمتك وأنت قاعد فلا تسر ، فانك

تفسد البلاد وأحضرك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه ، وإن كنت تنظر اليه أنه صاحب مصر وقائم فيها مقامى وتخدمه بنفسك كما تخدمنى فسر اليه واشد أزره وساعده على ماهو بصدده ، ففهمت قصده وقلت :

— سأسير اليه وأخـــدمه وأطيعه وستعلم عنى كل ما يرضيك إن شاء الله .

فتأثر صلاح الدين لهذا الحديث ، وشكر لنور الدين هذه النصيحة يسديها لأخيه ، وشكر لأخيه جميل وفائه واخلاصه وقال :

— إنك ياتورانشاه أخى الأكبر وإن كانت تقاليد الحكم توجب عليك طاعتى أمام النـاس فإنك مع هذا سترانى كما كنت ترانى دائما أخاك الأصغر يوسف الذى يبذل الجهد لرضائكم ، ويطيعكم فى كل ما تأمرون به .

ولم يكد يتم قوله حتى سمع أصواتا وجلبة فى الخارج ثم فتح الباب ودخل أحد القواد يقود رجلا فقيرا ذا خلقان مهلهلة ، والرجـــل مصفر الوجه يرتعد خوفا ، ويرتجف رعبا ، وتقدم القائد فقال :

— سيدى الوزير : كنت أمر اليوم خارج سور القـــاهرة فرأيت هـــذا الرجل يرتدى هذه الخرق الممزقة التى لا تكاد تغطى اجزاء جسمه ويحمل هذين النعلين الجديدين ولا أثر بهما للبلى فشككت فى أمره ، وجئت به لتستطلعوا حاله وتستخبروه عن سره

وأمسك صلاح الدين بالنعلين وقلبهما قليلا ثم فتحهما ولشدما كانت دهشته عند ماوجد بين ثنايا هما رسالات مطوية ، فانتزعها وشرع يقرأها

فلما أتم القراءة أعطاها إلى أخيه وقال :

— اقرأ ياأخى .

وكانت الرسائل موجهة من بعض رجال القصر إلى الفرنج يستعدونهم على صلاح الدين ، فأثارت اهتمام شمس الدولة وقال لأخيه

— كنت أعتقد أن الأمور استتبت ، وأن هؤلاء الفرنج قدآووا إلى أوكارهم ، وأن مصر قد صفت لك بعد قتل شاور وآله .

ثم نظر إلى الرجل الفقير وشرع يستجوبه فيلين له فى القول تارة ويهدده تارة أخرى حتى علم أن كاتب الرسائل رجل يهودى هواه مع رجال القصر ، فأرسل من أحضره ومازال يغريه ويمنيه حتى أسر اليه أن الذى أمره بكتابة الرسائل زمام القصر الخليفى والمتحكم فيه الخصى مؤتمن الخلافة ، فأطلق سراحه وسراح الفقير ، ولما خلت الغرفه إلا منه ومن أخيه التفت اليه وقال :

— أرأيت يا أخى ، إن الحكم يحتاج عيونا يواقظ وإلا أفلت الأمر من يدنا ، والآن ماذا ترى ؟

— أرى أن تقتل هذا الرجل مؤتمن الخلافة .

— لوفعلت الآن لثارت بنا جنده السودانيون وهم كثرة غالبة .

— وهل تخشاهم ؟

— كلا ، وإنما أحب أن أحتال لقتله بعيداً عن القصر ، ولهذا فإنى سأمد له مدا حتى ينسى أنى أنوى الانتقام منه فإذا سنحت الفرصة ضربته الضربه القاضية .

وعلم مؤتمن الخلافة أن الرسائل وقعت فى يد صلاح الدين وأنه عرف محتوياتها فأيقن الهلاك ، وانكمش فى القصر لايغادره إلا لماما فلما انقضت الأيام ومضى على هـــذا الحادث نحو شهرين وهو آمن لايرى عنتا ولايحس غدراً ظن أن صلاح الدين قد نسى أو عفا ، فخرج ذات يوم ليقضى نهاره فى قصر له بقرية قريبة من قليوب ، وعـــلم صلاح الدين بتغيبه فى تلك القرية فأرسل اليه من قتله وأتاه برأسه .

وحدث ماتوقعه صلاح الدين ، وثار الجند السودانيون وهم أكثر من خمسين ألفا ، فأرسل إليهم صلاح الدين جيشا قويا من جنوده وعلى رأسه أخوه البطل شمس الدولة تورانشاه ، واجتمع الجيشان فى الميدان بين القصرين ، ودارت رحى الحرب بينهما يومين كاملين ، وكان الخليفة العاضد يشرف على الجيشين من إحدى مناظر القصر وهو موزع القلب والعواطف ، لايدرى إلى أى الفريقين يميل ، ولمن منهما يتمنى النصر ، وكلاهما قذى فى عينيه وشجى فى حلقه ، ولم يلبث أن رأى السهام والحجارة تترامى وتندفع من نوافذ القصر فاضطرب وخشى أن يثير هذا العداء جنود أسد الدين ضده ، وقد تحقق ظنه فان شمس الدولة تورانشاه غضب غضبة مضرية وأسرع فأمر أحد الزراقين بإحراق منظرة العاضد ، وهم الرجل بتنفيذ أمر قائده وإذا بالأمير شمس الخلافة يخرج من القصر ويقول :

— أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول : « دونكم العبيد الـكلاب فاقتلوهم أو اخرجوهم من البلد » .

وكان السودان يهاجمون فى شدة وحماس إذ كانوا يعتقدون بعد أن رأو السهام والحجارة تلقى من القصر أن الخليفة يؤيدهم ويشد أزرهم فلما سمعوا هذا القول فت فى أعضادهم ، وتخاذلوا وأدبروا وانتهت المعركة بهزيمتهم ففروا إلى الجيزة وتتبعهم جند صلاح الدين فكانوا يقتلونهم أنى ثقفوهم .

وهكذا انتهت أول ثورة ضد صلاح الدين بالفشل غير أنه غدا أشد احتراسا من ذى قبل إذ كان يعلم أن هذه الدولة التى عاشت فى مصر قرنين ونصف قرن لايمكن أن تزول آثارها فى شهور .

نجم الدين أيوب فى مصر

كانت الحوادث تتابع فى مصر ، ونور الدين دائم القلق على جيشه فيها ، ويشغله الجهاد فى الشام ، والنضال ضد سلاجقة الروم وامراء الجزيرة فلا يستطيع السفر إليها على شدة شوقه إلى ذلك ، غير أنه كان كلما أحرز نصرا وكلما خطا قائده صلاح الدين خطوة فى سبيل القضاء على الدولة الفاطمية فى مصر يبادر بالكتابة إلى الخليفة العباسى فى بغداد مبشرا ومهنئا ، وأدرك الخليفة أن الحوادث تخدمه من حيث لايدرى فتأتى على بنيان الخلافة الفاطمية التى تنافس خلافته ولا تعترف بها ، فأحب أن يعجل نور الدين فيقضى عليها وهى فى سكرة الموت قبل أن تتاح لها فرصة جديدة فتصحو وتفيق ، فأنشأ يبعث الرسالة تلو الرسالة يطلب من نور الدين ، ويلح فى الطلب أن يسرع فيقطع الخطبة لبنى فاطمة ويعيد الخطبة فى مصر لبنى العباس ، ووافق هذا الطلب هوى فى نفس نور الدين فقد كان سنيا مغاليا فى سنيته ، يكره الشيعة ويود لو استطاع أن يقضى على دولتهم ، فأرسل إلى صلاح الدين يبلغه هذه الرغبة ويحثه على تنفيذها ، ولكن صلاح الدين كان حريصا شديد الحرص ؛ أدرك ببصيرته أن هذه الدولة المريضة وإن كانت تحتضر حقا فإن لها أعوانا ورجالا بعضهم يخلص لها حبا فيها وبعضهم يخلص لها لما كانت تدر عليه من رزق ؛ فتردد ولم يُقبِل ، وأرسل إلى نور الدين يعده ويستمهله .

ولكن نور الدين لم يقتنع، فدعا نجم الدين أيوب ورغب اليه أن يسير إلى مصر ليحمل ولده صلاح الدين على قطع الخطبة للفاطميين والدعوة لبنى العباس .

وخرج نجم الدين وابناؤه وأهله من دمشق قاصدا مصر فلما وصلها خرج الخليفة العاضد بنفسه فى موكبه الفخم يصحبه وزيره الشاب البطل صلاح الدين إلى خارج باب الفتوح لاستقبال نجم الدين ، وخرجت العامة راجلين وراكبين بموسيقاهم وطبولهم ، وزينت القاهرة ورفعت الأعلام احتفاء بقدوم والد الوزير ، فلما وصل رحب به الخليفة وأنعم عليه وأرسل إليه من القصر الألطاف والتحف والهدايا ولقبه بالملك الأفضل .

ولما انتهت حفلات الاستقبال جلس صلاح الدين الى والده وأخوته وأهل بيته جلسة عائلية هادئة تسودها المحبة ويرفرف عليها الإخلاص ، وكان البشر يطفح على وجهه ويبدو فى ابتساماته وحركات يديه وكلمات الشوق التى يرددها مؤهلا ومرحبا ، وأهله فرحون به وبما ساقه الله إليه من مجد وسلطان، يهنئونه ويكررون التهنئة فلما مضى من الليل أكثره كان أخوة صلاح الدين وأهله قد آووا إلى مضاجعهم يستريحون مما لاقوا فى سفرهم من نصب ، ولم يبق فى المجلس غير نجم الدين وولده ، فالتفت نجم الدين إلى ابنه وقال :

— والآن يابنى ، إن سلطاننا الملك العادل نور الدين لم يجب رغبتك ويأذن لنا بالحضور إلا لغرض خاص .

— وماهو يا أبت ؟؟

— أن تعجل فتقطع الخطبة لبنى فاطمة وتعيد الخطبة لبنى العباس

فسكت صلاح الدين لحظة وقال :

— إن هذه رغبتى ياوالدى قبل أن تكون رغبة نور الدين ، ولكن الأمور مرهونة بأوقاتها فهذه الدولة يحبها أهل مصر .

— ولكنك ذكرت لى مرة فى الشام بعد أوبتك أن أهل مصر لا يحبونها .

— أجل انهم يكرهونها ويحبونها .

— وكيف ؟

— إنهم يكرهونها لمذهبها ولما لاقوا من عسف وزرائها ، ويحبونها لجودها فإن خلفاءها كانوا يبذلون المال دائما ويمدون الموائد للعامة ويشاركونهم فى مباهجهم وأعيادهم ، والعامة يحبون دائما أن يعيشوا فى رخاء ولا يعنيهم بعد ذلك ماذا يعتنق خلفاؤهم .

— وهل تعتقد أنهم يثورون من أجل خليفتهم لو قطعت الخطبة؟

— أنا لا أتوقع الشر أو الثورة من أهل مصر ، وإنما أتوقعهما من حواشى الخليفة وأعوانه ورجال قصره وقد علمت ياوالدى ما كان من فتنة زمام القصر مؤتمن الخلافة والجند السودانيين .

— وقد وفقك الله ونصركم عليهم .

— أحمد الله أن وفقنى ، غير أنه لم يمض إلا شهور على هذه الفتنة حتى وصلتنى رسالة من أبى الحسن المصرى وهو يقيم الآن فى دمياط

أنه علم بقرب وصول الفرنج إلى دمياط وفاء بوعدهم لمؤتمن الخلافة ورجاله .

— أعلم هذا أيضا ، وقد اسرع مولانا الملك العادل فأرسل اليك الامداد يتلو بعضها البعض الآخر ، وسار بمن معه من الجند فدخل بلاد الفرنج وأغار عليها ونهبها ليعجل بعودتهم من مصر .

— شكر الله له صنيعه ، فانه لولا هذه الخدمات ما انتصرنا على الفرنج فى دمياط .

ثم أطرق صلاح الدين لحظة وقال :

— ولا يمكن أن أنسى أيضا ما لقيته من الخليفة العاضد من مساعدة جليلة فإنى ما رأيت أكرم منه يومذاك فقد أرسل إلىّ مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار سوى الثياب والعدة والسلاح .

— ولهذ أنت لاتريد أن تقطع الخطبة باسمه .

فابتسم صلاح الدين وقال :

— فى الحق ياأبت أن هذا الخليفة طيب الخلق وفيه صفات حميدة وإن كانت له أخطاء فقد كان الباعث عليها ما أحسه من ظلم وضيق طول مدة حكمه وهو تحت سيطرة الوزراء المتتابعين : الصالح طلائع وابنه رزيك وضرغام وشاور .

لم يقتنع نجم الدين بهذا الدفاع وأخرج من جيبه خطابا قدمه إلى ابنه وقال :

— ولكن مولانا الملك العادل يطلب ويلح فى الطلب إجابة

لرغبته ورغبة أمير المؤمنين المستنجـــد بالله الخليفة العباسى ،وهاك خطابه فاقرأه :

وتناول صلاح الدين الخطاب وأخذ يقرأ :

— (وهذا أمر نحب المبـادرة إليه لنحظى بهـذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت وحضور الفوت لاسيما وإمام الوقت مستطلع إلى ذلك بكليته وهو عنده من أهم امنيته) .

انتهى صلاح الدين من قراءة الخطاب فطواه فى حرص وأطرق يفكر ويعيد للتفكير : لقد صفا له ملك مصر بعد جهدأعوام، ونضال جيوش ورجال ، وإنه ليرى من الحكمة أن يحرص على ارضاء أهل مصر ليكسب عطفهم فهو يخشى الآن إن أقدم على هذا العمل أن يثير سخطهم أو يتيح الفرصه لأعوان لدولة المحتضرة أن ينشطوا فينفثوا سمومهم ، ويضطر حينذاك إلى بدء النضال من جديد ، إنه يعرف أن عددا كبيرا من أهل مصر يعتنقون المذهب السنى ويكتمونه ، ولـكنه يعلم أيضا أن الـكثيرين منهم شيعيون وأن هناك دعاة الدعاة والقضاة ورجال القصر يتربصون به الدوائر ، ويرقبون أفعـاله عن كثب فإن بدرت منه بادرة تسوء نشطوا إلى الدعوة ضده ونضاله ، وربما جددوا العهد مع الفرنج ودعوهم لنصرتهم ، ولـكن الخليفـــة العباسى يريد ويشـاركه نور الدين فى إرادته فـكيف يستطيع أن ينفذ هذه الرغبة دون أن يوقظ الحيات التى تعمـــل فى خفاء ، لقد رأى أن يستشير أعوانه الذين يثق بهم فى مصر ، فنظر إلى أبيه وقال :

— لنؤجل هـذا الأمر أياما ياأبت حتى نجس النبض ونستشير رجلا هنا كالقاضى الفاضل مثلا .

— لك هذا يابنى ، وإنى لأقدر منك هذا الحرص وهذا الحذر .

فضحك صلاح الدين وقال :

— هذا ماعلمتنيه مصر — والآن لقد كنت أحب أن احدثكم عن رغبة لى أرجو لو عملتم على تحقيقها ياوالدى .

— قل يابنى .

— لقد أكرمنى الله سبحانه وتعالى ووفقنى لملك هذا البـــلد ، ولـكننى أرى أننى لازلت صغيرا قليل التجـارب ، والسيد الوالد قد خبر من الدهر أمورا كثيرة وله من حكمته ورجاحة عقله وإصالة رأيه مايؤهله لهذا المنصب ، ولهذا ألححت فى الرجاء أن يأذن لـكم مولانا الملك العادل بالحضور كى تتولوا هذا الأمر عنى .

فأحس نجم الدين بالسرور يملأ عليه نفسه ويسيطر على قلبه لهذا البر من ولده وقال :

— لاياولدى، إن الله لم يخترك لهذا الأمر إلا وأنت كفء له ، فما ينبغى أن نغير موقع السعادة ، ولـكننى أعدك أننى سأكون عونا لك على تذليل كل ما يعترضك من صعاب .

نهـــاية دولة

كانت الأيام تمر سراعاً وصلاح الدين قلق لا يهدأ ، مضطرب لا يستكين ، فقد أهمه حديث والده ورسالة نور الدين التى أمره فيها بقطع الخطبة للعاضد وجعلها للخليفة العباسى ؛ إنه يريد أن ينفذ وصية مولاه نور الدين ، ولكن الحوادث والمؤامرات التى مرت أمام ناظريه منذ ولى الوزارة جعلته يتريث قليلا حتى يعد عدته ويتخذ للانقلاب الجديد أهبته فقد كان للفاطميين أتباع منبثون فى أنحاء مصر وكانت هناك بقية من أمراء الجيش الفاطمى تدين للعاضد بالولاء ، وكان جنود الجيش من السودانيين والأرمن يعتبرون الدولة دولتهم ، ويرون فناءهم فى فنائها ، وكانت ثغور الدولة وأسوارها وحصونها مهدمة خربة لاتقف أمام مهاجم ولا تصد عدوان معتد وكان المذهب الفاطمى أخيراً هو المذهب الرسمى ، يلقن الدعاة مبادئه فى المساجد .

استعرض صلاح الدين هذه الحالة كلها أمام عينيه . ورأى بثاقب نظره أن يجب عليه أولا أن يقضى على هذه المظاهر فإذا وفق كان من اليسير عليه بعد ذلك أن يخطو الخطوة الأخيرة فيقطع الخطبة للعاضد

وكان أخوف ما يخافه صلاح الدين أن يجدد أمراء الجيش وجنوده الثورة وأن يتصلوا بالفرنج فى الشام يستعينون بهم ضده ، ولهذا بدأ بتفقد سور القاهرة فوجده خرباً مهدماً وقد أصبح كالطريق

العام لا يرد داخلا ولا يمنع خارجاً ، فاستدعى مولاه بهاء الدين قراقوش ووكل إليه أمر ترميمه وتجديده ، وكانت لبهاء الدين إرادة من حديد وعزمة صنديد فجمع العال والأسرى والمساجين ، ووكل بهم الجنود الأشداء يعملون ليل نهار وهو يتنقل بينهم لا يهدأ أو لا يني ، فلم ينته شهران حتى كان السور يحيط بالقاهرة والفسطاط عالياً متيناً سليم الجدران قوى البنيان ، تعمر أبراجه وقلاعه حاميات من الأكراد والأتراك .

وذهب صلاح الدين بعد هذا إلى الأسكندرية فخرج أهلوها لمقابلته والترحاب به ، فكان لحفاوتهم أجمل الأثر فى نفسه ، وجاشت فى نفسه أحاسيس كثيرة متباينة وهو يمر فى شوارعها وموكبه يشق الجموع المتراصة الفرحة برؤيته ، فقد استعاد فى تلك اللحظة الأيام السوداء التى قضاها محاصراً فى الاسكندرية فى قدمته الثانية إلى مصر ، وتذكر الصعاب التى عاناها والمشاق التى تحملها وهو يحارب الفرنج فى البحر وجيوش مرى وشاور فى البر ولولا مالقيه من معونة أهالى الاسكندرية لقضى عليه وعلى جيشه وقتذاك . وكان صلاح الدين ممن يذكرون الجميل فأكرم أهل الاسكندرية فى زيارته هذه ونثر عليهم الدراهم والدنانير ، وأنعم على أعيانهم حتى انطلقت ألسنة الناس تدعو له بالنصر والظفر ، وكان صلاح الدين منذ حوصر فى ذلك الثغر أعرف الناس بقلاعه وحصونه وأسواره ونقط ضعفها ، وما أصابها من إهمال أو وهن ، ولذلك قضى أيامه فى الاسكندرية يشرف على

عمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها حتى اطمأن إلى قوتها ثم عاد إلى القاهرة .

ولم يقم صلاح الدين فى القاهرة إلا أياماً ريثما أعدت قطع السفن الجديدة التى أمر بإنشائها فى دار الصناعة ثم حملت تلك الأجزاء على الجمال وتقدمها بفرقة من جيشه حتى وصل إلى مدينة تالية وكانت بها قلعة حصينة للفرنج يهددون منها الحدود الشرقية لمصر والملاحة فى البحر الاحمر . وركبت السفن وأنزلت إلى البحر وشحنت بالمقاتلة ، وهاجم القلعة براً وبحراً حتى خضعت وأسر جميع من فيها ، فأمر بترميمها وملأها بالأشداء من رجاله ، وعاد إلى القاهرة والأسرى فى ركابه .

وما انتهى من تحصين العاصمة وتأمين الثغور والحدود حتى التفت إلى النواحى الدينية وكانت سياسته ترمى إلى الفل من حدة المذهب الشيعى والحد من قوته بإفساح المجال للمذهب السنى ونشره بين الناس وتثقيفهم على أساسه . وكانت لدعاة المذهب الشيعى وشيوخه مراكز قوية فى مساجد الفسطاط والقاهرة ، فوجد صلاح الدين أنه من الخرق فى الرأى أن يقتحم على هؤلاء الدعاة والشيوخ معاقلهم فى تلك المساجد خوفا من أن تثور المنازعات بين أتباع المذهبين فيؤدى هذا إلى اضطراب الحالة فى مصر ، ولكنه اقتدى بمولاه نور الدين ورأى أن ينشىء فى مصر المدارس ، ولم تكن مصر تعرفها من قبل ، وبدأ بسجن المعونه القريب من مسجد عمرو بالفسطاط فأحاله مدرسة

للشافعية ، ثم أتبعه بدار الغزل فأحالها مدرسة للمالكية ، وحذا حذوه أقرباؤه فاشترى ابن أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه منازل العز بالفسطاط وجعلها مدرسة للشافعيه ، وأوقفت الأوقاف الكثيرة للصرف على تلك المدارس ، وأجزلت العطايا لمدرسيها وفقهائها وطلابها فأقبل الناس عليها وبدأوا ينفضون عن المذهب الشيعى وأشياخه .

وثنى صلاح الدين بعد هذا فألغى شعار الاسماعيلية وأمر باسقاط « حى على خير العمل » من الآذان ، وكانت هذه التغييرات تحدث فى بطء وكياسة فلم يحس بها عامة الناس ، ومن أحس بها كان يستنكرها أولا ثم لا يجد صدى لاستنكاره فيلوذ بالصمت ، والحياة تجرف الجميع فى تيارها وتشغلهم بشؤونها .

ولم يبق أمام صلاح الدين إلا رجال القصر وأعوانه فبدأ بامراء الجيش الفاطمى فعزلهم واسترد منهم اقطاعاتهم وأبعدهم عن منازلهم وقصورهم وأسكنها قواده وجنوده ، ثم أمر أخاه تورانشاه فتتبع الجنود السودانيين فى الصعيد حتى شتتهم فلاذوا بأذيال الفرار وذهبوا إلى بلاد النوبة والسودان .

عند ذلك بدأ صلاح الدين يقص جناحى العاضد ويسلبه قواه المادية فقطع عنه إقطاعاته ، واستولى على جميع ما كان بيده من البلاد ، ثم استولى على القصور الفاطمية ووكل بها ومن فيها قائده الجبار بهاء الدين قراقوش فتولى حراستها بعين لا تغفل فكان لا يخرج منها خارج ولا يدخل إليها داخل إلا بإذنه .

وكان العاضد يرقب هذه التغييرات كلها دهشا متعجبا فقد خيّب صلاح الدين ظنه ، إنه اختاره من بين القواد جميعا ليكون وزيره لأنه رآه شابا صغير السن فحسب أنه يكون فى يده آداة طيعة ، فإذا به قد فان جميع الوزراء السابقين دهاء ومكرا ، وقوة وجبروتا ، لقد كان له فى عهد الوزراء السابقين أثارة من قوة ، وها هو صلاح الدين قد قضى عليها وتركه سجينا فى قصره لا يستطيع حراكا إلا والعيون ترقبه من كل مكان ؛ لقد كان له فى الماضى جيش وقواد وهاهو صلاح الدين قد أبعد منهم من أبعد وشتت من شتت ، وأصبح الجيش جيشه ، كل قواده وجنوده من الأكراد والأتراك ؛ لقد كان له منذ ولى الحكم ماله الخاص ، وهو سلاح نافع ، وها هو صلاح الدين قد سلبه هذا السلاح الأخير فلم يبق له من أيام عزه الغابرة إلا فرسا واحدة ، وحتى هذه الفرس الأخيرة لم يشأ صلاح الدين أن يتركها له فأرسل بالأمس يطلبها ، فأجابه العاضد إلى طلبته ، ولم يتمالك نفسه بعد خروج الرسول وقد طغت عليه الآلام وألمت به الأحزان فانفجر باكيا ، وظل على ذلك ساعة من الزمن وهو فى بستانه ، ثم أحس قدوم قادم ، فمسح دموعه وانقلب إلى غرفته وقفلها عليه وقد أحس المرض يدب فى جسمه دبيبا .

ونام العاضد فى تلك الليلة نوما متقطعا تخللته الأشباح والأحلام المزعجة ، واستيقظ عند بزوغ الفجر وهو قلق مضطرب منقبض الصدر فقد رأى فيما يرى النائم أنه ذهب إلى قبة الامام الشافعى ، فصلى

وجلس ، وإذا بعقربه مخيفة قد سعت إليه فلدغته .

قام العاضد من سريره فتوضأ وصلى الفجر وأحضر المصحف ولبث يقرأ فيه ساعة من الزمن ، فلما هدأت نفسه قليلا ، استدعى أحد رجال قصره وأرسله إلى قبة الشافعي وأمره أن يحضر من يجده بها من الرجال .

ذهب الرسول إلى القبة فلم يجد بها إلا رجلا صوفيا غريبا اسمه الشيخ نجم الدين الخبوشاني فأحضره معه .

وسأله العاضد عن حاله وأخباره ، غير أنه وجده رجلا فقيرا لا ينبيء حاله عن شر ، فأكرمه وصرفه .

كان صلاح الدين يتخذ طريقه إلى هدفه على هدى من بصيرة نفاذة وتجربة حكيمة ، غير أن نور الدين كان ثائرا لا يهدأ ، فهو يرسل إليه الرسل بعد الرسل يستعجلونه الضربة القاضية على هذه الدولة المحتضرة وهو يبدى الأعذار ويستمهل حتى يستكمل عدته ويهيىء جميع الظروف فلما أحس أن الظروف قد أصبحت موانية جمع مجلسا من أمراء جيشه وقواده وفقهاء السنة ومتصوفيها ، وعرض عليهم رسائل نور الدين وسألهم المشورة والنصيحة فتردد البعض وأبدوا مخاوفهم أن يثور الاسماعيليون وأنصارهم ، وتحمس البعض الآخر للفكرة ، وأيدوها ، ومن عجب أن أشد الناس مهاجمة للعاضد وطعنا فيه وذماله وتحبيذا لقطع الخطبة باسمه كان هو ذلك المتصوف نجم الدين الخبوشاني .

وكثر القول وطال النقاش ، وانتهى الرأى أخيرا إلى أن يترك

صلاح الدين تنفيذ الخطة لأبيه نجم الدين حتى إذا فشلت تدارك هو الأمر واعتذر بأن القوم أقدموا دون علمه وموافقته .

وفى يوم الجمعة الأول من المحرم سنة ٥٦٧ ذهب نجم الدين أيوب ومعه جماعة من أصحابه وامراء دولته إلى المسجد الجامع بالفسطاط واستدعى إليه خطيب المسجد فقال له :

— إن انت ذكرت هذا المقيم بالقصر فى خطبتك ضربت عنقك

فشده الخطيب وعجب ، ثم سأل :

— فلمن أخطب إذن ؟

فقال نجم الدين .

— لمولانا الخليفة العباسى المستضىء بالله .

وصعد الخطيب المنبر وقد استولت عليه الحيرة ، ونال منه الذعر ، إنه إن أطاع أمر نجم الدين فلربما ثار به المصلون وقضوا عليه ، وإن لم يطعه عرض نفسه للقتل ؛ وألقى خطبته مضطربا مرتبكا على غير عادته ، وهو لايدرى ما يقول ، وأخيرا هداه الموقف الشائك إلى أن دعا للائمة المهديين ثم للسلطان الملك الناصر صلاح الدين ، ونزل فصلى بالناس وهو لا يكاد يتمالك نفسه من الخوف ؛ فلما انفض الناس دعاه إليه نجم الدين وسأله :

— لمَ لم تفعل كما أمرت ؟

فقال الخطيب معتذراً

— إنى لم أعرف اسم المستضىء ولا نعوته ، فإذا علمتها دعوت له فى الجمعة القادمة إن شاء الله .

وآثر نجم الدين العفو وخرج فجمع فى داره جماعة من الفقهاء وطلب إليهم أن يختاروا من بينهم واحداً يتولى الخطبة للخليفة العباسى فى الجمعة القادمة ، فتردد البعض ، وتخوف البعض ، وأخيراً تقدم منهم رجل موصلى كفيف البصر اسمه الأمير العالم ، وقال :

— أنا لها أيها الأمير

وخرج به نجم الدين فصافحه وقال :

— بارك الله فيك أيها الشيخ

ولكنه أدار وجهه وهو يقول فى نفسه : « حقا إن كل ذى عاهة جبار » .

وتناهت هذه الأخبار إلى العاضد فى مرضه فأدرك أن الأمر جد لا هزل ، وأن هذه نهاية النهاية فاشتد به المرض فكانت تعتريه نوبات من الغيبوبة فإذا أفاق جمع إليه أهله وأولاده وطفق يقبلهم ويضمهم إليه وعبراته تنهمر من عينيه . لقد آمن أن دولته ودولة الفاطميين قد انتهت ، ولكنه أصبح يخشى على أهله وأولاده عوادى الزمن فماذا هو فاعل من أجلهم ؟ ! ليس فى الأسرة رجل كبير رشيد يوصيه بهم خيراً ، ولم يبق من امراء الدولة وقوادها أحد يعهد بهم إليه ، وأخيراً لجأ إلى ما يلجأ إليه المضطر فأرسل يستدعى إليه صلاح الدين .

وحضر صلاح الدين واستمع إلى وصية العاضد إليه تخرج فى كلمات متهالكة متقطعة أن يرعى أهله وأولاده من بعده ، وتأثر صلاح الدين لقوله وبكى لبكائه ، ووعده خيراً وانصرف

واشتدت وطأة المرض على العاضد حتى قام لبعض حاجته فعثر وسقط ، وأرسل أهله فى طلب طبيب القصر ابن السديد فتلكأ واعتذر ، وعلم العاضد باعتذاره فاشتد به الألم وقال : « لقد انفض عنى الجميع حتى الطبيب ، لم يبق فى الدنيا إذن خير » ، ورفع خاتماً مسموماً فى إصبعه كان قد أعده لمثل هذا اليوم ، ومصه مصتين فاسترخت أعضاؤه ، وظل طول الليل يتلوى من الألم .

وأشرقت شمس يوم عاشوراء على أصوات النعى وبكاء الباكيين وصراخ الصارخات والنادبات ، يعلنون جميعاً للملأ كله موت خليفة ونهاية دولة — دولة سمت مصر فى عهدها إلى أعلى مراتب العز والمجد ، وأسمى طبقات الرفاهية والسؤدد .

ريحانة تستغيث بفاطمة

وقفت السيدة أزهار زوج الأمير شمس الخلافه على باب غرفة فاطمة ترقبها وهى جالسة جلستها الهادئة مرتدية رداء أحمر وتغطى رأسها عصابة حمراء فبدت لها وكأنها وردة حمراء جميلة تفتحت فى الصباح الباكر تدعو القاطفين بجمالها ، وكانت فاطمة تحنو على عودها وتحرك أوتاره فتنبعث لحركتها ألحان عذبة فيها حنين فتجاوبها بنغمات منسقة كاللحن .

وهاجمت أزهار أفكار متباينة سريعة كلها تدور حول فاطمة ، فهى تراها منذ سنوات كالزهرة الجميلة حان قطافها ، وقد حدثت زوجها ليجد لها زوجا كفأ ، وأقبل الخاطبون فكانت تحدث فاطمة عنهم فلا تجد منها إلا رفضا وإعراضا ، فإذا ألحت عليها أن تبين لها سبب الرفض كانت تجيب فى مكر دائما :

— إننى سعيدة معك ومع أبى ياأماه ، ولا أحب أن أغادركما لمنزل لاأعرفه ، ورجل لاأعرفه .

فتنظر أزهار وتسكت ولكن على مضض .

وقد جاءت اليوم تعرض على فاطمة خاطبا جديدا ، ولكنها مكثت مدة تقدر وحدها الحجج القوية والبراهين المفحمة التى ستهجم بها على فاطمة لتقنعها حتى تفوز منها بالقبول ، فلما وقفت بالباب تستمع لأغانيها وتراقب وجهها المشرق وجسمها البض النامى ازدادت

اقتناعا بضرورة الاسراع بزواجها فطرقت الباب طرقا خفيفا انتبهت له فاطمة فرفعت رأسها ورأت زوج أبيها تطل عليها بوجه مشرق باسم وتحييها تحية الصباح ، فتركت العود جانبا ، خفت إليها مرحبة ، وقبلت يدها فمدت السيدة أزهار يدها اليسرى ومرت بها على شعر فاطمة الأسود الناعم المنسق وقد تدلى فى ضفيرتين طويلتين خلف ظهرها . وقالت :

— نعم صباحك يا ابنتى ، ماهذا اللحن الجميل ، لقد غدوت موسيقية بارعة .

فأطرقت فاطمة حياء ، واحمر وجهها من أثر هذا المرح ولم تجب وسكتت السيدة أزهار لحظة ثم قالت :

— أتعرفين فيم أفكر الآن يافاطمة ؟

فرفعت فاطمة رأسها ونظرت إلى زوج أبيها نظرة سريعة فلم تعرف فيم تفكر ، ولكنها خشيت أنها قد تكون أتت لتحدثها عن خاطب جديد غير من رفضت فقالت :

— نظراتك اليوم ياأمى لاتظهر مافى نفسك

فضحكت أزهار وقالت :

— إننى أفكر فى ورده جميلة ذات لون أحمر قان بديع تغطيها قطرات الندى اللؤلؤية الجميلة .

فقالت فاطمة :

— أنا أعلم ياأماه أنك تحبين الورود والرياحين ، ولكن هل

تعوزك الأزهار وبستان قصرنا مملوء بها ولله الحمد .

— نعم يابنيتى ، صدقت — بستان قصرنا مملوء بها ولله الحمد ، ولكننى أفكر فى وردة فريدة هى خير مافى هذا القصر من ورود ، بل أنا أعتقد أنها خير مافى قصور القاهرة من ورود .

فعجبت فاطمة لهذا الوصف وقالت :

— إنك تبالغين ياأمى فليس فى قصرنا وردة بهذا الجمال وإلا لضاعت رائحتها فملأت الأرجاء وعطرت الأنحاء .

واقتربت أزهار من فاطمة ووضعت يدها على كتفها وقبلتها قبلة تعبر بها عن حنان الأم وإعجابها وقالت :

— لاتتغابى يافاطمة ، إنك الوردة التى أعنى والتى ضاع عبيرها . كما تقولين — فجذب الأنفس .

فعلا الدم فى وجه فاطمة وغطاه بحمرة خفيفة جميله وأطرقت حياء وقالت :

— إنك دائما تمدحين جمالى ياأمى ، وهذا كرم منك ولكننى أخشى أن يداخلنى الغرور فالعذارى يغرهن الثناء .

فمدت أزهار يدها وأمسكت ذقن فاطمة ورفعت رأسها قليلا ، ونظرت إلى عينيها السوداوين وقالت :

— إننى أصفك بما فيك يافاطمة ، ولكننى أعجب حتّامَ يظل هذا الجمال عاطلا بعيدا عن الأنظار ، بعيدا عن رجل يسعده وتسعدينه

فخجلت فاطمة وقالت :

— عدنا إلى هذا الموضوع البغيض إلى نفسى ، لقد قلت لك يا أمى إننى لا أرغب فى الزواج الآن .

فشددت أزهار الضغط عليها بيدها وضمتها إليها وقالت :

— إن الزهرة إذا تفتحت يابنيتى وجب قطافها وإلا ذبلت ، وتناثرت أوراقها وضاع جمالها .

— ولكننى لازلت صغيرة ياأمى .

— لست صغيرة يافاطمة ، كان يجب أن تكونى الآن أما ذات أطفال

فحارت فاطمة كيف تجيب ، وأرادت أن ينقل الحديث إلى موضوع آخر فمدت يدها إلى العود وقالت :

— أتحبين أن تسمعى هذا اللحن الجديد ، إنه لحن جميل سمعه والدى فأعجبه ، وكنت أكرره قبل مجيئك فإن ريحانة ستحضر الآن لتسمعه منى كاملا لأول مرة ؛ ولم تكد تتم كلامها حتى دخلت الخادم تستأذن لريحانة ، فوقفت السيدة أزهار وقالت :

— فكرى يافاطمة فى هذا الأمر ثانية فإن الأمير كان هنا بالأمس ليسأل أباك عن رأيه ، وأبوك يريد أن يصل إلى رأى حاسم قبل أن يسافر إلى عمله الجديد فى قوص .

فدهشت فاطمة وفغرت فاها ، ونظرت إلى زوج أمها وقالت مستفسرة :

— عمله الجديد فى القوص ؟ !

— أجل فقد أقطع صلاح الدين قوص لأخيه شمس الدولة توران شاه فأناب أباك عنه ليلى هذه الولاية ، ويبقى هو هنا .

ودخلت ريحانه فانقطع الحديث بين أزهـــار وفاطمة ، وحيت السيدة ضيفتها وخرجت ، وتركت الفتاتين معا تبث كل منهما همها لصاحبتها ، ونظرت ريحانة فوجدت فاطمة مطرقة تنظر إلى العود فى يدها وإلى الأرض نظرات ساهمة شأن من يفكر ، فسألتها :

— فيم تفكرين يافاطمة ؟

فرفعت فاطمة رأسها وتكلفت الابتسام وقالت :

— لاشيء كنت أستعيد اللحن الذى سأسمعه اليوم .

فلم تشأ ريحانة أن تحرجها ، وقالت :

— إلى هـــذا الحد تشغفين بدروس الموسيقى ، أسمعينى إذن ،

فأمسكت فاطمة بالعود وحنت عليه تداعبه بريشتها وتغنى :

يامنزل الأنس الجميـــــع وملعب الحى الأغن
أين اســـتقلت بالحبيـــــب ركابه ومـــتى ظعن
شوقى إلى زمـن الحمى سقى الغوادى من زمن
شوق المغـرّب شردتـــــه يد البعاد عن الوطن
ولقد عهـدتك والزما ن بشملنـا بك مافطن
وثراك ما أغبرت مسا رحـه وماؤك ما أسن
لام العذول وما درى وجـدى وبابـالى بمن
ماضر مَنْ هـو فتنتى لو كان يرحم ما فـتن

ولم تكد تنتهى من العزف حتى حُبس صوتها وخنقتها العبرات ، ونظرت ريحانة فوجدت الدموع تترقرق فى عينىّ فاطمة فعجبت لهـا

وأبعدت العود عنها وأمسكت بيديها وقالت :

— ماهذا يافاطمة ؟ أتبكين ؟ ولِمَ ؟

فأسرعت فاطمة وبلعت ريقها ، ونظرت إلى ريحانة وابتسمت وهى تقول :

— لاشيء - لاشيء . . إن هذا يحدث لى دائما إذا كنت متعبة فلا تراعى .

فقالت ريحانة وهى لاتصدق :

— لا - ليس هذا البكاء من أثر التعب .

وارتبكت فاطمة وحارت ماذا تقول ، إنها هى نفسها لا تعرف سببا بعينه لبكائها فقد كان اللحن جميلا حنونا يثير الشجن ، وكانت نفسها ثائرة لأمور كثيرة أهمها هذا الحديث من زوج أبيها تعيده كل يوم على مسامعها وهى حيرى لاتعرف كيف ولمن تفضى بسرها وجاءت ريحانة والثورة مضطرمة فى نفسها فلم تكد تبدأ اللحن وتعيده حتى ثارت أحزانها وهاجت شجونها فوجدت الدموع تتساقط من عينيها ولكنها أرادت أن تتحل عذرا تقنع به ريحانه حتى لاتثير شكوكها فقالت :

— إننى أبكى هذا القصر الذى سنتركه بعد قليل فإن الامير شمس الدولة اختار أبى ليكون واليا على قوص بدلا عنه .

فقالت ريحانة :

— وهل فى هذا مايثير أحزانك ، ويبعثك على البكاء ، إن قصر الأمير فى قوص جميل كهذا القصر ، ومن يدرى فقد يفضل والدك أن يتركك

هاهنا ويسافر إلى قوص وحده .

ففرحت فاطمة لهذا الرأى وقالت :

— بوركت باريحانة ، والله إن هذة لفكرة جميلة ، وسأطلب من أبى أن يتركنا هنا . . ثم سكتت لحظة وقالت :

— ولكن من يستطيع خدمته فى قوص ؟ لا بد من أن أصحبه حتى ولو رفض الجميع الذهاب . . ولكن دعينا من هذا

ونظرت فاطمة فرأت رفيقتها تخرج منديلا فتمسح به دموعها وهى تقول :

— رحم الله الخليفة العاضد وطيب ثراه ، وجعل الجنة مثواه ، لقد لقينا العز فى عهده ، وسنلقى الضيم من بعده .

فقالت فاطمة تواسيها .

— لا باريحانة — لاتخافى ولا تحزنى فإنك ستنعمين بالعز الذى كنت تنعمين به أيام مولانا الخليفة العاضد فإنى أسمع أن صلاح الدين كريم النفس لا يظلم ولا يجور .

— إنه كريم النفس حقا ، ولكن الملك وسياسة الملك لا تعرفان كرما .

— ومالك أنت ولسياسة الملك ؟

— ألست من جوارى القصر ونسائه ؟

— بلى ، وما بال جوارى القصر ونسائه ؟

— لقد سمعت اليوم أن صلاح الدين أمر بإبعاد رجال القصر عن نسائه وحفظ كل فريق فى سجن خاص حتى لا يتصل الفريقان فيتزاوجوا

فيلدوا وارثين للفاطميين ومطالبين بالخلافة :

تألمت فاطمة لهذا الخبر وحزنت لحزن صديقتها ، ولكنها أرادت أن تطيب خاطرها فقالت :

— لاتخشى شيئا ياريحانة فإنى سأحدث أبى الليلة فى أمرك ، وسأطلب إليه أن يبقيك هنا فى منزلنا :

فقفزت ريحانة فرحة كمن أنقذ من شر يحيط به وأقبلت على فاطمة تعانقها وتقبلها وتقول :

— شكرا لك يافاطمة وألف شكر ، والله لئن فعلتيها ليكونن ذلك جميلا لك أذكره مدى الحياة .

ولكنها ما لبثت أن وجمت وأطرقت ، وراحت تفكر فى خشترين . . . خشترين المختفى الذى يتوقع الموت فى كل حين ولا صديق يتصل به ويرعاه ، فنظرت إلى فاطمة وقالت وهى تبكى ثانية :

— وخشترين يا فاطمة ؟؟

— وخشترين ؟ ! وهل هو لا يزال فى مصر . إننى لم أسمعك تذكرينه منذ جاء أسد الدين آخر مرة .

— أجل يا صديقتى إنه فى مصر . فهل تحفظين سرى وسره إن أنا أنبأتك عنه :

— قولى ياريحانة — ولا تخافى .

— علم خشترين بمجىء أسد الدين فأيقن أن أجله قد دنا ففر إلى قرية البدرشين جنوبى القاهرة ، وتنكر فى زى فلاح ، واستأجر أرضاً

وكوخاً، وظل يعمل فى هذه الأرض حتى الآن، وكنت أنتهز الفرص فأتنكر فى زى رجل وأذهب لزيارته بين الحين والحين فأجده يعيش على حذر لا يكاد يختلط بأحد من الناس فهو يظن كل عين عالمة بسره وكنت أعد العدة ليصدر العفو عنه من صلاح الدين ، وها أنت ذى ترين كيف مات الخليفة ، وكيف نقر فى القصر سجينات تحت حراسة قراقوش ، وكيف سيكون مآلنا بعد أيام .

وبكت فاطمة لبكاء صديقتها ، إلا أنها أخذت تفكر فى سبيل تساعد به ريحانة فى ملمتها ، ورأت أول ما رأت أن تروى الحادث لأبيها وترجوه أن يسعى لدى صلاح الدين ليعفو عن خشترين ، ولكنها قدرت أن يسألها أبوها ، وكيف عرفتى هذا الرجل ، ولا بد للاجابة عن هذا السؤال أن تحدثه عن العلاقة بينه وبين ريحانة ، وهى لا تجرؤ على هذا ؛

ثم فكرت فى عبد الرحمن ، ولكن كيف تتصل به وقد قطع أبوها دروسه ، لكبر سنها ، وليحجبها عن أعين الرجال توطئة لزواجها من أحد الأمراء ، فهى تعانى الآن من بعده ؛ غير أنها امرأة وللنساء إحساس لا يخطىء فى هذه المواضيع فقالت لريحانة :

— أتعرفين الشيخ عبد الرحمن القوصى .

— أجل أعرفه .

— سأكتب له خطابا أروى له الحادث وأطلب منه أن يؤوى

خشترين عنده فى داره ، وتأكدى أنه يكون عنده فى أمان ، وعليك أنت أن تسعى لدى خشترين لتقنعيه بهذا .

فقالت ريحانة :

— وبعد — أنه بهذا ينتقل من سجن إلى سجن .

— ولكنه سيجد من عبد الرحمن صديقاً ، وقد نوفق إلى استصدار العفو عنه بعد ذلك فاتركى الأمر للمقادير .

* * *

قرأ عبد الرحمن خطاب فاطمة فكاد يطير به فرحاً ، ولكنه ما لبث أن عاد إليه يقرأه ثانية بعد أن خف ما به من نشوة السرور فصدمته كلمة « خشترين » ونظر إلى حاملة الخطاب وقال :

— خشترين لا زال حياً ومختفياً ؟

— أجل .

— وتريدنى أن أويه فى بيتى ؟

— لو تكرمت .

فصاح مستنكراً :

— لا — لا يمكن أن أفعل هذا أبداً ، وهل نسيت ما فعل ؟ !

فذعرت فاطمة وأحست خيبة مسعاها فسألته :

— وماذا فعل :

وكاد أن يجيبها ، ولكنه عاد فتذكر أن فاطمة ترجوه أن يجيب طلبها إكراماً لصديقتها العزيزة عليها ، وتذكر أن هذه أول مرة يتلقى

فيها خطاباً من فاطمة ، وأول مرة تتقدم إليه فيها برجاء ، وهى لم تفعل ما فعلت إلا لثقتها الكبيرة به فهل يرفض رجاءها ولا يكون عند حسن ظنها به ، ولكنه عاد فتذكر أيضاً كيف وشى هذا الرجل بصديقه أبى الحسن عند شاور ، وكيف كادت هذه الوشاية أن تودى بحياة هذا الشيخ المسكين ؛ وهكذا ظل عبد الرحمن فى صراع عنيف بهم بالرفض فيبدو له شبح فاطمة من بعيد يشير إليه فى استعطاف أن يقبل ويضيف الرجل عنده حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا .

— ونظر عبد الرحمن فوجد ريحانة — هذه الفتاة الجميلة — تقف أمامه ، وتنظر إليه نظرات مستكينة كلها رجاء وخوف فاستيقظ فى نفسه من يدافع عن الرجل والفتاتين ؛ وأحس كأن إنساناً يقول له :

— إن هذا الرجل أصبح غير ذى خطر فقد قتل شاور الذى كان يعتز خشترين بجاهه ، ومات العاضد فانتهت الدولة بموته ، فمم إذاً تخاف ، حقاً إن الرجل أخطأ فى الماضى وخطؤه جسيم ، ولكن كل جسيم يهون فى سبيل إرضاء فاطمة .

واقتنع عبد الرحمن بهذا الرأى فنظر إلى ريحانة ثانية وقال :

— سأنسى الماضى يا ريحانة إكراماً لفاطمة ولك ، فليأت خشترين فسيكون هنا وكأنه فى داره .

وفرحت ريحانة وضحكت قائلة :

— إننى يا سيدى لا أعرف كيف أوفيك حقك من الشكر ، ولكننى أرجو أن أوفق يوماً لرد هذا الجميل .

المؤامرة الثانية

ومرت شهور بعد ذلك وأهالى الفسطاط لا يرون الشيخ عبد الرحمن إلا وفى صحبته شيخ غريب ذو لحية سوداء وبيده سبحة لا تفارقه ، وتساءل الناس من يكون ذلك الشيخ ؟ وأجاب البعض من هذا شيخ جليل من علماء كردستان وفد على مصر زائراً وفد عرض عليه الشيخ عبد الرحمن أن يضيفه فى داره فقبل وهو الآن ضيفه ، وكثرت الأقاويل ، وتعددت الروايات والكل يبالغون فى وصف الشيخ وأخلاقه وعلمه الغزير .

ولم يكن هذا الشيخ غير خشترين فقد اختار له عبد الرحمن هذا الزى ليختفى وراءه ، وأجاد خشترين تمثيل دور الفقيه لما كان له من شغف قديم بالعلم والدراسة ، ولكثرة ما كان يقرأ فى كتب الفقه ويجالس الفقهاء ورجال الدين ويناقشهم ويساجلهم .

وكان عبد الرحمن يلازمه دائماً فى غدوه ورواحه أول الأمر فلما اطمأن الناس إليه وقل استغرابهم وتساؤلهم ترك له الحرية يخرج من المنزل أنى شاء ويذهب إلى حيث يريد ، ويعود وقت تحلو له العودة .

وعاد عبد الرحمن يوماً إلى داره وفتح الباب ودخل إلى حديقة داره الصغيرة التى لا تحوى غير نخلتين وشجرة ليمون وشجرة رمان وكرمة عنب فرأى خشترين جالساً تحت شجرة الليمون وبيده خنجر

يقلبه بين يديه فعجب له وتقدم فحياه ، ولكنه وجده مطرقاً ينظر إلى الخنجر فلم يرفع وجهه ، ولم يرد التحية ، وأعاد السلام مرة ثانية وسأله قائلا :

— ما بالك يا خشترين لا ترد تحيتي ؟

ورفع خشترين رأسه ، ونظر إلى عبد الرحمن بعينين تملأهما العبرات وقال :

— لست جديراً بسلامك يا شيخ عبد الرحمن ، لا ولست جديراً أيضاً بالإقامة معك .

فتألم عبد الرحمن لرفيقه وحسب أنه يخضع الآن ليقظة من يقظات ضميره . . فيتألم لما فعله مع أبي الحسن فأراد ان يخفف عنه بعض ما يحس فابتسم وقال :

— إن الندم يا صديقي نوع من الاعتراف بالذنب وطلب الاستغفار ، غفر الله لك وسامحك ، وتأكد أن أبا الحسن لو كان هنا الآن لعفا عنك . فضحك خشترين ضحكة مريرة وقال :

— إن الأمر اخطر مما تظن واخطر مما فعلت مع ابي الحسن ففغر عبد الرحمن فاه واسرع يسأله :

— اخطر مما فعلت مع ابي الحسن ، وماذا يكون هناك اخطر من الوشاية برجل برىء ؟ . قل لي . . اسرع .

فارتبك خشترين وتردد ان يفضي بسره إلى عبد الرحمن واكتفى

بأن نظر إليه نظرة طويلة وكأنه يستشيره ويسأله النصيحة ، ثم تذكر جرمه فأحنى رأسه وأخفى وجهه بين يديه وراح يبكى بكاء قوياً .

وتوافدت الظنون على عبد الرحمن وانشأ يسأل نفسه :

— ترى ماذا فعل الرجل ؟ وأى ذنب هذا الذى أيقظ ضميره واسلمه فريسة للندم وتأنيب النفس حتى راح يبكى هذا البكاء المر ؛ ووجد أن من واجبه مهما كان الجرم عظيما ان يقف إلى جانب ضيفه من هذه المحنة النفسية العنيفة فهو أحوج الناس اليوم إلى قلب عطوف يطمئن إليه ليتدارك خطأه إن كان هناك مجال لذلك أو ليستغفر ربه إن كان قد فات الأوان ، فجلس إلى جانبه وربت على كتفه وقال :

— لا تبتئس يا خشترين ولا تستسلم للحزن هكذا فأنت رجل حرب وجلاد — واخبرنى بما فعلت فأنا صديقك علىّ اجد لك مخرجاً

فعاد إلى خشترين قبس من روح الجندية القديمة فمسح دموعه وقال :

— لا بد مما ليس منه بد . . اسمع يا صديقى . . . سأحدثك عن كل شىء .

— قل ولا تخف .

— هناك مؤامرة تدبر منذ زمن للقضاء على صلاح الدين وإعادة الفاطميين .

فذعر عبدالرحمن وادرك ان الأمر جد خطير فقال فى استنكار :

— مؤامرة للقضاء على صلاح الدين ؟ وانت من مدبريها ؟ !

فأجاب خشترين وفى قوله رنة الأسف :

— أجل وأنا من مدبريها .

— وهل كدتم كيدكم وتم الأمر ؟

— تم نصفه وبقى نصفه .

— إذن لا زال هناك أمل فى إصلاح ما أفسدتم .

— أجل هناك أمل .

— حدثنى عن كل شىء إذن بالتفصيل لنتدبر الأمر معاً .

— اسمع يا صديقى . . وانظر إلى هذا الوشم فى ظاهر يدى . . إنه أصل البلايا .

— وكيف !

— جلست يوماً فى مسجد عمرو أشرح بعض آى الذكر الحكيم لنفر من المصلين ، ثم مر على مجلسنا الشاعر عمارة اليمنى ، وتركنا وبعد، ولكنه عاد فوقف خلف الجالسين ، وأخذ يرمقنى بنظرات فاحصة ثم جلس يستمع حتى انتهى الدرس وهو يراقبنى مراقبة دقيقة .

وخرجت من المسجد فإذا به يتبعنى ، واقترب فحيانى باسمى ، فذعرت وخفت ، وارتبكت وأنكرت تحيته ، ولكنه أبان لى أنه قد عرفنى بعلامات كثيرة أخصها صوتى ، وهذا الوشم فى ظاهر يدى رآه وأنا أستعين بيدى أشير بها أثناء الشرح .

فدهش عبد الرحمن لهذا الحديث وقال :

— عجيب أمر هذا اليمنى — إن ذكاءه خارق وإنى لأتوجس

خيفة من هذا الذكاء ، وخاصة وهو لا ينعم الآن بما كان ينعم به أيام الفاطميين ووزرائهم . . ولم لم تخبرنى بهذا فى حينه يا خشترين ؟

— استمع يا شيخ عبد الرحمن لبقية القصة — مشينا نتحدث قليلا ثم دعانى لزيارته فى داره وألح فى الدعوة فقبلت وذهبت ، وهناك استمالنى بأسلوبه المعسول حتى ملت اليه ، ثم أبان لى عن غرضه أن أنضم إليه فى عمل عظيم يكون لى من ورائه خير كثير ، وظل يشكو صلاح الدين وأهله ، ويترحم على أبناء فاطمة ووزرائهم ، ويذكر جودهم وإكرامهم له ، ويثير سخطى على هذه الدولة الجديدة دولة بنى أيوب ويقول : « أترضى أن تعيش مختفياً هكذا تحيا حياة الفقهاء البائسة وأنت رب السيف ورجل الحرب والنزال . . » وأفلح الرجل فى استثارتى وسمعت اليه وعلمت أن فئة من الرجال تعمل لإعادة بنى فاطمة فيهم قاضى القضاة وداعى الدعاة وبعض رجال الجيش ، وفيهم من الفقهاء زين الدين المصرى ، وفيهم رجال من فرنج مصر والشام .

— وأين تجتمعون ؟

— فى كنيسة خربة فى طرف من أطراف الفسطاط .

— وما سبيلكم لتحقيق هذه الأمنية ؟

— كانت خطتنا ذات شقين ، نفذ شق منها وبقى شق . . ؛ كنا نرى أن جيش صلاح الدين فى مصر قوى فأردنا إضعافه وقد أنلحنا فى هذا وكان سلاحنا فى هذا الشق عمارة .

— وكيف ؟

— ظل عمارة كعادته يمدح صلاح الدين وأخوته وبنى أيوب جميعا عله يظفر بفيض المال الذى كان يفيض عليه دون حساب زمن الفاطميين فلم ينل إلا العطاء القليل ، إلا أنه وجد شمس الدولة تورانشاه أكرم بنى أيوب وأسخاهم إذا أعطى، فتقرب إليه وأكثر من مدحه ، فعهدنا إليه أن يحرضه على الخروج لفتح اليمن ليكون له ملك كملك أخيه صلاح الدين فى مصر ، وما زال بتورانشاه ينشده القصيدة تلو القصيدة وينقل إليه أحاديث اليمن ويهون عليه أمر فتحها حتى بات تورانشاه لا يفكر إلا فى اليمن، وطلب من أخيه صلاح الدين أن يسير لفتحها فأذن له.

فقال عبد الرحمن :

— وهكذا نجحتم فى شطر جيش صلاح الدين شطرين ، شطر سار لليمن وشطر بقى فى مصر ، وخيل إليكم أنكم أضعفتم بهذا قوة صلاح الدين فى مصر . . وما هو الشق الثانى من الخطة ياخشترين ؟

— الشق الثانى يتلخص فى الاستعانة بالفرنج وقد تواعدنا معهم أن يحضروا إلى مصر متى سافر تورانشاه فاذا حضروا أشعلنا نار الثورة فى مصر وتعاونا على إعادة الفاطمين إلى العرش وطرد صلاح الدين وبنى أيوب .

سمع عبد الرحمن القصة فعجب لهذه التيارات الخفية تتخذ سبيلها وتمهد لأحداث قوية عاصفة وهو مغمض العينين لا يحس ، ونظر إلى خشترين فوجده قد قبض على خنجره من جديد فسأله :

— وما هذا ؟

قال :

— اننى أحس الآن ضميرى يخزنى وخزا وجيعا وأجد اننى كنت غير موفق منذ وفدت على هذه الديار . أغرانى شاور فخنت أسد الدين وبقيت هنا — ثم عرفت سر أبى الحسن فأنبأت شاور به وكنت السبب فى سجن هذا الرجل الهرم — وأخيرا خاننى الحظ وخضعت لرغبة هذا الشاعر اليمنى واشتركت فى التآمر على صلاح الدين ، وهأنذا الآن أجدنى كرديا فكيف أتآمر ضد صلاح الدين وهو كردى . ولطالما خضت معه المعارك ونلنا النصر سويا . ولهذا أفضل أن أقتل نفسى لأنجو بها من هذا الألم الذى أنوء به .

وأدرك عبد الرحمن أن الرجل صادق التوبة وانه نادم حقا على مافعل وإلا لما روى له أخبار المؤامرة فى تفصيل وهو الذى اقسم أن لايبوح بسرها فأخذ منه الخنجر وقال :

— ياخشترين . انت تعرف أن التائب من الذنب كمن لاذنب له ، وقداعترفت الآن بأخطائك كلها فهل تريد أن تزيدها خطأ بل جرما جديدا لايغتفر — تريد أن تموت كافراً ! . . . لا لا ياصديق . ان أمامك الفرصة المواتية للتكفير عن هذه الأخطاء جميعا . . .

فنظر إليه خشترين وقال :

— وكيف ؟

— تستطيع أن تذهب إلى صلاح الدين فتخبره خبر المؤامرة ليتدارك مافاته ويعاجل المتآمرين قبل أن تتم لهم رغبتهم .

— وماذا يفعل بى صلاح الدين بعد ذلك . . ؟

— يعفو عنك .

— أتظنني أبله إلى هذا الحد ياشيخ عبد الرحمن .

— لا ياخشترين لاتظنن أنى أعذر بك . . بل اذهب فافعل كما أشرت عليك وأنا زعيم أن يعفو عنك صلاح الدين .

— لا ياصاحبي . انا لاأستطيع .

— اذن اتركني امهد لك السبيل . سأذهب إلى القاضى الفاضل وأرجوه أن يستسمح لك صلاح الدين وحينذاك تستطيع أن تفضى إليه بحديثك وأنت مطمئن .

واتفق الرجلان على هذا وخرج عبدالرحمن وقصد إلى دار القاضى الفاضل ودخل فوجد الفقيه زين الدين فى حضرته فعجب لهذا الأمر، ودهش كيف لا زال القاضى الفاضل — وهو الرجل المتقد الذكاء — يثق بهذا الفقيه الذى يتآمر على سلامة الدولة وسلطانها ، وجلس ينتظر أن تنتهى المقابلة ليسر إلى القاضى الفاضل بما يريد فلم تنته ، وطال الوقت وهو قلق لا يكاد يستقر ، وأخيراً مال إلى القاضى الفاضل وهمس فى اذنه بعض كلمات فضحك الفاضل وقال :

— وماذا يمنعك ؟ قل ما عندك فلسنا نخفى عن الفقيه زين الدين شيئا وإن عظم .

فارتبك عبد الرحمن وزادت حيرته ، ولم يدر كيف يفعل ولكنه قال :

— لا ياسيدى القاضى — لا أستطيع — لا استطيع —

ولاحظ الفاضل حيرته فقهقه وقال :

— وكيف لا تستطيع ، قل ولا تخف، وتأكد أن أذنين اثنتين تستمعان إليك ، فزين الدين كشخصى وأنا أثق به ثقتى بنفسى .

فبلغت به الدهشة مبلغاً عظيما ،وبدأ يشك فى القاضى الفاضل نفسه ، وأخيرا قدّر الفاضل حيرة عبدالرحمن فترك مجلسه ، وبعد به إلى ركن قصى من أركان الغرفة فأسر إليه عبد الرحمن بموجز الخبر ، ولشد ما كانت دهشته عند ما لاحظ أن الفاضل علم بالمؤامرة ومدبريها فرداً فرداً ،وذعر عندما وجده يأخذه من يده ويتقدم إلى الفقيه زين الدين قائلا:

— هذا عبد الرحمن يا صديق يشى بك ويقول إنك تتآمر على الدولة وسلطانها .

فأظهر زين الدين الخوف وقال فى ارتباك :

— فعلتها يا عبد الرحمن ولم تراع فىّ حق الصداقة التى بينى وبينك ؟

ثم سكت لحظة وقال :

— وحق الأستاذية يا عبد الرحمن ؟ هل هذا وفاء التلميذ لمدرّسه ؟

واضطرب عبد الرحمن وأراد أن يقول شيئا ليعتذر أو ليبرر فعلته ولكن الكلمات تعثرت فى فيه ؛ وكان القاضى الفاضل يقف خلفه واضعا يده على فمه يخفى ضحكة تريد أن تنطلق فلم يستطيع فانفجر ضاحكا وربت على كتف عبد الرحمن وقال يطمئنه :

— لاتخف ياعبد الرحمن ، إن صديقنا الفقيه زين الدين اشترك مع المتآمرين ليأتينا بسرهم فهو أكثر الناس إخلاصا لمصر واصلاح الدين ، وإنا نشكر لك غيرتك ، والآن أرجو أن تأذنا لي حتى أذهب لصلاح الدين فأبلغه هذا الخبر الجديد وأسأله العفو عن خشترين إكراما لك ياعبد الرحمن .

— شكرا لك أيها القاضى ، إن الرجل نادم غاية الندم ومن الخير أن نعفى عنه فنكتسبه إلى جانبنا .

ونظر القاضى الفاضل إلى عبد الرحمن نظرة العالم بخفايا نفسه وقال مبتسما :

— إن صلاح الدين يقدر الإخلاص والوفاء ياعبد الرحمن ، وسأطلب لك منه جائزة تقربها عينك وتبعث السعادة إلى نفسك .

دموع الفرح

انتهى عبد الرحمن من صلاة العشاء وقام إلى كتبه فاختار من بينها كتاباً ، وجلس قريباً من ضوء الشمعة التى تنير غرفته وحاول القراءة ، غير أنه ظل مدة والصفحة أمامه لم تتغير ولم يفقه لما فيها من معنى فقد كان شارد الذهن قلق النفس يحاول أن يعيد إلى نفسه الطمأنينة فما يستطيع ، وإنه ليذكر الآن كيف وفدت ريحانة إلى داره فى الصباح الباكر تحمل إليه هذا الخبر المؤلم الذى ملأه حزناً وسلبه الهناء : قالت ريحانة إن أميراً من أمراء الجيش الأيوبى تقدم — منذ شهر — للأمير شمس الخلافة يطلب يد فاطمة . فأجابه شمس الخلافة إلى طلبه ، ولم تكد فاطمة تعلم بالخبر حتى رفضت وأصرت على الرفض ، وأصر والدها أن يزوجها من الأمير ، وملك الألم على فاطمة نفسها فمرضت واشتد بها المرض ، وهى لاتذكر الآن وهى فى غيبوبة الحمى غير عبد الرحمن .

ألقت ريحانة لعبد الرحمن بهذه الأخبار فاكتنفه الألم وتغلب عليه الحزن وهاهو ذا الآن يجلس فى داره وحيدا بعد أن خرج خشترين ليرى ريحانة وينعم بالجلوس إليها فى مكان اتفقا عليه هذا الصباح .

وبحث عبد الرحمن فيمن حوله عن صديق يفضى إليه بسره ويسأله الرأى والنصيحة والعون فلم يجد ، فكر أن يذهب للسلطان صلاح الدين فيبسط له الأمر عله يسعى لدى الأمير شمس الخلافة فيقنعه ولكنه

عاد يسائل نفسه : وكيف أسعى إلى السلطان والذى يطلب فاطمة أمير من أمراء جيشه ؛ وفكر أن يلجأ إلى الأمير شمس الخلافة نفسه — غير أنه أسرع فنفى هذا الخاطر عن نفسه قائلا :

ومن أكون أنا حتى يفضلنى الأمير شمس الخلافة على أمير ذى حول وطول وغنى وجاه . . ؟

وفكر أن يقصد القاضى الفاضل فإن له دالة على صلاح الدين وعلى الأمير شمس الخلافة ثم انه لابد وأن يقدر له سعيه فى سبيل كشف المؤامرة ولكن نفسه لم تقبل هذا الرأى وقالت : « وكيف تجرأ أن تحدث القاضى عن هذا السر ، وماذا تقول . إنه موضوع شائك فقد يسألك الفاضل : وما العلاقة بينك وبين فاطمة ؟ ، فماذا يكون جوابك ؟ ! »

وظل هكذا ردحا من الوقت . يبحث عن الصديق وكلما لمس الطريق التى يحسبها توصله إلى بغيته انبرت له نفسه تبين له العقبات التى تملأ هذا الطريق وتسد مسالكه ، وأخيرا تنهد وقال :

— من لى بأبى الحسن الآن ؟ انه حلال المعضلات ، وهو الرجل الذى استطيع أن اكشف له عن خبيئة نفسى دون خوف أو حرج .

وطرأت عليه فى الحال فكرة غريبة فطوى الكتاب وقام يجمع ملابسه ولكنه سرعان مانظر إلى الشمعة فأدرك أن الوقت ليل ، وكيف يستطيع السفر إلى دمياط ليلا ؟ ؟

وقضى عبد الرحمن ليله ساهراً ، وعاد خشترين ، فتظاهر بالقراءة حتى نام كيلا يثير شكوكه ، فلما سمع آذان الفجر أسرع فصلاّه فى المسجد . ووضع ملابسه على البغلة وركبها وودع خشترين قائلا :

— إلى اللقاء ياصديقى ، فانى مسافر إلى دمياط لزيارة صديقى أبى الحسن وسأعود سريعا .

واجتاز عبد الرحمن شوارع الفسطاط وشوارع القاهرة واتجه شمالا يقصد إلى دمياط — إلى صديقه ابى الحسن —

سبعة أيام طويلة طول الزمن كله قضاها عبد الرحمن فى طريقه إلى دمياط ، يقضى يومه فى المسير بحذاء النيل ، ذلك النهر الخالد المبارك الغدوات والروحات ، يحمل إلى أرض مصر وساكنيها الرى والخصب والخير ، وكان يسرح بصره فلا يقع إلا على بساط سندسى ، كأنه — كما وصفه عمرو بن العاص — زبرجدة خضراء ، لاتؤنسه فى وحدته إلا أفكاره المشتتة حينا تعجب بما يرى ، المجمعة حينا آخر حول فاطمة وحبه لها ، وما يكتنف علاقتهما من ظلمات .

وفى صباح اليوم السابع بدت له حصون المدينة وأسوارها وقلاعها تشرف عالية من بعيد تحمى هذا الثغر من عاديات الزمن وغارات الانسان ، وترفرف عليها أعلام صفراء ، هى أعلام الدولة الايوبية الجديدة نقشت عليها جملتان هما جماع ما دعى ويدعو إليه الاسلام ، هما رسالته إلى العالمين ، هما اللتان حمتا المدينة القديمة وتحميانها

قبل أن تحميها هذه الأسوار والقلاع ، هما : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله »

وقرب عبد الرحمن من المدينة ، ودخل من أحد أبوابها ، وجاس خلال شوارعها وأزقتها .

وبحث وسأل حتى عرف دار أبي الحسن فطرق الباب وفتح له خادم عجوز ، ودخل فاجتاز رحبة واسعة الى غرفة مدت فيها أرائك كثيرة جلس على أحدها أبو الحسن ، فتقدم عبد الرحمن ولم يتمالك نفسه فأسرع إلى الرجل الهرم فعانقه وقبله وقد ارتفع صوته بالبكاء .

وصاح أبو الحسن بعد أن وقف وفتح ذراعيه فضم إليه ضيفه العزيز وقال:

— عبد الرحمن ، ولدى ... أهلا . أهلا . . عبد الرحمن كيف أنت ؟ وظل الرجلان يتعانقان ويقبل كل منهما أخاه فى لهفة وشوق، ثم جلس عبد الرحمن وقال :

— كيف صحتك ياأبا الحسن . . والله لقد أوحشتنا فنحن للحياة طعما وأنت غائب عنا .

— بارك الله فيك يابنى . . . انى لاستطيع ان أصف لك فرحى بمقدمك — يامرحبا — يامرحبا . . .

ودار الحديث بين الرجلين وقتا طويلا وأبو الحسن يسأل ضيفه عن القاهرة وأخبارها وعن الفسطاط ومسجدها وداره بها وأصدقائه واحدا واحدا . .

ثم نظر إلى عبد الرحمن وقال :

— انى أقضى الأيام الباقية هنا مرتاح البال مطمئن النفس وخاصة بعد أن علمت أن الأمور الآن قد انتقلت إلى صلاح الدين وانه يقضى على الحيات التى تسعى لتنفث سمها . . ولكن خبرنى كيف فعل صلاح الدين بعمارة وصحبه ؟

— لقد شنقهم واحدا واحدا على أبواب القاهرة .

فأطرق أبو الحسن وقال :

— رحم الله عمارة وغفر له . . لقد قتله المال .

فقال عبد الرحمن :

— فى الحق أن عمارة كان قد تجرأ على صلاح الدين وأهله كثيرا وقد أنقذه القاضى الفاضل من الموت أكثر من مرة .

— أجل انى لأذكر كيف هجا عمارة تقى الدين عمر بن شاهنشاه . ابن أخى صلاح الدين : بقوله :

عظمتما الأمر وفخمتماه ما ابن شاهنشاه إلا ابن شاه
ومن تكون الشاة أما له فما يكون التيس إلا أبا

فغضب تقى الدين وأصر أن يقتله فأسرع عمارة إلى الفاضل ودخل عليه داره وهو يصيح :

عبد الرحيم احتمل صداعى فالرأس يعتاده الصداع

فضحك منه عبد الرحيم وشفع فيه حتى عُفى عنه .

فقال عبد الرحمن :

— ولكنه لم يرتدع بل ظل يتنقل فى انحاء القاهرة وهو يبكى

الفاطميين بشعر حلو جميل يثير الشعور ، ويعرض بنى أيوب فى شعره استمع الى قوله :

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم وعاش قوم وهم فى الناس اموات

ثم ضحك عبد الرحمن وقال :

— أتعرف ياأبا الحسن ماذا فعل عمارة بعد أن قبضوا عليه ؟

— وماذا فعل ؟

— طلب من الجنود أن يمروا به على دار القاضى الفاضل كى يسأله العون والشفاعة لدى السلطان فأجابوه إلى طلبه ، فلما مر بالدار دخل الفاضل وأغلق الباب فأيقن عمارة بالهلاك وقال :

عبد الرحيم قد احتجب إن الخلاص من العجب

ثم أراد عبد الرحمن أن يبدأ فيشكو همه إلى أبى الحسن ويبثه حزنه ولكنه حار كيف يبدأ ، وأحس قلبه يخفق خفقانا شديد ، فمد يده ووضعها على قلبه وكأنه يريد تهدئته فأحس بالقلب الذهبى - الذى قدمته له فاطمة يوم خرج الى الشام بالرسائل إلى نور الدين - تحت أصابعه فأخرجه وأخذ يعبث به بين أصابعه ؛ ولمح أبو الحسن شيئا يبرق فى يد جليسه وهو ساكت لايتحدث فسأله :

— ماهذا ياعبد الرحمن ؟

فارتبك عبد الرحمن وقال :

— هذا قلب ذهبى — ومد يده فأعطاه لأبى الحسن :

وأمسكه أبو الحسن وقربه إلى نظره وأخذ يقلبه بين أصابعه وهم

أن يقول شيئا يداعب به عبد الرحمن ولكنه جفل وهم واقفا كمن لدغته عقرب وصاح : — عبد الرحمن .

فذعر عبد الرحمن وخشى أن يكون الرجل أصيب بمكروه فأسرع إليه وقال :

— لبيك يا أبا الحسن .

— من أين لك بهذا القلب ؟؟

فلم يعرف عبد الرحمن العلاقة بين القلب وهذه الحالة التى طرأت على الرجل العجوز وقال :

— لقد قُدم إلى كهدية من شخص عزيز علىّ

— ومن يكون هذا الشخص ياعبد الرحمن ؟

ونظر عبد الرحمن فوجد الشيخ يبكى فلم يستطع كتمانا وقال :

— من فاطمة بنت الأمير شمس الخلافة ، ولكن ما الذى أفزعك هكذا ؟

فلم يجبه أبو الحسن ، ولكنه جلس ورفع القلب إلى فمه واندفع يقبله فى شوق ولهفة غريبين ، وارتفع صوته بالبكاء ، فاشتدت حيرة عبد الرحمن وقال :

— هوّن عليك ياصديق ، وحدثنى حديث نفسك فإنى أحس أننى أثرت فى نفسك هما دفينا .

فكفكف أبو الحسن دمعه وقدم القلب إلى عبد الرحمن وقال :

— أنظر إلى إطار القلب وحاول أن تقرأ ما عليه .

فنظر عبد الرحمن فوجد حروفا منفصلة فوصلها وقرأها فإذا بها :

— هدية من على المصرى إلى حفيدته فاطمة . فقال :

— إنه معى منذ سافرت إلى الشام ولكننى لم ألتفت إلى هذه الحروف فما خبرها . . ؟

— أجل ما خبرها ؟ آه لو كانت هى فإن الله يكون قد رأف بى فى شيخوختى وعوضنى خيرا عن حزنى الماضى الطويل . . استمع لقصتى ياعبد الرحمن فإنى أحس أنك لا تفهم عنى شيئا : كانت أسرتنا يابنى فى دمياط خيرة الأسر وأكبرها وأغناها وكان جدى لأبى تاجرا ذا تجارة واسعة ، وكان سنى المذهب تقيا ورعا كثير التدين ، وحدث ذات يوم أن ثار النقاش بينه وبين فقيه شيعى من رجال الدولة الفاطمية، واحتد الفقيه فى نقاشه فسب جدى فلطمه هذا على وجهه .

ونقل الخبر إلى الخليفة الحاكم بأمر الله ذلك الرجل الملتاث فى عقله المدعى الالوهية فأمر جنده فى المدينة فألقوا القبض على جدى وأرسل إلى القاهرة حيث قتل . فقال عبد الرحمن :

— ولهذا كنت تكره هذه الدولة البائدة ؟

— هذا سبب من أسباب كثيرة فاستمع إلى بقية حديثى : تزوجت صغيرا وولد لى ثلاثة أولاد ، مات اثنان منهم وبقى ثالثهم ، وشب الولد وكبر وتزوج من بنت عم له كان يقيم فى قوص ليشرف على شئون التجارة الصادرة عنا والواردة الينا من اليمن ، ورحل ابنى ليعمل مع عمه فى تجارته .

واشترى أخى يوما جارية تركية جميلة ، وكان له أعداء من رفاقه

التجار فسعوا لدى شاور وهو والى قوص يومذاك وبالغوا فى وصف الجارية واغروه بأخذها فامتنع أخى عن بيعها فأضمرها له شـــاور وحرض أناسا اتهموا أخى لديه بمهاجمة المذهب الشيعى والتعرض لمقام الخليفة بالسب والاهانة فقبض عليه وقتله وصادر أمواله .

وخرج ابنى من قوص هائما على وجهه ومعه زوجه وابنته ، وشاء سوء الطالع أن يهاجمه وهو فى الطريق جماعة من العربان فيقتلوه ويسلبوه زوجه وطفلته فاطمة . . أجل فاطمة التى أهديتها هذا القلب يوم ولادتها . واشتد بى الحزن فهاجرت دمياط وعشت فى الفسطاط أقضى معظم وقتى فى مسجد عمرو كما كنت ترانى أتمنى لو أصاب الله هذه الدوله ورجالها بشواظ من نار فقضى عليها .

وثارت أحزان أبى الحسن وهو يحكى قصته فعاد إلى البكاء ، وكان عبد الرحمن يتابع القصة فى شوق شديد ويعجب فيما بينه وبين نفسه : وما العلاقه بين هذا كله وبين شمس الخلافة وابنته ؟

ونظر فرأى أبا الحسن يقلب كفيه فى حيرة شديدة ويحدث نفسه:

— ترى هل تكون هى ؟ فقال عبد الرحمن :

— تريد أن تقول إن فاطمة بنت شمس الخلافة هى حفيدتك ؟ وكيف يتفق هذا ؟

— هذا ما لست أعرفه الآن فلا بد من سفرى إلى القاهرة

ورأى عبد الرحمن الفرصة سانحة فأفضى إلى أبى الحسن بما فى نفسه وأنه حضر إليه يستعينه ويطلب مساعدته .

فتهلل وجه أبى الحسن وقال :

— والله لو كانت فاطمة حفيدتى فأنت خير زوج لها .

وأسرع الرجلان وتركا دمياط يريدان القاهرة ودخلا على صلاح الدين فى دار الوزارة فرحب بهما كل الترحيب وفرح كل الفرح لرؤية صديقه أبى الحسن بعد هذه الغيبة الطويلة . ولما سمع قصتها عجب منها وأرسل فاستدعى الأمير شمس الخلافة وقص عليه الرواية كلها ولشدما كانت دهشة الجميع عندما سمعوا شمس الخلافة يقول :

— إذن فاطمة حفيدتك يا أبا الحسن ـ فلتتخذنى ابنا لك إذن .

فلم يتملك ابو الحسن نفسه من الفرح وجرى نحو شمس الخلافة وعانقه وأخذ يقبله ويقول :

— أجل ـ أنت ابنى .. انت ابنى ـ ولكن كيف وصلت إليك فاطمة ؟

— لقد تقدم إلىّ بها أحد الأعراب فاشتريتها وربيتها إذ لم يكن لى أولاد ، وإنها الآن لأعز علىّ من كل ما أملك .

وانتقل الجمع إلى دار شمس الخلافة ودخل الأمير إلى غرفة فاطمة فمهد لهذه الأخبار المفاجئة تمهيدا ثم دعى الجميع فدخلوا يتقدمهم ابو الحسن الذى أقبل على سرير المريضة فقبلها وهو يقول :

— شفاك الله وعافاك يابنتى وابنة ولدى .

وكتب القاضى الفاضل عقد الزواج بين فاطمة وعبد الرحمن ، وانطلقت الزغاريد تجلجل فى انحاء القصر ، وتقدم عبد الرحمن بقلب خافق فأمسك بيد فاطمة ورفعها إلى فمه فقبلها فى صمت ؛ ومشى صلاح الدين ليهنىء أبا الحسن وشمس الخلافة فوجدهما قد أدارا وجهيهما يمسحان دموعا طفرت من عينيهما . . هى دموع الفرح .

دار الفكر العربي

مؤسسه عربية للطباعة والنشر

شارع القصر العيني عمارة مارسيني بالقاهرة

تليفون ٥٦٤٦٧

ظهر حديثاً

بين الحبشة والعرب ، للاستاذ عبد المجيد عابدين مدرس اللغة الحبشية : ٢٥ ص

موضوع جديد لم يطرقه مؤلف عربي من قبل ، تقرأ فيه آراء جديدة في هجرة المسلمين إلى الحبشة ، آثار الحبشة في البلاد الاسلامية ، أصحاب الفيل . أصحاب الأخدود ، الاسلام في الحبشة .

الحجاج سيف بني مروان ، للاستاذ عبد الرازق حميده المدرس بدار العلوم: ٢٥ ص

كتاب يعرض تاريخ رجل من رجالات بني أمية ، الذين كان لهم فضل على السياسة والأدب وطار لهم ذكر في المشارق والمغارب ، في أسلوب على دقيق ورعاية للحق وعناية بالشواهد والبراهين .

الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول ، ٥٠ ص

للدكتور عبد اللطيف حمزه المدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد :

قدم له الأستاذ احمد أمين بك فقال « إن قراءة هذا الكتاب تدل دلالة قاطعة على ما بذله المؤلف من جهد مضنى وعناد متواصل في سبيل دعوة يضل سالكها وتصعب رؤية معالمها إلا بعون من الله » .

قصصنا الشعبي ، للدكتور فؤاد حسنين على الاستاذ بكليه الآداب بجامعة فؤاد : ٢٠ ص

قال فيه الاستاذ محمود تيمور بك « اطلت على أبحاث فنية عن قصصنا الشعبي دبجتها براعتكم الكريمة فراقتني فيه تحليلكم الفني لهذه القصص واهتمامكم بالتعريف به فكتبت اليكم هذا لأعبر لكم عن صادق اعجابي » .

المسرح عن شوقى ، للاستاذ محمود حامد شوكت : ٢٠ ص

بحث فى المسرحية فى شعر شوقى وتقديم لتاريخ المسرح المصرى وظواهره من عصر الفراعنة حتى العصور الحديثة ، وتفسير مقومات مسرح شوقى من تأثره بالمسرح الأوربى والمسرح المصرى المعاصر مع تحليل ونقد كل مسرحية نقداً علمياً .

قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والإسلام ، ١٨ ص

للدكتور توفيق الطويل المدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق :

سيرة الاضطهاد الدامى الذى أنزله الرومان بالمسيحية وشهدائها ، والكنيسة الكاثوليكية على خصومها من الكاثوليك والبروتستانت وغيرهم من رواد الفكر الحديث ، وتاريخ ماوقع فى الاسلام من مآسر الاضطهاد المرير مع دعوة للتسامح والحرية الدينية قبل أن تعرف أوربا هذه الحرية بأحد عشر قرناً من الزمان .

مرقص العميان ، للدكتور عارف العارف : ١٥ ص

قصة رائعة تعرض لحوادث فى فقد البصر ولم يفقد البصيرة فصورت نزعاته وآراءه ، وآلامه وملذاته على الشىء ، وأطلعتنا على الشىء الكثير من دنيا العميان .

الأدب المقارن ، تأليف فان تيجم أستاذ الأدب بالسوربون : ٢٠ ص

با كورة سلسلة الآداب العالمية التى تصدرها دار الفكر العربى من تأليف كبار الأساتذة وترجمة خير الكتاب العرب ، نقطة حاسمة فى تاريخ الدراسات الأدبية باللغة العربية .

سر الحاكم بأمر الله ، للاستاذ على احمد باكثير : ١٥ ص

أقوى مسرحية ظهرت باللغة العربية ، تجلو شخصية الحاكم وتكشف سرها الذى حير المؤرخين . وقد فازت بالجائزة الممتازة فى مباراة وزارة الشئون الاجتماعية .

أطفال بلا أسر ، تأليف أنا فرويد ودروثى برلنجهام . تعريب الأستاذين : ٢٠ ص

محمد بدران المراقب العام المساعد للثقافة بوزارة المعارف ورمزى يسى :

يبحث مشاكل الأطفال الذين يربون بالملاجىء ودور الحضانة ، كما يبحث فى العلاقة بين الأطفال وأنفسهم ، وبينهم وبين مربياتهم ، وبين أثر المعاهد فى نفوسهم كما يكشف عن الآثار التى تنجم عن حرمان الطفل أسرته من .

للمؤلف

(ا) تأليفا :

١ — الأدب المصرى القديم ، فصل فى كتاب « تراث مصر القديمة » الذى اشترك فى تأليفه نخبة من أساتذة جامعة فؤاد الأول ، مطبعة المقتطف ١٩٣٧ .

٢ — رفاعة الطهطاوى (زعيم النهضة الفكرية فى عهد محمد على) — مجموعة أعلام الإسلام ، نوفبر ١٩٤٥ .

٣ — تاريخ الترجمة فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، بحث أجيز لدرجة الماجستير مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة فاروق الأول ، ونال جائزة البحث الأدبى لسنة ١٩٤٦ من مجمع فؤاد للغة العربية (يظهر قريباً) .

٤ — الفسطاط (أول عاصمة لمصر الإسلامية) ، (لم يطبع بعد) .

٥ — معجم السفن العربية ، (لم يطبع بعد) .

(ب) نشرا : مكتبة المقريزى الصغيرة :

١ — إغاثة الأمة بكشف الغمة ، بالاشتراك مع الدكتور محمد مصطفى زيادة مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٠ .

٢ — نحل عبر النحل ، الناشر مكتبة الخانجى ١٩٤٦ .

٣ — اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الخلفا ، الناشر دار الفكر العربى ، (يظهر قريباً جداً) .

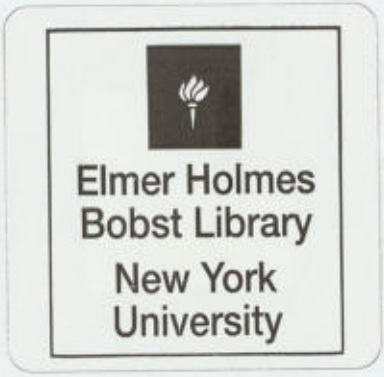
Elmer Holmes
Bobst Library
New York
University

NYU - BOBST
31142 02341 1849
DT95.5 .S43 1947
Misr wa-al-Sham bayna dawlatay